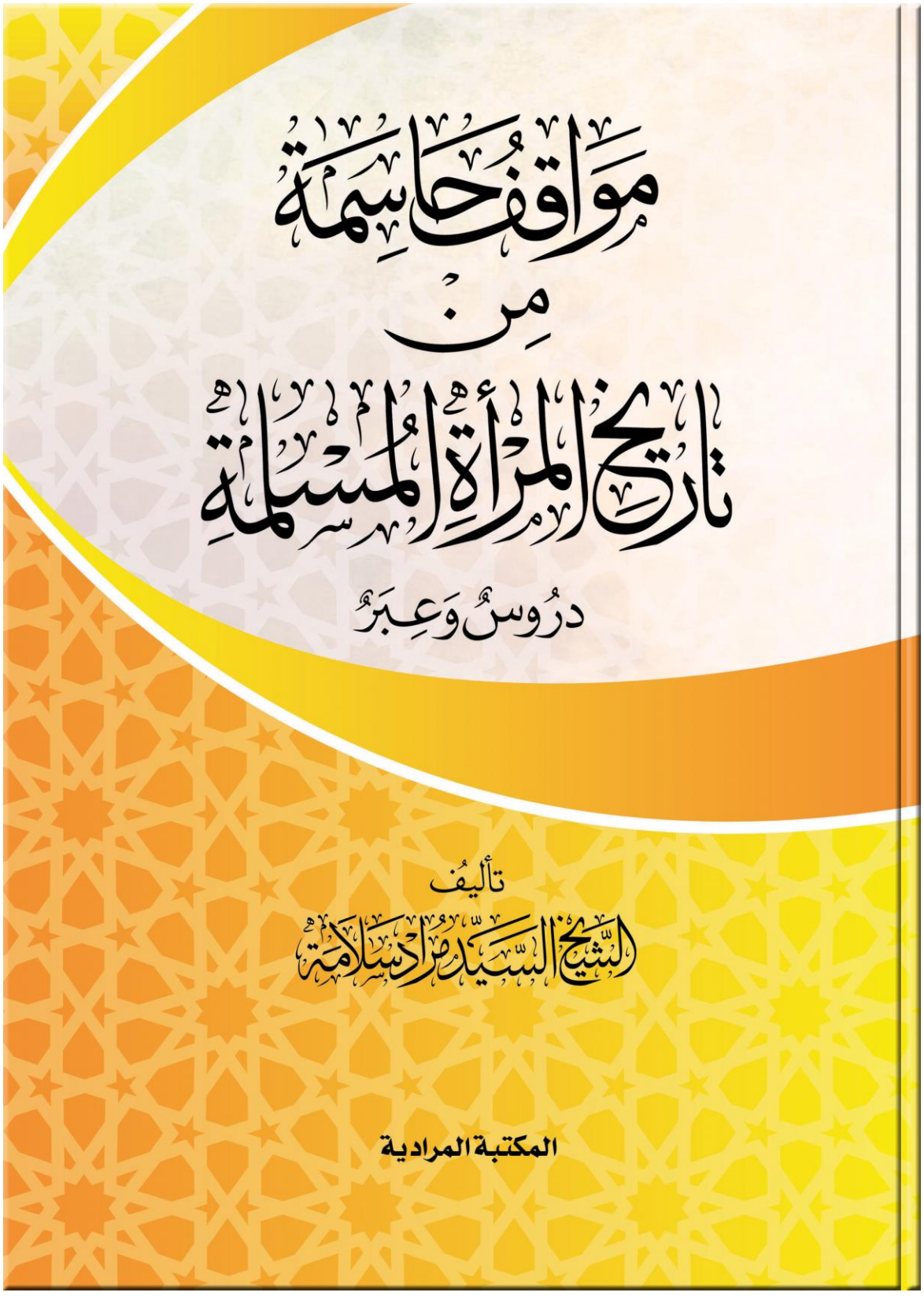

مواقف حاسمة
من
تاريخ المرأة المسلمة
دروس وعبر
تأليف
الشيخ السيد مراد سلامة
المكتبة المرادية

مواقف حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة

دروس وعبر

تأليف
الشيخ السيد مراد سلامة

المكتبة المرادية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ". [آل عمران/ ١٠٢]

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" [النساء/ ١].

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا". [الأحزاب/ ٧٠ – ٧١].

إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ... وبعد.....

أخي المسلم. أختي المسلمة :إن الأمة الإسلامية تعيش في الفترة الأخيرة حرب شعواء يهاجم فيها الأعداء القيم و المثل التي دعا إليها الإسلام حيث أضحت الرزيلة عند بعض هؤلاء فضيلة و الفضيلة رزيلة و انقلبت الموازين و نطق الرويبضة و هذا ما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم – عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ خَدَّاعَةً يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ : وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ ؟ قَالَ : الْمَرْؤُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ (١).

---

١ – أخرجه أحمد ح١٣٣٢٢ و البزار ح ٢٧٤٠ و الحاكم ح ٨٤٣٩ و عبد الرزاق في مصنفه ح ٢٠٨٠٣ و الطبراني في الكبير ح ١٤٨٣٢ و في الأوسط ح ٣٢٥٨ وأبو يعلى في مسنده ح ٣٧١٥ و قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٣٦٥٠ في صحيح الجامع

ولا أجد وصفا أبلغ بعد قول الله وقول رسوله ﷺ من قول شيخي **الحبيب علي القرني – حفظه الله – حيث يقول**: كل ذلك عبر شبكات وقنوات وصحف ومجلات .... نظَّرَ لها المفسدون .... واستحوذ عليها المستهترون .... لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولمئت منها رعبا ..... ولازالوا يخصفون عليها زخرف القول غرورا.... واتخذوا معها القرآن مهجورا .... تنفث السموم وتحمل النفاق والتدجيل.... .... فإذا الحق باطل والأباطيل حقوق والإفك أثوم قيلا .... شعاراها من ذا يعيب هز البطون ..... وذاك من روائع الفنون .... الدين أن تبدوا ظريفا مرنا.... وإن عبدت نعجة أو وثنا....

ما الدين بالعفاف والصلاة الدين خذ فيه خفة وهات

فيها أعذب مطرب هو الحمار .... وشر مزعج هو الهزار ..... وأشجع الشجعان ذاك الأرنب .... والليث رمز الجبن لا تعجب .... دنيا الإعلام تقليب الحقائق ... وتظهر العلقم حلو الرائق .... فأفرزت لنا جيلا غالبه مظلم الروح.... بليد الذهن.... ضعيف الإرادة.... يترنح كالذي يتخبطه الشيطان من المس .... سقط متاع لا يباع ولا يبتاع .... دوٍ كحال الطبل .... ما في جوفه شيء .... ولكن للمسامع يشغل .... هبل إذا اجتمعوا صاحوا .... ([1])

إنه زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، زمن تصديق الكاذب وتكذيب الصادق وائتمان الخائن وتخوين الأمين ، إنها سنوات خداعة تصدر فيها الأراذل ، وارتفع الأسافل ، وتكلم الرويبضة ، وأُخذ فيها عن الصِغار –عليهم من الله الذلة والصَغار – ، وممن سلك في هذا النظام وخاض هذا المضمار الموحل رويبضة تافه ، صُدر فتصدر ، وقُدم فتقدم ، فأطل على الناس في قناة فضائية (عربية) ، ليعلن فيها ضلاله ويكشف عن انحرافه في صورة تعد سابقة في إعلان الضلالة والانحراف بكل وقاحة وصلافة وصفاقة وبجاحة ، وكأن الدين من قلوب الناس قد انعدم ، والإيمان قد زال منها وانثلم...رفع هؤلاء راية الجهاد الشيطاني لأن القائد الأعلى في هذه الحرب هو إبليس و جعلوا جلَّ

[1] –إيماض البرق محاضرة للشيخ علي القرني حفظه الله

أهدافه و غاية سعيهم هو تحرير المرأة من الفضيلة ليوقعوها في الرزيلة و من العفة حتى تنحط في بحار الخلاعة و المجون فهم يقولون إن الإسلام قد ظلم المرأة و نحن جئنا لنحررها من عبودية الله وحده إلى عبودية الشهوات فأصبحت كرامتها لا تساوي نعلا تعلن عن على الشاشات قد خلعت برقع الحياء و كشف عن مفاتنها و باعت عفتها في سوق الهوان و اشتراها الشيطان ليجعلها وثنا يعبد من دون الملك الديان....

وللأسف الشديد لقد استجابة المرأة لتلك التفاهات و خربة بيتها بيديها فحالها كما قال الله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٢-٩٣]

أخي المسلم... أختي المسلمة: فكان لزاما و أجل مسمى أن أضع بين يدي كل مسلم و مسلمة مكانة المرأة في الإسلام و أن الإسلام جاء ليرفع قدرها و يعلو بشأنها و يحفظ لها شرفها فهي درة مصونة و لؤلؤة مكنونة .... إلى هؤلاء مكانة المرآة في كتاب رب الأرض و السماء و في سيرة الأصفياء من الأنبياء كيف كانت المرأة حاضنة للأبطال و صانعة الرجال فالتاريخ اعني الإسلامي الذي مصدره كلام الرب العلي و سنة الحبيب النبي يحفظ لنا دور المرأة و كيف رسمت لنا مواقف حاسمة في تاريخ المرأة المسلمة فهي لم تكن في يوم من الأيام مسخا إمعة أو أنها كانت مظلومة بل كانت تهز المهد بيدها اليمنى.. وتهز العالم بيدها الأخرى، وتزلزل عروش الكفر بشمالها وترسخ الدعوة الإسلامية بكل جوارحها.

يا دُرةً حفظت بالأمس غاليةً واليومَ يبغونها للهو واللعب!

يا حُرةً قد أرادوا جعلها أمةً غريبة العقل غريبة النسب!

و قد جاءت هذه الدراسة لتبين لكل مسلم و مسلمة مكانة المرأة و كيف أنها كان لها دورا بارزا في حفظ و رفع راية التوحيد وكانت أي: المرأة مربية، وقانتة، وعابدة، وصائمة، وقائمة؛ ومربية وداعية تصنع الرجال وتخرج الأبطال.

وجاءت الدراسة في عدة أبواب:

الباب الأول: الإسلام دين الأنبياء جميعا:

وبينتُ في هذا الباب أن الدين الذي جاء به جميع الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ إنما هو الإسلام و ذلك من خلال كلام الملك العلام :

الباب الثاني مكانة المرأة في الشرائع السماوية:

الفصل الأول: المرأة في حياة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)

الفصل الثاني: مكانة المرأة في الإسلام

الباب الثالث: صور حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة:

الفصل الأول: مواقف حاسمة من حياة المرأة المسلمة في الأمم السابقة، وذكرت فيه لكل مسلمة نماذج من تاريخ المرأة المسلمة في الأمم السالفة وكيف لعبت المرأة دورا بارزا في الدعوة إلى الله تعالى وكيف لاقت من المشاق والمتاعب في سبيل دينها.

الفصل الثاني: مواقف حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة: أمة محمد ﷺ صور مشرقة مشرفة للمراة في صدر الإسلام و أخرى عبر عصوره المزهرة و أيامه النيرة .....

فالله اسأل أن ينفع بهذا العمل المسلمين والمسلمات أن يجعله خالصا لوجهه الكريم

كتبه أبو همام / السيد مراد سلامة

إمام وخطيب ومدرس بوزراة الأوقاف المصرية

مصر / محافظة البحيرة / مركز شبراخيت / قرية فرنوى

الباب الأول
الإسلام دين الأنبياء جميعا

اعلم علمني الله وإياك: أن الإسلام عند يطلق يريد به الشرائع والتكاليف التي جاءت بها الأنبياء والرسل إلى أممهم فدين الإسلام كما سنعرف دين جميع الأنبياء جاءت به جميع الكتب السماوية من لدن ادم عليه السلام وحتى محمد خير الختام – صلوات ربي وتسليماته على جميع الأنبياء والمرسلين.

فما هو الإسلام؟

الإسلام: هو الاستسلام لله، والانقياد له سبحانه بتوحيده، والإخلاص له والتمسك بطاعته وطاعة رسوله ﷺلأنه المبلغ عن ربه، ولهذا سمي إسلاما لأن المسلم يسلم أمره لله ، ويوحده سبحانه ، ويعبده وحده دون ما سواه ، وينقاد لأوامره ويدع نواهيه ، ويقف عند حدوده ، هكذا الإسلام .

وله أركان خمسة وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع.

والشهادتان معناهما: توحيد الله والإخلاص له، والإيمان بأن محمدا رسوله إلى الناس كافة، وهاتان الشهادتان هما أصل الدين، وهما أساس الملة، فلا معبود بحق إلا الله وحده، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، كما قال عز وجل : ((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) [الحج : ٦٢]))

وأما شهادة أن محمدا رسول الله فمعناها: أن نشهد – عن يقين وعلم – أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي هو رسول الله حقا، وأن الله بعثه للناس عامة، إلى الجن والإنس ، إلى الذكور والإناث ، إلى العرب والعجم ، إلى الأغنياء والفقراء ، إلى الحاضرة والبادية ، ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) [الأعراف : ١٥٨])) فهو رسول الله

إلى الجميع ، من اتبعه فله الجنة ، ومن خالف أمره فله النار ، «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى".

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟.

قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى".» (١)

فهذه العقيدة الإسلامية العظيمة مضمونها: توحيد الله، والإخلاص له، والإيمان برسوله محمد ﷺ ، والإيمان بجميع المرسلين ، مع الإيمان بوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله . هذه هي العقيدة الإسلامية.

أهل الكتاب لا يفقهون ما تعني كلمة الإسلام:

يبدو أن أهل الكتاب عموما لا يفقهون شيئا مما تعني كلمة (الإسلام) الذي يمقتونه ويرفضونه، وإلا لكان لهم موقف آخر من المسلمين غير هذا الموقف البغيض العدائي، وفي هذا المعنى يقول المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في كتاب الدين: (إذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالا لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية، فالإسلام في لغة القرآن ليس اسما لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل إتباع الأنبياء).

الإسلام دين الأنبياء جميعا :إن الإسلام هو دين الله، الذي لا دين له سواه.... ولقد تكفل سبحانه وتعالى بنصره وتمكينه وإظهاره على الدين كله!

لكن: أي دين هو ذلك الإسلام، وهل هناك ديانات أخرى تزاحمه في علاقتها بالله؟ أقول في الإجابة:

إن الله سبحانه وتعالى، لم ينزل ديانات مختلفة، وإنما أنزل على عباده المرسلين دينًا واحدًا، وهو الإسلام قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} . (سورة آل عمران، آية ١٩.) .

---

١ – أخرجه البخاري (ح: ٧٢٨٠) والحاكم (ح: ١٨٢) والبزار في مسنده (ح :٨٧٥٧)

يقول المراغي – رحمه الله–(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) أي إن جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع ، وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال ، وبه كان الأنبياء يوصون. فالمسلم الحقيقي من كان خالصا من شوائب الشرك، مخلصا في أعماله مع الإيمان من أىّ ملة كان، وفي أي زمان وجد، وهذا هو المراد بقوله عز اسمه «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ».

ذاك أن اللّه شرع الدين لأمرين:

(١) تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات بها تستطيع التصرف في الكائنات لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها.

(٢) إصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية للّه وللناس.

وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلقي ليسهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية. (١)

قال ابن كثير: قوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمدًا ﷺ بدِين على غير شريعته ، فليس بمتقبل. كما قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ]} [آل عمران: ٨٥] وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ}

وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} بكسر إنه وفتح {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} أي: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله

---

١ – تفسير المراغي – (٣ / ١٢٠)

الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم. ا هـ)[1]

وقد عرف العلماء الدين الصحيح بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير باطنا وظاهرا.

ولقد جاء بهذا الدين الواحد جميع رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

جاء به نوح –عليه السلام –:

قال تعالى﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾[يونس: ٧١-٧٢].

وجاء به إبراهيم – عليه السلام – : قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٣٣]..

[1] – تفسير ابن كثير حـ ٢ صـ ٢٥

وجاء به يعقوب -عليه السلام -: قال تعالى {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} . (سورة البقرة، الآية ١٣٣).

وجاء به لوط -عليه السلام -:

قال تعالى {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ} { لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ } { مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ } { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } { فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } . (سورة الذاريات، الآيات ٣١-٣٦). .

وجاء به يوسف عليه السلام: قال تعالى {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (سورة يوسف، آية ١٠١). .

وجاء به موسى عليه السلام: قال تعالى {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} (سورة يونس، ٨٤). .

وهو دين قوم موسى من بني إسرائيل:

قال تعالى {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (سورة يونس، آية ٩٠) .

وهو دين السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٦]

وهو دين أنبياء بني إسرائيل:

قال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} (سورة المائدة، آية ٤٤).

وهو دين سليمان عليه السلام:

قال تعالى﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[النمل: ٢٩-٣١].

وقال تعالى {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (سورة النمل، آية ٣٨) .

وقال تعالى {فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} . (سورة النمل، آية ٤٢) .

وقال تعالى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} . (سورة النمل، آية ٤٤).

وهو دين المسيح عليه السلام وحوارييه:

قال تعالى {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (سورة عمران، آية ٥٢).

وقال تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} (سورة المائدة، آية ١١١) .

وهو دين المهتدين من الجن:

قال تعالى﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن: ١٤-١٥] .

وهو دين المتمسكين بالحق من أهل الكتاب قبل بعثة محمد ﷺ :

قال تعالى﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾[القصص: ٥٢-٥٣] . .

ثم هو دين النبي الخاتم محمد ﷺ :وقال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة آل عمران ، الآيتان ١٩-٢٠.) . .وقال تعالى { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } (سورة غافر ، آية ٦٦.) . .

وقال تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (سورة المائدة، آية ٣.).... بل إن القرآن الكريم ليقرر في وضوح كامل أن الإسلام دين أهل السماوات والأرض.

قال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} (سورة آل عمران، آية ٨٣.) ،

وإلى هذا الدين وحده، وجه النبي الخاتم رسله ورسائله إلى الملوك وعظماء الملل وأشهدهم على إسلامه وإسلام من معه.

قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (سورة آل عمران، آية ٦٤.).

يقول الشعراوي – رحمه الله- {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ: اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }أي إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذي لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم، إنما يريد أربابا وشركاء، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذي له مطلق القدرة، وهو مصدر الأمر في الحركة وهو الواحد الأحد، فلا تتضارب الحركات في الكون.

إن حركاتنا كلها وهي الخاضعة لمنهج الله بـ " افعل " و " لا تفعل " فلو أن هناك إلها قال: " افعل " وإلها آخر قال: " لا تفعل ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآله أغيار لها أهواء. والحق سبحانه يحسم هذا بقوله: { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ }[المؤمنون: ٧١].وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم { قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَيا كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات، فلا عبادة إلا لله، ونحن لا نأخذ " افعل " و " لا تفعل " إلا من الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم، فإن رفضوا وتولوا، فليقل المؤمنون: { اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } أي أنه لا يوجد إلا إله واحد، ولا شركاء له، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذي لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به.(١)

١ – تفسير الشعراوي – (/ ٤٥٥)

الباب الثاني

مكانة المرأة في الشرائع السماوية

اعلم علمني الله وإياك: أن المرأة لها دور بارز في حياة الأنبياء والمرسلين ولم لا وهي نصف المجتمع وهي مرية الأجيال وحاضنة الأبطال، فلم تكن المرأة في رسالة من الرسالات التي أرسلها رب الأرض والسماوات مهمشة وغير مذكورة أو غير مناطة بتكليف من التكاليف وتعالى لنرى هذه الحقيقة في اختصار شديد في ذلك الباب ثم نشرح في الباب الذي بعده بعض المواقف الحاسمة في تاريخ تلك المرأة المسلمة

الفصل الأول المرأة في حياة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)

أخي المسلم أختي المسلمة : لقد كان للمرأة دور بارز وخطير في مسيرة الدعوة الإلهية وحركة الأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام)، فقد ساهمت المرأة في الكفاح الفكري والسياسي، وتحملت التعذيب والقتل والهجرة وصنوف المعاناة كلها والإرهاب الفكري والسياسي والجبروت، وأعلنت رأيها بحرية، وانضمت إلى الدعوة الإلهية رغم ما أصابها من خسارة السلطة والجاه والمال، ولحوق المطاردة والقتل والتشريد والإرهاب بها، فها هي مريم أم المسيح التي عظمها القرآن كما عظمها نبي الإسلام محمد (ﷺ)، فقد أثنى القرآن في آيات عديدة على هذه المرأة النموذج وهو يقدمها مثلا أعلى للرجال، كما يقدمها مثلا أعلى للنساء ليقتدى بسلوكها واستقامة فكرها وشخصيتها .

والذي يدرس تأريخ المرأة في الدعوة الإلهية، يجدها جهة للخطاب كما هو الرجل، من غير أن يفرق الخطاب الإلهي بينهما بسبب الذكورة والأنوثة.

وبدراسة عينات تأريخية من حياة النساء في مسار الدعوة الالهية، نستطيع أن نفهم الموقع الرائد والفعال الذي شغلته المرأة في حياة الأنبياء ودعواتهم، فتتجلى قيمة المرأة في المجتمع الإسلامي، ومشاركتها الفكرية والسياسية، وحقوقها الإنسانية والقانونية، نقرأ هذه المشاركة المتقدمة والواسعة عندما نقرأ قصة كفاح أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ضد قومه في بابل، في أرض العراق، ومصارعته النمرود، ذلك الصراع الذي انتهى بنجاة

إبراهيم (عليه السلام) من النار بمعجزة الهية تفوق تصورات العقل المادي، مما دعاه إلى الهجرة إلى بلاد الشام، فكانت سارة زوجته والمؤمنة بدعوته رفيقة جهاده، وصاحبته في هجرته إلى الشام، ثم إلى مصر، ليعودا مرة أخرى إلى الشام فيستقرا هناك؛ وليبدأ فصل من أعظم فصول تاريخ الإنسان على يد النبي إبراهيم (عليه السلام) تسانده زوجه سارة، وتقف إلى جنبه في جهاده ومعاناته وهجرته .

ويتحدث القرآن عن قصة الهجرة والحياة الأسرية هذه، كما يتحدث عن دور هاجر الزوجة الثانية لإبراهيم (عليه السلام) ومشاركتها في كتابة الفصل المضيء من تاريخ الإنسان في أرض الحجاز، في مكة المكرمة، حيث جاء بها من مصر .

لقد كانت قصة هذه المرأة من أشهر قصص التاريخ، وأكثرها غرابة، وأعظمها كفاحا وصبرا، فتألقت في سماء التأريخ من خلال احتضان ابنها النبي إسماعيل، في واد غير ذي زرع عند البيت المحرم، ليكون أبا لأعظم نبي في تأريخ البشرية، وهو محمد (ﷺ)، ويسجل القرآن تلك الحوادث بقوله : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

ويتحدث القرآن عن أم موسى (عليه السلام) وتلقيها للتلقين والتوجيه الإلهي الذي ألقى في نفسها، لتحفظ موسى (عليه السلام) من ظلم فرعون، وتكريمها العظيم بإعادته (عليه السلام) لها؛ لتكون أم النبي المنقذ، الذي حطم بمساعدة الهية أعظم طاغوت في تأريخ البشرية. يعرضها القرآن محورا أساسيا في صنع هذه الحوادث، ثم يتحدث عن زوجة فرعون (آسيا) وعن مريم أم المسيح عيسى (عليها السلام) ويعرضهما نموذجا ومثلا أعلى لأجيال البشرية، بقوله : {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) [التحريم : ١١ ، ١٢]}

لنقرأ هاتين الآيتين، ولنتأمل بمحتواهما الفكري الرائع الذي تحدث عن شخصية المرأة بإجلال واحترام، ليس بوسع أية حضارة مادية أن تمنحهما لها.

فقد قدم القرآن المرأة الصالحة مثلا عمليا للرجال والنساء، وطالبهم بالاقتداء بها .

جاء ذلك في قوله: (وضرب الله مثلا للذين آمنوا) ان عبارتي (ضرب الله مثلا) و(للذين آمنوا) كما هي واضحة، تبرزان لنا مفهوما حضاريا إيمانيا فريدا في عالم الفكر والحضارة الخاص بالمرأة الصالحة؛ فقد جعلها مثلا أعلى، وقدوة للرجال، كما هي قدوة النساء في العقيدة والموقف الاجتماعي والسياسي، فعرض نموذجين لسمو شخصية المرأة المؤمنة ومكانتها في الفكر الإسلامي. عرض امرأة فرعون، ملكة مصر، وسيدة التاج والبلاط والسلطة والسياسة والدولة الكبرى في ذلك العالم، التي تحدت السلطة، ومريم ابنة عمران التي تحدت كبرياء بني إسرائيل وتآمرهم، وحربهم الدعائية ضدها.

وكما كان للمرأة دورها في حياة إبراهيم وموسى وعيسى، نجد دورها واضحا وعظيما في حياة النبي محمد (ﷺ) ودعوته؛ فلقد جسدت هذا الدور العقيدي الفريد خديجة بنت خويلد القرشية (رضي الله عنها) التي كانت سيدة مجتمع مرموقة في مكة المكرمة، وثرية صاحبة مال وثروة وتجارة ورأي، لقد كانت أول من حدثها النبي (ﷺ) ـ بعد علي (عليه السلام) ـ بدعوته، فآمنت به وصدقته، وبذلت أموالها الطائلة لنصرة دعوته، ولاقت معه صنوف الأذى والاضطهاد على امتداد عشر سنوات من حياتها المقدسة، ودخلت معه الشعب، وتحملت معاناة الحصار الذي دام ثلاث سنوات، فكانت من أعظم الشخصيات في تاريخ الإسلام؛ لذا سمى رسول الله (ﷺ) العام الذي توفيت فيه عام الحزن .

ويعظم المسلمون هذه الشخصية تعظيما فريدا، ويقتدون بسلوكها ومواقفها الكريمة تلك . وفي حوار له مع زوجه عائشة حول شخصية خديجة رد عليها قائلا: «ما أبدلني الله خيرا

منها، كانت أم العيال، وربة البيت، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد، وحرمت من غيرها»(١)

وكما تحدث عن موقعها في نفسه، وحركة دعوته، ومسار رسالته، تحدث عن ابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني».) (٢)

من هذه النصوص نفهم مقام المرأة وشخصيتها في حياة النبي (ﷺ) ودعوته، والموقف النبوي هذا يمثل في المفهوم الإسلامي أرقى تقييم لمكانة المرأة الإنسانية، واحترام شخصيتها.

ولعلنا نكتشف من خلال البيان القرآني والتاريخي الموجز هذا أن المرأة في مفهوم القرآن والرسالة الإلهية هي حاضنة عظماء الأنبياء (عليهم السلام)، والمكلفة بحفظهم، والعناية بهم، والوقوف إلى جنبهم، تجسد ذلك جليا في حياة إبراهيم وموسى وإسماعيل وعيسى ومحمد (ﷺ)، أعاظم الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) ، وقادة الفكر والإصلاح والحضارة الإلهية على هذه الأرض .

ولقد سجل القرآن دور المرأة في حياة النبي (ﷺ) ودعوته ومشاركتها له في الهجرة والجهاد مقرونا بدور الرجل عند حديثه عن الهجرة والبيعة والدعوة والولاء، واستحقاق الأجر والمقام الكريم وعلاقة الرجل بالمرأة... الخ في مئات الآيات من بيانه وحديثه في هذه الموضوعات، مثل قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] ، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

---

١ – إتحاف الخيرة المهرة – (ح: ٦٧٧–) والحديث أصله عند البخاري (ح: ٣٨٢٠)و مسلم(ح: ٢٤٣٧)

٢ – أخرجه أحمد (ح: ١٦١٦٨)و البخاري(ح: ٣٧١٤)و مسلم (ح: ٢٤٤٩).

في هذه الآيات يرفع القرآن المرأة إلى أكرم مقام يمكن أن يحتله إنسان في الدنيا والآخرة، وهو يتعامل معها كما يتعامل مع صنوها الرجل على حد سواء، فهي والرجل في مفهوم الرسالة الإسلامية (أولياء) يوالي بعضهم بعضا، ولاء عقائديا، يقومون بإصلاح المجتمع، ومحاربة الفساد والجريمة والانحطاط، ويحملون رسالة الخير والسلام والأعمار في الأرض.

وفي الآية الثانية يتوجه النبي نوح (عليه الصلاة والسلام) إلى ربه بالدعاء للمؤمنات، كما يتوجه إليه سبحانه بالدعاء للمؤمنين، ومن محتوى هذه المناجاة تشع مبادئ التكريم والحب والاحترام للمرأة، ذلك لأن الدعاء لشخص يحمل هذه المعاني كلها.

ويتألق مقام المرأة مضيئا، ويشرق مقدسا على صفحات القرآن من خلال تصويره للمؤمنين والمؤمنات في هالة من نور، يوم لقاء الرب وساعة استحقاق الجزاء الذي يقيم فيه الإنسان من خلال عمله وسعيه في الحياة.

وهكذا نفهم أن القرآن قد منح المرأة الصالحة الحب والولاء، ودعا لها بالمغفرة والعفو والرحمة، وأحاطها بهالة من نور، وهي المرأة التي مثالها آسية زوجة فرعون، ومريم أم المسيح، وخديجة زوج الرسول محمد (ﷺ) وفاطمة بنت محمد (ﷺ) .

وندرك عظمة المرأة في الرسالة الإسلامية وفي حياة النبي (ﷺ) بالشكل الذي يتسامى بشخصيتها، ويمجدها باحترام وتقدير، حين نعرف أن أول من استشهد في الإسلام هي (سمية) أم الصحابي الجليل عمار بن ياسر، قتلها أبو جهل أصد قادة الشرك والرجعية .

فقد دفعت حياتها ثمنا لمبادئ الرسالة الإسلامية حين بدأت المواجهة بين الإرهاب والطاغوت، وبين محمد (ﷺ) والمستضعفين والعبيد الذين وجدوا في رسالة الإسلام المنقذ لحقوق الإنسان، والمحرر من الجهل واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان . كما سارع العديد من النساء المستضعفات لتصديق النبي (ﷺ) في بدء دعوته، وتحملن الأذى والتعذيب والاضطهاد، فهاجرن إلى الحبشة والى المدينة المنورة، ونصرن الله ورسوله (ﷺ) بكل ما أوتين من قوة .

إن المرأة المسلمة لما تكتشف مكانتها الحقيقية في الإسلام بعد، وان الرجل المسلم لما يعرف مكانة المرأة في الإسلام على حقيقتها أيضا.

لذا اختل ميزان التعامل والعلاقة، الذي لا يستقر إلا بالعودة إلى مبادئ القرآن ليعرف كل منهم حقه ومكانته ومسؤوليته تجاه الآخر وعلاقته به.

وإن المرأة اللاهثة وراء سراب الحضارة المادية الذي يخفي وراءه مستنقع السقوط والاضطهاد للمرأة، لو عرفت ما لها في الإسلام من قيمة وحق وتقدير لما نادت إلا بالإسلام، ولعرفت أن المنقذ لكرامة المرأة وحقها هو مبادئ القرآن.([1])

[1] – مقال من موسوعة البحوث والمقالات العلمية –

****

الفصل الثاني

مكانة المرأة في الإسلام

أخي القارئ الكريم: لقد أَوْلَى الإسلامُ المرأة اهتماماً كبيراً، يتضحُ لنا جلياً من خلال كثير من آيات القرآن الكريم التي أرست قواعدَ الرحمة والمساواة في التعامل مع المرأة بعد الظلم الذي كان يقع عليها قبل الإسلام.

والمتأمل لهذه الآيات يجدُها صانت ما للمرأة من حقوقٍ ابتداءً من الحفاظ على حقها في الحياة، محارباً عادةَ وأدِ البنات التي كانت سائدة في الجاهلية، ثم حثت على رعايتها وهي طفلة إلى امرأة ثم في مرحلة الشيخوخة، وكذلك المتأمل للسيرة النبوية الشريفة يجدُها جاءت مبينةً ومفصلة لتلك الحقوق الممنوحة للمرأة في ظل الإسلام، وكفانا قولُ عمر بن الخطاب عن مكانة المرأة قبل الإسلام حتى يتضح لنا كيف كانت مهضومةَ الحق ذليلة القدر،

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لبثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي (ﷺ)فجعلت أهابه فنزل يوما منزلا فدخل الأراك فلما خرج سألته فقال عائشة وحفصة ثم قال كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئا فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا (١)

وهكذا جاء الإسلام بما يحفظ للمرأة قدرَها بعد أن كانت لا قدر لها، ومن العزة للمرأة في الإسلام أنه لم يأتِ أي من الشرائع الأخرى ولا حتى القوانين المتعددة سواء شرقية أو غربية، لم يأت أي منهم بما جاء به الإسلام...!، وهذا مما يُثير العجب، ويحثنا على التوقف لتأمل حقيقة تلك الدعوات التي ترتقي لمسامعنا من وقت إلى آخر.

---

١ -أخرجه البخاري ح ٥٨٤٣

تلك الدعوات التي تنادي بحقوق المرأة، حاملةً فوق عاتقها همومَ المرأة، ومحاولةً رفعَ تلك الهموم عن كاهلها، مطالبةً لها بأقصى حقوق المساواة مع الرجل، والحق في المشاركة الكاملة في شتى مناحي الحياة، ومظهرةً مدى الظلم الواقع على المرأة وبشاعة الحال التي هي عليه.

تكريم الإسلام للمرأة:

تسوية الله تعالى بين الرجل و المرأة في الثواب و العقاب لقد ساوى الله عز وجل بين الرجل والمرأة في الجزاء في الآخرة قال عز وجل: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل:٩٧]

يقول الزحيلي – رحمه الله- لا تفرقة في أصول التشريع الإسلامي وإعطاء فرص العمل بين الرجال والنساء، فللمرأة أن تنافس الرجل وتسبقه في ميدان القربات إلى الله تعالى، والمبادرة إلى العمل الصالح والقول الفاضل، وكم شهد التاريخ الإسلامي مواقف، مشاهد مشرفة وسبّاقة للمرأة، تميزت بالوعي والحكمة، وإدراك آفاق المستقبل، واستطاعت بها المرأة أن تثبت جدارتها، وتفوّقها أحيانا على الرجال في النواحي الاجتماعية، فاستحقت بهذا بطاقة سامية من الحب والتقدير، والوفاء والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى مبينا مبدأ تساوي النّساء والرجال، في مجالات العمل البنّاء الطيب)([1])

وساوى الله عز وجل في التوجيه في سورة الحجرات لما قال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الحجرات:١١]

وكرَّم الله المرأة و حرم على الآباء أن يقتلوهن فقد كان أهل الجاهلية يئودون البنات فكان الواحد منه إذا بشر بالأنثى يسود وجهه و تضيق نفسه يقول الله تعالى {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ

[1] – التفسير الوسيط للزحيلي – (٢ / ١٣٠٠)

بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) [النحل : ٥٨ ، ٥٩]}

يقول سيد قطب –رحمه الله– ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية : { وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم } مسودا من الهم والحزن والضيق ، وهو كظيم ، يكظم غيظه وغمه ، كأنها بلية ، والأنثى هبة الله له كالذكر ، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكرا ، وما يملك أن ينفخ فيه حياة ، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنسانا سويا .

وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر بإذن الله ليكفي لاستقبال المولود أيا كان جنسه بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال، لمعجزة الله التي تتكرر، فلا يبلي جدتها التكرار! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور. إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة الباهرة؟ .

وحكمة الله ، وقاعدة الحياة ، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى . فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر . فكيف يغتم من يبشر بالأنثى، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائما؟ .

إنه انحراف العقيدة ينشئ آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده . . { ألا ساء ما يحكمون } وما أسوأه من حكم وتقدير .(١)

وأخرج عبد الرزاق بسنده الصحيح عن معمر عن قتادة قال: أخبرنا في قوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) قال: كانوا يقتلون البنات خشية الفاقة.

إكرام المرأة كأم أكرمها أمـا: الإسلام كرَّمها أمـا، فقال عز وجل: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [البقرة:٨٣] وقال عز وجل: {فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا} [الإسراء:٢٣]

---

١ – في ظلال القرآن – (٤ / ٤٧١)

ويروي البخاري و مسلم في عن هريرة، جاء رجل إلى النبي - ﷺ- فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال:« أمك » ، قال: ثم من؟ قال: « ثم أمك »،قال: ثم من؟ قال:« ثم أمك »، قال: ثم من؟ قال: « ثم أبوك »(١) .

يقول ابن بطال – رحمه الله – في هذا الحديث دليل أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاث أمثال محبة الأب، لأن عليه السلام كرر الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في المرة الرابعة فقط، وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان، وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم، وتشقى بها دون الأب فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب.

وقد جرى لبى السود الدؤلى مع زوجته قصة أثار فيها هذا المعنى، ذكر أبو حاتم عن أبى عبيدة أن أبا الأسود جرى بينه وبين امرأته كلام فأراد أخذ ولده منها، فسار إلى زياد وهو وإلى البصيرة، فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا بطني وعاؤه وحجري فناؤه وثدي سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه أذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى استوفى فصاله وكملت خصالة وأملت نفعه وروجوت رفعه أراد أن يأخذه منى كرها. فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه.... وأنا أقوم عليه في أدبه، وحملته ثقلا، ووضعه شهوة، ووضعته كرها. فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك، ودعني من سجعك.

وروى عن مالك أن رجلا قال له: إن أبى في بلد السودان، وقد كتب إلى أن أقدم إليه، وأمي تمنعني من ذلك، فقال له: أطع أباك ولا تعص أمك.(٢)

أكرمها الإسلام بنتًا: فقد كانت توأد في الجاهلية، والله عز وجل حرم هذه العادة وأبطلها، وجعل تربية اثنتين من البنات سببًا لدخول الجنة، عن ثابت عن أنس أو غيره قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من عال ابنتين أو ثلاث بنات أو أختين أو

---

١ – أخرجه الحميدى (ح: ١١١٨)، وأحمد (ح: ٨٣٢٦)، والبخاري (ح: ٥٩٧١)، ومسلم (ح: ٢٥٤٨)، وابن ماجة (ح:٢٧٠٦)

٢ – شرح ابن بطال –(١٧ / ٢٢٧).

ثلاث أخوات حتى يمتن أو يموت عنهن كنت أنا وهو كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى)[1]

يقول النووي – رحمه الله–ومعنى (عالهما) قام عليهما بالمؤنة والتربية ونحوهما، مأخوذ من العول وهو القرب، ومنه " ابدأ بمن تعول " ومعناه جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين [2]

عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته قالت

جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ فحدثته فقال من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار[3]

والمرأة أكرمها الإسلام زوجةً، «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي". [4]

(خيركم) أي من خيركم (خيركم لأهله) أي لعياله وأقاربه قال ابن الأثير: هو إشارة إلى صلة الرحم والحث عليها بل قال القفال: يقال خير الأشياء كذا ولا يراد به أنه خير من جميع الوجوه في جميع الأحوال والأشخاص بل في حال دون حال أو نحوه

(وأنا خيركم لأهلي) فأنا خيركم مطلقا وكان أحسن الناس عشرة لهم حتى أنه كان يرسل بنات الأنصار لعائشة يلعبن معها وكان إذا وهبت شيئا لا محذور فيه تابعها عليه وإذا شربت شرب من موضع فمها ويقبلها وهو صائم وأراها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهي متكئة على منكبه وسابقها في السفر مرتين فسبقها وسبقته ثم قال هذه بتلك وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة وفي الصحيح أن نساءه كن يراجعنه الحديث ث وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل ودفعته إحداهن في صدره فزجرتها أمها فقال لها : دعيها

---

[1] –أخرجه أحمد (ح: ١٢٥٢٠) ومسلم (ح: ٢٦٣١).

[2] – شرح النووي على مسلم – (٨ / ٤٧٢).

[3] – أخرجه أحمد (ح: ٢٤١٠١) و البخاري (ح: ١٤١٨)و مسلم (ح: ٢٦٢٩).

[4] – «أخرجه أبو داود (٤٨٩٩)، وهو في "صحيح ابن حبان" (٣٠١٨) و (٤١٧٧)،»

فإنهن يصنعن أكثر من ذلك [1] كذا في الإحياء وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما كما في خبر الطبراني وقالت له عائشة مرة في كلام غضبت عنده وأنت الذي تزعم أنك نبي الله ؟ فتبسم كما في خبر أبي يعلى وأبي الشيخ عنها [2])[3] وامتدح الله رسله فقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد:٣٨] وجعلها نعمة وآية من آياته قال: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم:٢١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء [4]

يقول المناوي – رحمه الله–أي اطلبوا الوصية والنصيحة لهم من أنفسكم أو اطلبوا الوصية من غيركم بهن (أو اقبلوا) وصيتي فيهن واعملوا بها وأرفقوا بهنَّ وأحسنوا عشرتهن، والأول للطيبي والأخير للقاضي، قال ابن حجر: وهو أوجه الأوجه، والخير الموصى به لها أن يداريها ويلاطفها ويوفيها حقوقها المشار إليها بنحو خبر الحاكم وغيره: حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهجرها [5]

وأكرمها أيضًا مؤمنة: فكان أول قلبٍ مؤمن تألق بنور الإيمان هو قلب خديجة رضي الله عنها، فأول من آمن من النساء خديجة رضي الله عنها، وكانت أول شهيدة في الإسلام امرأة وهي سمية أم عمار بن ياسر وزوجة ياسر رضي الله عنهم.

قتلها أبو جهل، وكانت الأسرة كلها مؤمنة: سمية وولدها عمار وزوجها ياسر.

---

[1] –قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ح ١٤٦١ لم أقف له على أصل.

[2] – قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ح: ١٤٦٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة ، وفيه ابن اسحق وقد عنعنه .

[3] – فيض القدير –(٣ / ٦٦١)

[4] – أخرجه البخاري ح ٣٣٣١ ومسلم (ح: ١٤٦٨).

[5] – فيض القدير – (١ / ٦٤٢).

الأسرة كلها مؤمنة، وهم كانوا عبيداً وموالي، وكان أبو جهل يعذبهم تعذيباً لا يعلمه إلا الله، ويمر النبي ـ ﷺ ـ عليهم ويقول: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[1] ويمر الخبيث عليها فيطعنها بالرمح حتى ماتت ويسيل دمها على الأرض فكانت أول قطرة دم تقع على الأرض في سبيل الله، أي شرف أعظم للمرأة من هذا الشرف أيها الإخوة

يقول الشاعر:

فلو كان النساء كمن ذكرن لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ وما التذكير فخر للهلال

وقال أخر:

يا فتاة الدين يا بنت الحجاب أنت في أوطان أسما والرباب

أنت يا من يحفظ الله لها عرضها بين الأفاعي والذئاب

استري وجهك عن حر اللظى وارتدي في زمن الفسق الثياب

وارفضي كل داعٍ خائن ليس يخشى الله في يوم الحساب

وانعمي في ظل دين خالد رددي يا أختنا أم الكتاب

جاهلية تعيشها المرأة في هذا القرن

أخي المسلم هذا كان تكريم المرأة في الإسلام و كيف رفع قدرها و حافظ على شرفها و أوصى بها خيرا فهي درتنا الغالية ، و تعال لترى البون شاسعا و النزول بالمرأة من أعلى قمم الحياء إلى أحط و أدنى منازل الرزيلة في عصر علت فيه النعرات و سادت فيه الجاهلات و انقلبت فيه الموازين فذبحت العفة و الحياء و أقيم عليها أسواق الرزيلة حتى أصبحت العفيفات منبوذات و أضحى حال كثير من المجتمعات يتعامل مع العفيفات بمنطق قوم لوط يقول الله تعالى مصورا لما كان عليه أهل الفسق و الفجور { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)"سورة النمل {"

[1] – «صحيح السيرة ص١٥٤، وفقه السيرة ص١٠٣»

يقول الشيخ العلامة – علي القرني –حفظه الله–أخواتي المؤمنات؛ ونَعِمَت المرأة في ظل الإسلام قرونـًا، ولا زالت تنعم بذلك حتى جاءت جاهلية هذا القرن والذي قبله، فوأدت المرأة وأداً معنويـًا، أشد خطراً من وأد الجاهلية؛ فإن الموءودة في الجنة كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، أما موءودة هذا القرن فهي التي وأدت نفسها، وباعت عفَّتها، وأهدرت حياءها، فلا تجد الجنة، ولا تجد ريحها، كاسية عارية، مائلة مُمِيلة، لا تجد عرف الجنة، وإن ريح الجنة ليوجد من مسافة كذا وكذا.

أصغت بأذنها إلى الدعاة على أبواب جهنم، فقذفوها في جهنم، فشقيت وخسرت دنياها وأخراها، فهي تعض أصابع الندم هنا ويوم القيامة، نسأل الله عز وجل أن يتجاوز عنَّا، وعن العاصيات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

يا أَمَةَ الله! تجيء جاهلية هذا القرن في صور متعددة؛ في صورة المشفق عليك، الضاحك ظاهراً، وهو يريد قتلك باطنـًا.

إذا رأيت نِيُوبَ اللَّيثِ بارزةً فلا تظنِّي أنَّ اللَّيث يبتسمُ

جاءت هذه الجاهلية في صورة المشفق عن طريق مجلة، أو عن طريق صفحة جريدة، أو أغنية فاجرة، أو مسلسل، أو تمثيلية، أو جهاز استقبال، يريدون منكِ أن تكوني عاهرة، سافرة، فاجرة، يريدون أن تكوني بهيمة في مِسْلاخِ بشر، حاشاك يا بنة الإسلام! ويا حفيدة سمية و أسماء !

اسمعي لقائلهم سمع اعتبار يوم يقول، وهو أحد الكفار الذي يتربص بك وبأخواتك وبالمؤمنين الدوائر يقول: لا تستقيم حالة الشرق الإسلامي لنا حتى يُرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويُغطَّى به القرآن، وحتى تؤتى الفواحش والمنكرات.

وخاب وخَسِر.

ويقول الآخر:

مزِّقيه مزِّقيه بلا ريث فقد كان حارسـًا كذابـًا

يخاطب بذلك الحجاب.

ويقول الآخر: إلى متى تحملين هذه الخيمة؟

ويقول آخر: ينبغي أن تبحثي عن قائد يقودك إلى المدرسة والكليَّة.

ويقول آخر: لابد أن نجعل المرأة رسولاً لمبادئنا، ونخلِّصها من قيود الدين.

خاب وخسر.

ويقول الآخر: إن الحجاب خاص بزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأين تنطلي مثل هذه الأمور؟ وأين هذا من القرآن؟

إنه لم يعرف القرآن، ولو عرف القرآن لقرأ قول الله في القرآن: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ } [الأحزاب:٥٩].

ويقول أحدهم -وهو قاسم أمين ، من الذين تأثروا بالغرب-: إن الحجاب ضرر على المرأة؛ فهو معرقل لحياتها اليومية.

يضرب بالآيات عرض الحائط، ويحكِّم عقله، وينظر إلى الغرب الهائم؛ فعامله الله عز وجل بما يستحق.

وآخر يقول: كأس وغانية تفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع؛ فأغرقوهم في الشهوات والملذَّات.

كيف جاءت هذه الأمور؟

إنها لم تأتنا إلا من أعداء الإسلام، على طريقة من؟! على طريقة الذين رُبُّوا على أفكار أولئك.

يخرج سعد زغلول منفيـًا مُرتبـًا له من مصر إلى بريطانيا أيام الاحتلال، ليعود من هناك وهو بطل وزعيم وطني قومي -وقد رُتِّب له الأمر- فإذا بسرادق النساء في استقباله، وإذا بزوجته صفية زغلول -انتسبت إليه، ولا تنسب إلى أبيها على طريقة الغربيات الكافرات- تأتي معه على ظهر الباخرة، وتصل إلى هناك، ولمَّا وصلت إلى هناك، وجاءوا لاستقباله -إذ الأمر مرتب- ينزل وينطلق مباشرة إلى سرادق النساء، إلى سرادق الحريم المحجبات فتقوم هدى شعراوي -عاملها الله بما تستحق- تقوم إليه محجبة، فينطلق إليها ليمد يده -

وقد مدَّ اليهودي قبل ذلك يده فدفع ثمن ذلك نفسه- يمد يده إلى حجابها ويرفع ذلك، وهي تضحك وتصفِّق، وهو يضحك ويصفِّق، ثم يصفقن النساء لِيُعْلِنَّ الرَّذيلة من ذلك اليوم، وليبدأنَ في تقليد الكافرات، هذا هو عمله، فماذا فعلت التي قامت بالدور بعد ذلك هدى و صفية ؟

انطلقا في مظاهرة ظاهرها وهدفها مناوأة الاحتلال الإنجليزي، وانطلقا إلى ميدان الإسماعيلية ، ليقفا في ذلك الميدان محجبات سود كالغربان، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لحاجة في نفسهن، رمين الحجاب ودُسْنَهُ بالأقدام، ثم أحرقْنَه في تلك الساحات، ليُعلنَّ التمرد على القيم والأخلاق الإسلامية، فماذا كان بعد ذلك؟!

حصل في مصر ما حصل ، حصل فيها أن بدأ التغريب هناك على يد هؤلاء، وبين أيادي المؤمنات، وعلى مرأى المسلمين والمسلمات، ماذا حصل؟!

انطلقوا مباشرة فإذا بالرجل ينطلق إلى جنب المرأة مباشرة، وإذا به يعمل معها، وإذا به يخالطها في المدرسة تلميذاً ومعلِّمـًا فيما بعد، وإذا بالأمور تنفرط ليس هناك فحسب، بل تدب العدوى إلى بلاد عربية، حتى يكاد لا يَسْلَم من ذلك بلد إلا من رحم الله، وقليل ما هم.

وإذا بنا نئن ونشكو من اختلاط، ورذيلة.

ومن طهر وعفاف يوأد، وإذا الفساد ينتشر، وإذا الداعية يصيح هنا وهناك، فإذا الآذان صُمَّت، واتجهت تقلِّد الغرب حتى في لباسها، قامت تقلدهم في الموضة والأزياء.

جاءت هذه الصرعات فاستنفذت البيوت واستنفذت ميزانيات الأسر، حتى إنك لترى التي بلغت الخامسة عشرة لا زال لباسها من فوق ركبتها، وتقول: لازلت صغيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وما -والله- ذكرت من هؤلاء، سواء هدى أو قاسم أو زغلول أو غيرهم من الدعاة هنا وهناك إلا نماذج للدعاة على أبواب جهنم الذين ألقوا بحجابهم وداسوه بالأقدام، إنما يتَحَدَّوْن مشاعر المسلمين، والذين يكتبون لتحرير المرأة، والذين وقفوا بذلك الميدان

وسموه: ميدان التحرير إنما هو التحرر من الفضيلة والخُلُق والطُّهر ولاشك، يكتبون والله يكتب ما يُبيِّتون هم وأذنابهم إلى يوم يبعثون: { لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف:١٧٩] { فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج:٤٦] .

أختي المؤمنة: هل لهؤلاء ومن على أدرابهم من الكُتَّاب والراقصات والعاهرات أهلٌ لأن يَكُنَّ قدوة للصالحات المؤمنات القانتات الصابرات الخاشعات؟

نعوذ بالله من الانتكاس، ونسأل الله الثبات حتى الممات.

أنتِ الطهر، وأنتِ الفضيلة، وأنت السُّمُو، والطهر لا يقتدي بالرِّجس والمهين، والفضيلة لا تقتدي بالرذيلة، والسمو لا يقتدي بالسُّفْل.

خابوا وخسروا وتعسوا وانتكسوا.

أغيظيهم وقولي بلسان حالك ومقالك:

دعهم يعضوا على صُمِّ الحَصَى كمداً من مات من غيظه منهم له كفن (١)

سمعنا أختنا شيئا عجاب

قالوا كلاما لا يسر عن الحجاب

قالوا خياما علقت بين الرقاب

قالوا ظلاما حالكا بين الثياب

قالوا التأخر والتخلف في الخمار

قالوا الرشاقة والتطور في غياب

نادوا بتحرير الفتاة و ألفوا فيه الكتاب

رسموا طريقا للتبرج لا يضيعه الشباب

يا أختنا هذا نداء الحاقدين من الذئاب

---

١ – من محاضرة مكانة المرأة في الإسلام

يا اختنا صبرا تذوب ببحره كل الصعاب

يا أختنا أنت العفيفة والمصونة بالحجاب

يا اختنا هذا نباح لا يؤثر في السحاب

يا اختنا صبرا تذوب ببحره كل الصعاب

فالجنة المأوى ويا حسن المئاب

والنار مثوى الظالمين لهم عقاب

الله يكشف ظلمهم يوم الحساب

الباب الثالث: صور حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة

{من الأمم السالفة}

سارة عليها السلام

ترجمتها: سارة بنت هازان بن ناحور ويقال سفوهن بن ناحور زوج سيدنا إبراهيم الجليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام. روي أنها كانت معه بعين الجر بدمشق.

ولد لإبراهيم إسماعيل، وهو أكبر ولده، وأمه هاجر قبطيه، وإسحاق وكان ضرير البصر، وأمه سارة بن شوئل بن ناحور بن شاروغ بن أرغوا بن فالج بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح، وماتت سارة فتزوج إبراهيم امرأة من الكنعانيين يقال لها قنطورا.)[1]

أخي المسلم أختي المسلمة: هيا لنعيش مع السيدة المهاجرة المؤمنة الصابرة المبشر من فوق سبع سماوات من صبرت وصابرة على الأذى في سبيل الله إنها سارة زوجة خليل الرحمن لقد سطر القران الكريم والسنة النبوية لهذه المرأة مواقف حاسمة سجلت و دونت في تاريخ المرأة المسلمة لتكون نبراسا و قدوة تقتدي بها المسلمات المؤمنات

قال ابن كثير: أجمل النساء في العالمين سارة ومريم، وقيل: عائشة بنت الصديق رضي الله عنها

موقف العفة والابتلاء: في حياة أبي الأنبياء وزوجه سارة عليها السلام.

«عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عز وجل، قَوْلُهُ: {إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٩] وَقَوْلُهُ: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [الأنبياء: ٦٣] وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبابرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي. فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللَّهَ، فَأُطْلِقَ. ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ،

[1] – مختصر تاريخ دمشق – (٣ / ٤٣١)

فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ، فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ -أَوِ: الْفَاجِرِ-فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ، يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ.» (١)

لما هاجر خليل الرحمن عليه أفضل الصلاة و السلام – من أرض حران قيل انه تزوج بسارة عليها السلام و قرر إبراهيم عليه السلام أن يهاجر إلى الديار المصرية و اخذ مع زوجه سارة و كانت كما ذكر ذلك ابن كثير من أجمل نساء العالمين و كان عليها ملك كافر فاجر لا يسمع بامرأة جميلة إلا أخذها عنوة فان كانت متوجة قتل زوجها أولا ... ، و ما إن وطأت قدم إبراهيم سارة عليهما أفضل الصلاة و السلام ارض مصر حتى رأى الناس من سارة جمالا يأخذ بالقلوب و الأبصار و كان ذلك الطاغية ق د بث جنوده و جواسيسه في أنحاء مملكته لينقلوا إليه الأخبار أولا بالا و ما إن رأى هؤلاء سارة حتى طاروا بالأخبار ليحملوها إلى ذلك الفاجر و عندها استدعى إبراهيم عليه الصلاة و السلام و دار بينهم ذلك الحوار :

من هذه المرأة التي معك؟

قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أختي وعندها أطلق الطاغية سبيله وجاء إبراهيم إلى سارة و قال لها إن الطاغية سأله عنها فأخبرته انك أختي فلا تكذبيني عنده فان سالك عني فقولي بان أختي يعني في الإسلام ، و ذلك من باب القادة الفقهية القائلة "درء أعلى المفسدتين "فقد واجهت إبراهيم عليه السلام مفسدتان المفسدة الأولى من أن يقول للملك بأنها زوجته و سيترتب على ذلك قتله و هذه مفسدة كبرى و بين أن يكذب و يقول أنها أخته و هو صادق في قوله لان ذلك من باب التورية و تدخل سارة على الطاغية و هو يعلم أن الله تعالى لن يتخلى عمن نصر دينه و عبده ، ودخولها مفسدة صغرى فكان من الفقه أن يأتي احد المفسدتين فقدمت الصغرى على الكبر .

---

١ – أخرجه البخاري (ح: ٣٣٥٩).

سارة عليها السلام بين يدي الطاغية الجبار:

أخي المسلم.أختي المسلمة: لما أُخِذَت سارة من إبراهيم قام إبراهيم يصلي، ولما أدخلت سارة على الملك لم يتمالك أن بسط يده إليها من شدة جمالها، لأنه لم يستطع أن يقاوم نفسه فقبِضَت يده قبضة شديدة، وفي رواية: (فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي -أي: تدعو- فغُطَّ) وفي رواية: (رُكِض برجله) يعني: اختنق، كأنه مصروع، والغط: صوت النائم، من شدة النفخ، غطيط.

فمجموع الروايات يؤخذ منها: أنه عوقب أولاً بقبض يده؛ أي: شُلَّت يده ولم يستطيع أن يحركها، وثانيـًا: أنه صُرِع.

جاء في رواية الأعرج: أن سارة توضأت ودعت الله عز وجل قائلةً: (اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط على الكافر) هي تعلم أنها آمنت به لكن تواضعـًا قالت هذا الدعاء.

ولما شلت يد هذا الملك وصرع قال: (ادعي الله لي ولا أضرك) وفي رواية مسلم: (ادعي الله أن يطلق ففعلتْ) قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: قالت: (اللهم إن يمت يقال: هي التي قتلته) إن يمت الآن من هذه الصرعة يقول قومه: هي التي قتلته، فربما قتلوها، فدعت الله له فأرسلها، لما تحرر الرجل ورجع إلى حاله الأولى هل توقف؟ أبداً.

تناولها الثانية، ثم قام إليها فقامت تتوضأ وتصلي ودعت الله عز وجل فأخذ مثلها أو أشد، أشد من القبضة الأولى.

وفي المرة الثالثة دعا الرجل الذي جاء له بـ سارة وقال له: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان، ما أرسلتم إلي إلا شيطانة أرجعوها، ولعله لما صُرع ظن أن الشيطان هو الذي تدخل، وكانوا قبل الإسلام في الجاهلية يعظمون أمر الجن جداً، ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعل الجن؛ لما رأى الملك نفسه مصروعـًا مشلولاً قال: هذا من فعل الجن، هذا شيطان، هذا ليس بإنسان.

أطلق سراح سارة وقال: أعيدوها إلى إبراهيم، وزيادة على ذلك: أعطاها خادمة وهي هاجر وهبها لها لتخدمها، لأنه سمع أنها كانت تعجن العجين أو تخدم نفسها، قال: هذه لا يليق أن تخدم نفسها، فأعطاها خادمة وهي: هاجر.

فلما أطلق سراحها ومعها هاجر أتت سارة إلى إبراهيم وكان يصلي، فقال إبراهيم بعدما انصرف من صلاته: (مَهْيَمْ-أي: ما الخبر؟- فقالت سارة ملخصةً ما حصل: رد الله كيد الكافر وأخدم هاجر) رد الله كيد الكافر في نحره، أَشَعَرْتَ أن الله كبت الكافر وأخدم وليدةً؟ وهي الجارية.

أبو هريرة ماذا قال عن هاجر في آخر القصة؟ قال: [تلك أمكم يا بني ماء السماء]

يخاطب أبو هريرة العرب يقول لهم: [تلك أمكم] هذه هاجر التي كانت خادمة وأُعْطِيَت خادمةً وجاريةً لـ سارة ، ثم وهبتها لزوجها إبراهيم، قال: [فتلك أمكم يا بني ماء السماء]

لماذا يطلق على العرب (بني ماء السماء)؟ لكثرة ملازمتهم للفلوات والصحاري؛ لأن فيها مواقع القطر وهو الماء النازل من السماء، يغشون البراري لأجل رعي أغنامهم، ولذلك سُمُّوا ببني ماء السماء؛ لأن عيشهم على ماء السماء.

وقوله: [تلك أمكم يا بني ماء السماء] قيل: إن العرب كانوا من ولد إسماعيل، وهناك عرب قبلهم؛ لكن هؤلاء العرب

فوائد وعبر

وأخيرا كم في هذا الموقف الإيماني الذي يفيض بالإيمان والثبات والعفة ورسوخ القدم في دين الله تعالى من فواد وعبر يجب على كل مسلم ومسلمة أن يستلهمها حتى ينتفع بها في الدنيا والآخرة، و لقد ذكر الشيخ محمد المنجد – حفظه الله في سلسلة القصص – فوائد و عبر من هذه القصة نذكرها بفضل الله و منه:

مشروعية أخوة الإسلام:

أولاً: مشروعية أخوة الإسلام، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [حجرات:١٠] وأن رابطة الدين رابطة عظيمة، وأن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، والدليل على ذلك:

أن الأخوين إذا كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً جاز للمسلم أن يقتل أخاه في سبيل الله، إذا التقيا في صفين يمكن أن يعمد إليه فيقتله، فهذا دليل على أن أخوة الدين أقوى من أخوة النسب.

ثانياً: الرخصة في الانقياد للظالم والغاصب، فيمكن أن يقال: لماذا لم تقاوم؟ قد تقاوم وتقتل وتذل وتهان، وهنا رخصة في أن المرأة إذا أجبرت بالقوة على الانقياد إلى ظالم، فإنها إذا لم تجد طريقة للهرب ولا للتخلص، وقِيْدت بالقوة، فإنها تكون معذورة بهذا.

ثالثاً: يؤخذ من الحديث: قبول هدية المشرك؛ فإنه لما أعطاها هاجر قَبِلَت الهدية وأقرها إبراهيم، وهو نبي يأتيه الوحي، فأُخِذَت هدية المشرك.

إجابة دعاء المخلص:

ومن أعظم الفوائد: إجابة الدعاء بإخلاص النية؛ فإنها دعت الله تعالى، ففرج الله عنها، والله تعالى مع المكروب، ومع الملهوف، ومع المظلوم، يجيب دعوة المظلوم، والمضطر، ولا شك أن سارة في ذلك الموقف كانت في اضطرار عظيم، فلما دعت الله وقالت: (اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك) فكانت صادقة مؤمنة فاستجاب الله دعاءها.

وهكذا المرأة المسلمة والرجل المسلم إذا وقع في ضرورة في ورطة في أزمة فتوجه إلى الله بالدعاء فإن الله سبحانه وتعالى يخلصه إذا كانت نيته حسنة.

مشروعية التوسل بالأعمال الصالحة:

خامساً: مشروعية التوسل بالأعمال الصالحة، وهذا سبق لنا في قصة أصحاب الغار الثلاثة.

وهذا دليل آخر، فإنها قالت: (اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر) فتوسلت إلى الله تعالى بالإيمان وبالعفة، (وأحصنت فرجي إلا على زوجي) وهذه من الأعمال الصالحة، امرأة عفيفة تقول: ما مسني أحد من الأجانب أبداً (أحصنت فرجي إلا على زوجي) التوسل إلى الله بالأعمال

الصالحة، وأن الله سبحانه وتعالى يقبل الدعاء بالأعمال الصالحة، وأنه عز وجل يستجيب.

الحكمة من ابتلاء الصالحين:

سادسًا: يؤخذ من هذه القصة أيضًا: ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم؛ فإن الله ابتلى إبراهيم بأخذ زوجته منه ابتلى إبراهيم بهذا الملك الظالم ابتلاه باستدعائه له ابتلاه بالموقف الصعب الذي مر به ابتلاه بالشدة، وهذا ليرفع درجته ويزيد أجره وحسناته.

أهمية الفزع إلى الصلاة ومشروعية الوضوء لمن قبلنا:

سابعًا: أن الإنسان إذا نابه كرب أو وقع في شدة فإن عليه أن يفزع إلى الصلاة؛ فإن إبراهيم الخليل لما أُخِذت منه زوجته ماذا فعل؟ اشتكى إلى مَن؟ إلى ملك الملوك.

ويلجأ إلى من؟ الذي خصمه الآن أكبر سلطان في البلد وهو الملك، أخذ زوجته، يشتكيه إلى مَن؟ لا يوجد حل إلا من الله سبحانه وتعالى، فتوجه إلى الله تعالى وقام يصلي.

وهكذا كان النبي ـ ﷺ ـ إذا فزعه أمر صلى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:١٥٣] .

ولما أخبر ابن عباس أن أخاه قد توفي وهو في طريق السفر، نزل عن دابته إلى جانب الطريق فصلى ركعتين وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:١٥٣] .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أو كربه أمر صلى، وهكذا إبراهيم الخليل لما حصل له ما حصل فزع إلى الصلاة، قام إبراهيم يصلي، طيلة فترة غياب الزوجة عنه وهو في صلاته، هذه من أسوأ الفترات التي يمكن أن تمر بالإنسان، الزوج إذا أُخِذَت زوجته إلى مكان مجهول، ولا يدري ماذا يُفعل بها، وليس عنده قوةً ليس عنده جيشٌ يحارب به، ولا قوة يستطيع أن يقتحم قصر الظالم ويستخرج زوجته، أو أنه يهرب بها، لا يستطيع، دخل في سلطان هذا الفاجر.

فإذاً كان يأوي إلى ركنٍ شديد وهو الله عز وجل.

ثامنـًا: من فوائد هذه القصة أيضـًا: أن الوضوء كان مشروعـًا للأمم من قبلنا، وليس خاصـًا بهذه الأمة ولا بالأنبياء؛ لأن ذلك ثبت عن سارة أنها قامت تتوضأ، وجمهور العلمـاء على أن سارة ليست بنبية وإنما هي من أولياء الله.)[1]

الصورة الثانية من المواقف الحاسمة في حياة سارة عليها السلام

أخي المسلم... أختي المسلمة : ومرت الأيام و السنون و لم يولد لإبراهيم عليه الصلاة و السلام و كان قد بلغ من الكبر عتيا و بلغت سارة من العمر كذلك و أراد الله عز وجل أن يكرم تلك المرأة المثالية التي وبت لزوجها هاجر عليها السلام فأنجب منه إسماعيل عليه الصلاة و السلام- فجات الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام لتزف إلى تلك الأسرة الكريمة هذه البشارة السارة ، يقول الله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) " سورة هود"}

يقول الشيخ الشعراوي – رحمه الله –فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً، وبشَّرتها الملائكة بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب. فبعد دفع العذاب، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان إليه، وإن كان أوانها قد فات؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من عمرها، وبلغ هو المائة والعشرين عامـًا. وفي هذا امتنان على إبراهيم بمجيء ابن الابن أيضـًا، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول:

[1] – سلسلة القصص للشيخ محمد المنجد حفظه الله

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً }[النحل: ٧٢].

ولذلك قال الحق سبحانه: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١].

فالإنسان يحب أن يكون له ابن، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه، لأن هذا يمثل امتداداً له.

وهكذا توالت البشارات، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام؛ لما جاءوا به من الفواحش، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأي أمر يغضب الله تعالى.

والثالثة من البشارات هي الغلام، وكان ذلك حُلْماً قديماً عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة.

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه: {قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ} العجيب هو الذي يخالف نواميس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقاً بين النواميس وخالق النواميس، الذي هو قادر على أن يخرق النواميس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر:

{أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ} [الحجر: ٥٤].

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التي قالت: {يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا} [هود: ٧٢].

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب، وهو أهم ما تطلبه المرأة.

وأيضاً سُمِّي النخل بالبعل، لأنه لا يطلب من زارعة أن يسقيه، وإنما يكتفي النخل بما يمتصه من الأرض، وما ينزل له من مطر السماء.

وكذلك سُمِّي نوع من الفول " بالفول البعلي " ، وهو الذي لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك: {قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} والعجب ـ إذن ـ إنما يكون من قانون بشري، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة في أن يخرق الناموس.

ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.)([1])

الدروس والعبر التي نأخذها من ذلك الموقف

يقول الزحيلي –حفظه الله– فقه الحياة أو الأحكام: أرشدت القصة إلى ما يلي:

١ –تبادل السلام بين الملائكة وبين الأنبياء، فقد سلم الملائكة على إبراهيم عليه السلام بقولهم: سلاما، كما تقول: قالوا خيرا، فرد عليهم بتحية أحسن، فقال: سلام عليكم.

٢ –دلت الآية أن من أدب الضيف أن يعجّل قراه، فيقدم الموجود الميسر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان لديه شيء وسعة، ولا يتكلف المفقود غير المستطاع الذي يتضايق به.

والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وهي سنة وليست بواجبة،

لقوله ـ ﷺ ـ فيما رواه البخاري عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ مِنْ خُزَاعَةَ وَهُوَ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ: «الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ» ، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا يُؤْثِمَهُ؟، قَالَ: «يُقِيمُ عِنْدَهُ، وَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَقْرِيهِ».([2])

---

[1] – تفسير الشعراوي – (١٥٣٢)

[2] – «أخرجه البخاري (٦٠١٩) و (٦١٣٥)، ومسلم بإثر (١٧٢٦) / (١٤ – ١٦)، وأبو داود (٣٧٤٨)، والترمذي (٢٠٨٢) و (٢٠٨٣)»

وقوله ـ ﷺ ـ فيما رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِيَنَّ جَارَهُ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» . .(١)

والمخاطب بالضيافة أهل المدن أو الحضر والبادية في رأي الشافعي، وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة،

لحديث القضاعي عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: «الضيافة على أهل الوبر، وليست على أهل المدر».(٢)

لكنه حديث لا يصح، كما قال القرطبي.

٣- مشاركة الزوجة لعواطف زوجها أمر مستحسن، فإن سارّة ضحكت استبشارا بتعذيب قوم لوط، لكراهتها خبائثهم، قال الجمهور: هو الضحك المعروف. وأنكر بعض اللغويين أن يكون في لغة العرب: ضحكت بمعنى حاضت.

٤-من السنة قيام المرأة بخدمة الرجال الضيوف بنفسها، وترجم البخاري لحديث في ذلك: «باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس» قال القرطبي: ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب.

٥-امتنع الملائكة من الطعام لأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أتوا إبراهيم في صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها، وهو كان مشغوفا بالضيافة.

٦-ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاما إلا بثمن فقال لهم: «ثمنه أن تذكروا اللّه في أوله، وتحمدوه في آخره» فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ اللّه هذا خليلا.

ودل هذا على أن التسمية في أول الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا.

---

١ -«أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).»

٢ - «(موضوع) انظر حديث رقم: ٣٦٠٣ في ضعيف الجامع»

٧-إن رحمة اللّه متكاثرة، وبركاته على أهل بيت النبوة متعاقبة، فكان التبشير بولادة ولد لزوجين عجوزين معجزة خارقة للعادة، وتخصيصا لبيت النبوة بكرامة عالية رفيعة، واللّه تعالى قادر على كل شيء، وإنه حميد مجيد، فلا عجب بعدئذ.

٨-إن جدل إبراهيم في شأن إهلاك قوم لوط ليس من الذنوب، بدليل إيراد المدح العظيم عقبه بقوله تعالى: {إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}: أي إن رقة قلبه وفرط رحمته وسعة حلمه حملته على المجادلة، التي كان المراد منها سعي إبراهيم في تأخير العذاب عن قوم لوط، رجاء إقدامهم على الإيمان والتوبة من المعاصي.

٩-دلت آية {رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} على أن زوجة الرجل من أهل البيت، وأن أزواج الأنبياء من أهل البيت، فعائشة رضي اللّه عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي -ﷺ- وممن قال اللّه فيهم: {وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }[الأحزاب ٣٣/ ٣٣])([1])

[1] - التفسير المنير للزحيلي - (١٢ ١١٠/١١١)

مواقف حاسمة من حياة هاجر -عليها السلام-

أخي المسلم... أختي المسلمة: ما زلنا نعيش مع أسرة خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة و السلام لنأخذ من تاريخ زوجاته مواقف حاسمة تنير دروب الحياة للمسلمات المؤمنات في زمن اشتعلت فيه نار الشهوات و علت فيه نبرات أهل الخنى و الفجور و أصبحت المرأة السافرة العاهرة تقدم للمسلمات على أنها قدوة يقتدى بها في زمن غابت فيه القيم و اعتلى فيا الرمم ليكن قادات و قدوات ...

موقف المؤمنة الواثقة بربها والمتوكلة عليه – سبحانه وتعالى-

بعدما حملت السيدة الفاضلة أمنا هاجر عليها السلام وظهرت عليها علامات الحمل غارت السيدة سارة عليها السلام وهذه هي طبيعة النساء،عاد إبراهيم عليه السلام من أرض مصر إلى أرض فلسطين ومعه زوجته سارة وأمتها هاجر التي أخدمها إياها الطاغية، وكانت سارة عقيمًا لا تلد، وكان يحزنها أن ترى زوجها وحيداً ليس له ولد، فقد أصبحت هي على حال لا يرجى أن تأتي بعده بمولود لأنها قد تجاوزت سن السبعين وبلغت من الكبر عتيًا، ولم تعلم بأن الله سوف يجعلها آية لحملها على الكبر بعد ذلك بسنين أخرى، فما كان منها إلا أن أشارت على إبراهيم بأن يدخل بأمتها هاجر بعد أن وهبتها له لعل الله يرزقه منها غلامًا زكيًا تشرق به حياته ويكون عونًا لأبيه على تحمل مشاق الحياة فاستجاب إبراهيم عليه السلام لرأيها وتزوج هاجر وأنجبت له غلامًا زكيًا، هو إسماعيل عليه السلام الذي كان من نسله خاتم النبيين وسيد المرسلين رسولنا محمد ـ ﷺ ـ ، وشاركت سارة زوجها وضرتها في الفرح والسرور بإسماعيل، ولكن الغيرة الموجودة في النساء لم تلبث أن دبت إلى قلبها وتسللت إلى فؤادها وعصفت بها أعاصير كثيرة من الحزن والألم، وحرمت الهدوء والهجوع، وأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام ولا تحتمل رؤية هاجر، وهذا شأن معظم النساء مع جاراتهن اللائي يشاركنهن الحياة مع الأزواج، ولا غرابة في ذلك الطبع وتلك السجية فهي فطرة موجودة فيهن من قديم الزمان ومروراً بأزواج الرسول ـ ﷺ ـ وانتهاءً بنساء زماننا ومن بعدنا إلى أن تقوم الساعة.

ولكن الغريب هو مكر النساء اللاتي تغلبن بها وفيها على الشيطان، والشيطان كيده ضعيف، أما النساء فكيدهن ومكرهن عظيم وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى عن كيد الشيطان {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء:٧٦]. أما عن النساء فذكر الله عز وجل في آيات عنهن في قوله عز شأنه: قَالَ {إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} [يوسف:٢٨].

ولنا مع هذا الموضوع إن شاء الله وقفة عند الحديث عن الزوجات.

أعود للقول بأن سارة لم تعد تحتمل رؤية هاجر وابنها الرضيع إسماعيل ولم تجد دواء لقلبها إلا أن تطلب من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أن يقصيها ويبعدها هي وابنها عن دارها ويبعدهما عن عينيها، فاستجاب إبراهيم لطلبها لحكمة يريدها الله ويعلمها، فأخذهما إبراهيم عليه السلام وسار بهما يقطع الصحاري والقفار والمفازات الطويلة من أرض فلسطين إلى جبال مكة الجرداء في حينها ذلك البلد الذي لم يكن به ساكن ولا أنيس من البشر،و إليك أخي المسلم القصة كما أخبر بها رسول الله ـ ﷺ ـ

* قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّساءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْماعِيلَ: اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّي أَثَرَها عَلَى سارَةَ، ثُمَّ جاءَ بِها إِبْراهِيمُ وَبابنِها إِسْماعِيلَ وَهْيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُما عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِها ماءٌ، فَوَضَعَهُما هُنالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُما جِرابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقاءً فِيهِ ماءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْراهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْماعِيلَ، فَقالَتْ: يا إِبْراهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنا بِهَذا الْوادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟! فَقالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرارًا، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْها، فَقالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذا؟ قالَ: نَعَمْ. قالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعَنا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فانْطَلَقَ إِبْراهِيمُ حَتَّى إِذا كانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعا بِهَؤُلاءِ الْكَلِماتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقالَ: رَبِّ {إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} حَتَّى بَلَغَ: {يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧] وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْماعِيلَ تُرْضِعُ إِسْماعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْماءِ، حَتَّى إِذا نَفِدَ ما فِي السِّقاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُها،

وَجعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى -أَوْ قالَ: يَتَلَبَّطُ - فانْطَلَقَتْ كَراهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيها، فَقامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفا حَتَّى إِذا بَلَغَتِ الْوادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جاوَزَتِ الْوادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقامَتْ عَلَيْها وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا،فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ -قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُما» - فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقالَتْ: صَه -تُرِيدُ نَفْسَها- ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ، إِنْ كانَ عِنْدَكَ غِواثٌ، فَإِذا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ -أَوْ قالَ: بِجَناحِهِ- حَتَّى ظَهَرَ الْماءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِها هَكَذا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْماءِ فِي سِقائِها، وَهوَ يَفُورُ بَعْدَما تَغْرِفُ، قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْماعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ -أَوْ قالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْماءِ- لَكانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا». قالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَها، فَقالَ لَها الْمَلَكُ: لا تَخافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هاهُنا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمالِهِ، فَكانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ -أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ-مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَداءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طائِرًا عائِفًا، فَقالُوا: إِنَّ هَذا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى ماءٍ، لَعَهْدُنا بِهَذا الْوادِي وَما فِيهِ ماءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذا هُمْ (١)

دروس وعبر

في هذا المشهد الإيماني الذي يفيض بالإيمان يصور لنا النبي -ﷺ- صورة حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة و في هذه القصة من الدروس و العبر الكثير منها:

أولا: محبة الزوجة لزوجها: حيث أن سارة عليها السلام لما رأت من نفسها عدم القدرة على الإنجاب أمرت إبراهيم أن يدخل على هاجر لعل الله أن يرزقه منها ما تقر به عينه، و

---

١ -أخرجه البخاري (ح: ٣٣٦٤) والنسائي في الكبرى (ح:٨٣٧٩) والبيهقي في الكبرى (ح: ٩١٥٣).

هذا هو ما ينبغي على المرأة المسلمة تجاه زوجها، أما بعض النسوة ضعيفات الإيمان فإنهن يمنهن أزواجهن من الزواج في تلك الحالة وإذا تزوج فنها تسبب له المتاعب و المشكل في حياته و تجعله يعيش في نكد و غم .

ثانيا: الغيرة طبيعة من طبائع النساء وإن كن مؤمنات كاملات الإيمان أمثال السيدة سارة عليها السلام، فقد قررت أن تقطع من هاجر ثلاثة أعضاء وأمرت إبراهيم أن يرحل بها و يغيبها عن وجهها و لقد أمر الله تعالى إبراهيم أن ينزل على رغبة سارة عليها السلام و أن يهاجر بهاجر إلى البيت الحرام، و نضرب أمثلة للصالحات و غيرتهن.

*** غيرت السيدة عائشة رضي الله عنها:**

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ كان عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم بقصعة فيها طعام فضربت بيدها فكسرت القصعة فضمها وجعل فيها الطعام وقال كلوا وحبس الرسول والقصعة حتى فرغوا فدفع القصعة الصحيحة وحبس المكسورة) (١)

قال الطيبي: الخطاب عام لكل من يسمع بهذه القصة من المؤمنين اعتذارا منه ـ ﷺ ـ لئلا يحملوا صنيعها على ما يذم ، بل يجري على عادة الضرائر من الغريزة فإنها مركبة في نفس البشر بحيث لا تقدر أن تدفعها عن نفسها وقيل خطاب لمن حضر من المؤمنين(٢)

وغيرة المرأة أمر مركوز فيها يحملها على أمور شديدة ويحول بينها وبين التبصر بعواقب الأمور، حتى قيل: إن المرأة إذا غارت لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه.

ثالثا: مسارعة إبراهيم عليه السلام لتنفيذ أوامر الله تعالى حيث حمل ابنه الذي رزقه الله تعالى له بعد أن بلغ من أكبر عتيا إلى ارض جرداء كحلاء لا زرع فيه وزولا ماء

---

١ – أخرجه أحمد (ح: ١٣٧٩٨) والبخاري (ح: ٢٤٨١) وأبو داود (ح: ٣٥٦٧).

٢ – عون المعبود –(٨ / ٦٥).

رابعا: ثقة هاجر عليها السلام بربها وتوكلها عليه: حيث قالت لإبراهيم (فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له أالله الذي أمرك بهذا قال نعم قالت إذن لا يضيعنا)

من هذا نرى مدى إيمان وثقة وتوكل هذه المرأة على الله، وأن الله لن يضيعها، فلم يضيعها الله كما وثقت، وكفى بهذه القصة دليلا على هذه الثقة

***رابعا: استسلام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و بركة دعائه للبيت الحرام:** يقول تعالى على لسان نبينا إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

خامسا: وجوب الأخذ بالأسباب:

مسألة-لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنه وأمته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحي من الله تعالى، فلما ولي دعا بضمن هذه الآية.(١)-

سادسا الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل والثقة بالله:

و هذا ما نلمسه في سعي السيدة المباركة عليها السلام بين الصفا و المرة بحثا على الماء و الطعام (عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي

---

١ – تفسير القرطبي – (٩ / ٣٧٠)

تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ـ ﷺ ـ فذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا)

سابعا :عناية الله تعالى و حفظه لأوليائه: ومن تلك الدروس المستفادة أن من حفظ الله حفظه الله تعالى فلما كان خليل الرحمن عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام حافظا هو وأهله لله في الالتزام بالطاعات و اجتناب المنهيات حفظهم الله تعالى ، و النظر في سير الأنبياء و المرسلين يجد حفظ الله تعالى لهم ومن هذه القصص : قصة نوح عليه السلام ، والطوفان ، وقصة إبراهيم عليه السلام ، في تكسير الأصنام وإلقائه في النار ، وقصة موسى عليه السلام في نجاته من فرعون وإغراقه ، وقصة يونس عليه السلام في بطن الحوت ، ومختصر قصة يوسف عليه السلام ، وسيرة محمد ـ ﷺ ـ مثل البعثة والهجرة ، وشيء من الغزوات كبدر والخندق ،

ومصداق ذلك ما جاء في الحديث عن أبي العباس عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– قال: كنت خلف النبي – ـ ﷺ ـ – يوما فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك

وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) [١].

فمن حفظ الله وجد الله أمامه يدله على كل خير، ويذود عنه كل شر، ولا سيما إذا حفظ الله بالاستعانة به؛ فإن الإنسان إذا استعان بالله، وتوكل على الله كان الله حسبه وكافيه، ومن كان الله حسبه؛ فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد الله، فلن يناله سوء.

ثامنا: أن السعي بين الصفا والمروة يذكر المسلم دائما و أبدا بالسيد الفاضلة و فيه ربط بين أولا الأمة بآخرها يقول رسول الله – ﷺ – (قال ابن عباس قال النبي ﷺ فذلك سعي الناس بينهما).

يقول الشنقيطي – رحمه الله : فيه الإشارة الكافية إلى حكمة السعي بين الصفا والمروة؛ لأن هاجر سعت بينهما السعي المذكور، وهي في أشد حاجة، وأعظم فاقة إلى ربها؛ لأن ثمرة كبدها وهو ولدها إسماعيل تنظره يتلوى من العطش في بلد لا ماء فيه ولا أنيس، وهي – أيضا – في جوع وعطش في غاية الاضطرار إلى خالقها – جل وعلا – وهي من شدة الكرب تصعد على هذا الجبل؛ فإذا لم تر شيئا جرت إلى الثاني فصعدت عليه لترى أحدا؛ فأمر الناس بالسعي بين الصفا والمروة؛ ليشعروا بأن حاجتهم، وفقرهم إلى خالقهم ورازقهم كحاجة وفقر تلك المرأة في ذلك الوقت الضيق، والكرب العظيم إلى خالقها ورازقها، وليتذكروا أن من كان يطيع الله كإبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لا يضيعه ولا يخيب دعاؤه.

وهذه حكمة بالغة ظاهرة دل عليه حديث صحيح" انتهى[٢]

---

[١] – أخرجه أحمد ح ٢٦٦٩ و الترمذي ح ٢٥١٦ و الحاكم ح ٦٣٠٣ و الطبراني في الكبير ح ١١٢٦٥و أبو يعلى في مسنده ح ٢٥٥٦و قال الألباني : صحيح ، المشكاة (٥٣٠٢) ، ظلال الجنة (٣١٦ – ٣١٨)و انظر حديث رقم : ٧٩٥٧ في صحيح الجامع .

[٢] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – (٤ / ٤٨١)

استحضر هذا الدرس العظيم، والحكمة البالغة؛ فما دمت مطيعا لله، مفتقرا إليه، ملازما دعائه فلا تيأسن من لطفه؛ فإذا ألمت بك مصيبة، أو نزل بك بلاء، أو ركبك دين، أو لازمك مرض سواء في نفس أو ولدك أو من تحب -فانتظر فرج ربك -جل وعلا -.

تاسعا: أن صاحب الحوض أولى به من غيره:

قال المهلب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه، لقوله عليه السلام: «لأذودن رجالا عن حوضي».

فأما حديث الغلام والأشياخ فصاحب الماء واللبن أحق به أولا، ثم يستحقه المتيامن منه، فكان بين الحوض والقربة أو القدح فرق، لأنه لو كان صاحب القدح أحق به أبدًا لما استأذن النبي الغلام الذي كان عن يمينه في أن يعطى الأشياخ، فإنما تصح الترجمة في الابتداء أن صاحب الماء أولى به، ثم الأيمن فالأيمن أولى من صاحب الماء في أن يعطيه غيره، وإنما هذا فيما يؤكل أو يشرب الموضوع بين يدي الجماعة، وأما في المياه والآبار والجباب والعيون فصاحبها أولى بها أولا، وأولى بها في أن يعطى من شاء آخراُ بخلاف حديث الغلام، وكذلك في مسألة أم إسماعيل هي أحق بمائها أولا وآخرًا.)([1])

[1] - شرح ابن بطال -(١٢ / ٢٣).

مواقف حاسمة من حياة أم موسى -عليه الصلاة والسلام-

أخي المسلم. أختي المسلمة : ها نحن نطوي الزمان و المكان لنعيش في حقبة من تاريخ المرأة المسلمة التي عاشت في عصر الظلم و الاستبداد حيث البغي و العدوان و الكفر بالملك الديان في عصر من ادعى الأولوهية و قال أنا ربكم الأعلى، إنها الصابرة المحتسبة الواثقة في قضاء الله و قدره إنها أم كليم الرحمن موسى عليه السلام- يقول الله تعالى و هو يقرر لنا ذلك الموقف الحاسم يقول الله تعال { طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)"سورة القصص "}

بدا الله تعالى تلك القصة الدالة على عظيم قدرته وكمال رحمته وحكمته سبحانه وتعالى {طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)}

و أن الذين ينتفعون بهذا الكتاب و ما فيه من آيات إنما هم المؤمنون حقا و في هذه الآيات إشارة إلى المستضعفين ألا يهنوا و لا يستسلموا لأعدائهم فهي قصة اليقين بأن الغلبة للمؤمنين، ثم إن الله تعالى يبن لنا مدى الظلم الذي كان يعيشه المجتمع من فساد للأخلاق و القيم و من بث روح الفساد و الذعر في المجتمع { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)}

كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبأ.

وقوله {عَلاَ فِي الأرض} أي تكبر فيها وطغى، من العلو بمعنى الارتفاع. والمقصود أنه جاوز كل حد في غروره وظلمه وعدوانه. والمراد بالأرض: أرض مصر وما يتبعها من بلاد.

و {شِيَعـًا} جمع شيعة، وهم الأتباع والجماعات، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعته.

أي: إن فرعون طغى وبغى وتجبر في الأرض، وجعل أهلها شيعا وأتباعا له، وصار يستعمل كل طائفة منهم، فيما يريده من أمور دولته، فهذه الطائفة للبناء، وتلك للسحر، وثالثة لخدمته ومناصرته على ما يريد. . .

وجملة {يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ} لبيان حال الذين جعلهم شيعا وأحزابا.

والمراد بهذه الطائفة: بنو إسرائيل.

أي: أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعا وأحزابا اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم، فصار يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم أي: يذبح الذكور من بني إسرائيل بمجرد ولادتهم، ويترك الإناث أحياء.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: وفى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه:

أحدهما: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال. وذلك يقتضي انقطاع النسل. .

ثانيها: أن هلاك الذكور يقتضى فساد مصالح النساء فئ المعيشة، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال .

ثالثها: أن قتل الذكور عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع به ، من أعظم العذاب . . .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهن ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان .

قالوا: وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بني إسرائيل دون الإناث . لأن الكهنة أخبروه ، بأن مولودا سيولد من بني إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

وقوله –سبحانه – : { إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين } تعليل وتأكيد لما كان عليه فرعون من تجبر وطغيان .

أي : إن فرعون كان من الراسخين في الفساد والإفساد ، ولذلك فعل ما فعل من ظلم لغيره ، ومن تطاول جعله يقول للناس : { أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى } ثم بين – سبحانه – ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده في القوم الظالمين ، مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم ، فقد جاء فرعون اللعين بجملة من أنواع الفساد :

الأول: أنه علا وبغى

الثاني: أنه جعل أهلها شيعا وأحزابا

الثالث: أنه استضعف طائفة

الرابعة انه كان يذبح الأبناء الذكور ويستحي الإناث

ثم إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكشف الكرب و الغم و ينصر أوليائه على أعدائه فقال سبحانه {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)}

وأراد اللّه تعالى إنصاف الضعيف وعقاب المستكبر، فأنعم اللّه على المستضعفين المؤمنين برسالة موسى عليه السّلام، وخلّصهم من بأسه، وأنقذهم من ظلمه ومكره.

وجعل اللّه أولئك الضعاف الأذلة ولاة الأمور، ووارثين لملك فرعون وأرضه وما في سلطانه، وجعل لهم السلطة والنفوذ في أرض فرعون. وأرى اللّه فرعون الطاغية، وهامان وزيره الماكر، وأتباعهما ما كانوا يخافون منه، من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل، وقد أنفذ اللّه أمره، وحقّق حكمه، بأن جعل تدمير فرعون وقومه على يد من تربّى في قصره، بعد أن صيّره اللّه رسولا ونبيا، وأنزل عليه التوراة، ليعلم أن اللّه وحده هو القاهر الغالب على أمره، ويتم أمر اللّه فيما أوقعه بفرعون وقومه وجنده فيما خافوه وحذروه من جهة بني إسرائيل وتغلبهم. (١)

١ – التفسير الوسيط للزحيلي – (٣ / ١٩٠٢)

موقف حاسم في تاريخ أم موسى

و ها هي بادية الانتصار و بداية التمكين حيث أراد الله عز و جل أن يمكن لموسى عليه السلام و هو طفل رضيع و أن يجعل أعدى أعدائه هو الذي يتولى تربيته في قصره، إن الانتصار على الأعداء يبدأ من اضعف نقطة يراها المرء يقول الله تعالى يقول الله تعالى و هو يصور لنا حال أم موسى عليه السلام و قد بشرها و اطمئن قلبها على وليدها { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)}

يقول ابن كثير – رحمه الله –ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يُفْني بني إسرائيل فَيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة. فقالوا لفرعون: إنه يوشك –إن استمر هذا الحال –أن يموت شيوخهم، وغلمانهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك. فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون، عليه السلام، في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى، عليه السلام، في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يَدُرْنَ على النساء، فمن رأينها قد حملت

أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قَبَّحَهُم الله. فلما حملت أم موسى به، عليه السلام، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسى، عليه السلام، لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعا وشرعًا قال الله تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} [طه : ٣٩]. فلما ضاقت ذرعًا به ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها، كما قال الله

تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} .

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدَت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد مِمَّنْ تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها. فلما كان ذات يوم دخل عليها مَنْ تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها. فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها؛ ولهذا قال { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا] } (١) .

العناية الرانية بموسى عليه السلام:

و هنا تظهر العناية الربانية بموسى عليه السلام و يبدأ أول خطوة في طريق النصر على ذلك الطاغية الذي جيش الجيوش و قتل آلاف الأطفال رجاء أن يقضي على ذلك الغلام الذي ستكون نهاية مملكته على يديه و لكن الله غالب على أمره، ها هي القدرة الربانية قد ساقت إليك و إلى جنودك دون مشقة أو عناء و لن تستطيع أن تقتله بل سيربى في أحضان زوجتك و سيكون لك بعد هذه التربية و العناية من قبلك و قبل زوجتك عدوا لك و لجندك

إلقاء الله محبة موسى في قلوب من يراه :

لقد ألقى الله تعالى محبة موسى في قلوب خلقه فلا يراه أحد إلا أحبه {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ

---

١ – تفسير ابن كثير – (٦ / ٢٢١)

فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)}

يقول الشنقيطي – رحمه الله – من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى وعليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما ذكره جل وعلا في « القصص » في قوله : { وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ } [القصص : ٩] الآية ، قال ابن عباس { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } : أي أحبه الله وحببه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مسحة من جمال . لا يكاد يصبر عنه من رآه.

وقال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحة، ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه. قاله القرطبي.(١)

فما إن رأته آسية رضي الله عنها – حتى صاحت في وجه فرعون {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)}و ما استطاع فرنون اللعين أن تمتد يده إلى ذلك الطفل الرضيع بل استجاب لرغبتها و نزل على إرادتها و قرر أن يربى الطفل فير قصره و تحت رعايته

موقف أم موسى – عليه السلام – من بُعد ابنها عنها:

إن الله تعالى ألقى محبة الأبناء في قلوب الأمهات و جعل الأبناء هم قرة عيونهم لذا ما نشاهده من موقف أم موسى عليه السلام –إنما هو نتيجة للفطرة التي فطر الله عليها الآباء و الأمهات يقول الله تعالى {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)}

يقول أبو حيان – رحمه الله– { وأصبح } : أي صار فارغاً من العقل ، وذلك حين بلغها أنه وقع في يد فرعون ، فدهمها أمر مثله لا يثبت معه العقل ، لا سيما عقل امرأة خافت على ولدها حتى طرحته في اليم ، رجاء نجاته من الذبح؛ هذا مع الوحي إليها أن الله يرده

---

١ – أضواء البيان – (٤ / ٨٣)

إليها ويجعله رسولاً ، ومع ذلك فطاش لبها وغلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم ، ثم استكانت بعد ذلك لموعود الله .)[1]

وذلك من فضل الله تعالى على تلك الأم حيث ربط على قلبها بالصبر والثقة بموعود الله تعالى لها.

عودة موسى عليه السلام إلى أمه و في الحال ألهمها الكبير المتعال أن ترسل أخته لتتقصى خبره و لترى أين سيكون مستقره و كانت مؤمنة زكية هداها الله تعالى إلى حسن التصرف و الدلالة يقول الله تعالى { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)}

يقول السعدي – رحمه الله- {وَقَالَتِ } أم موسى { لأُخْتِهِ قُصِّيهِ } أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه] { فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله.

ومن لطف اللّه بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال {فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}.

وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبا شديدا، وقد منعه اللّه من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترغيب، في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

[1] – تفسير البحر المحيط – (٩ / ٦)

{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ } كما وعدناها بذلك { كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ } بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } فأريناها بعض ما وعدناها به عيانا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد اللّه في حفظه ورسالته، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } فإذا رأوا السبب متشوشا، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن اللّه تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أُمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله، صدقا وحقا.)[1]

الدروس والعبر

اعلم علمني الله إياك: أن في موقف أُم موسى من الدروس والعبر ما يثبت الله عز وجل به الأقدام وإليك طرفا منها:

الدرس الأول: إن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة:

فهذا فرعون اللعين علا في الأرض وغره سلطانه وظن أنه منتصر فهو يهوي إلى الهاوية وإن ظهر الحق وكأنه ضعيف منكمش فإنه ثابت يحتاج من أتباعه الثبوت و التحرك، فقوم موس كانوا مستضعفين في الأرض و هم على الحق و غيرهم كان على الباطل و ظلوا كذلك ردحا من الزمان إلى أن جاء القدر المقدور و أذن الله للظلام بالزوال و للحق بالبقاء جاء النصر من اضعف النقاط و هي ولادة موسى عليه السلام.

[1] – تفسير السعدي – (١ / ٦١٢)

ثانيا :أن النصر ليس بالعدد و لا بالعدة و إنما هو بالإيمان بالله و الثقة في نصره و الركون إليه جل في علاه و هو منة يمن الله بها على أوليائه و أحبابه يقول الله تعالى {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) [الصافات : ١١٤ - ١٢٣]}

يقول الشنقيطي – رحمه الله –والمعنى: أنه نجى موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم، وهو ما كان يسومهم فرعون وقومه من العذاب، كذبح الذكور من أبنائهم وإهانة الإناث، وكيفية إنجائه لهم مبينة في انفلاق البحر لهم، حتى خاضوه سالمين، وإغراق فرعون وقومه وهم ينظرون.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ} [البقرة: ٥٠].

وقدمنا تفسير الكرب العظيم في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى في قصة نوح { فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم } [الأنبياء : ٧٦].([1])

ثالثا: مكانة أم موسى عليها السلام حيث أن الله تعالى أوحى إليها:

والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك، ولا ينافي حكاية أبي حيان الإجماع على عدم نبوتها، لما أن الملائكة عليهم السلام قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم، وإلى هذا ذهب قطرب وجماعة.

وقال مقاتل منهم: إن الملك المرسل إليها هو جبريل عليه السلام. وعن ابن عباس.

وقتادة أنه كان إلهاماً، ([2])

---

[1] – أضواء البيان – (٦ / ٤٧٥)

[2] – تفسير الألوسي – (١٥ / ٧٨)

وهذا تكريم من الله تعالى للمرأة ورفعا من مكانتها وبيان للخلق أجمعين أن الإسلام ما هضم حق المرأة في يوم من الأيام ولا في شريعة من الشرائع السماوية أما ما هو موجود عند اليهود في كتبهم المحرفة من هضم وحط من شان المرأة فهذا ليس من الله تعالى في شيء

رابعا: أن النجاة في طاعة الله تعالى وإن ظن المرء أن فيها الهلاك وأن الهلاك في معصية الله تعالى وإن ظن فيها النجاة {فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)}

خامسا: أن الكون الذي نعيش فيه مسخر لخدمة أولياء الله تعالى ونصرتم على أعدائهم

يقول الله تعالى {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) [طه: ٣٨، ٣٩]} قوله تعالى: {فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ} [طه: ٣٩] أي: تحمله الأمواج وتسير به، وكأن لديها أوامر أن تُدخِله في المجرى الموصِّل لقصر فرعون.

فعندنا ـ إذن ـ لموسى ثلاثة إلقاءات: إلقاء الرحمة والحنان في التابوت، وإلقاء التابوت في اليم تنفيذاً لأمر الله، وإلقاء اليَمِّ للتابوت عند قصر فرعون.

قال بعض العلماء: وصيغة الأمر في قوله {فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل} فيها وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن صيغة الأمر معناها الخبر: قال أبو حيان في البحر: وقوله {فَلْيُلْقِهِ} أمر معناه الخبر، وجاء بصيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها.

الثاني: أن صيغة الأمر في قوله { فَلْيُلْقِهِ } أريد بها الأمر الكوني القدري كقوله : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله – تعالى – أمره بذلك كونا وقدرا . . .

ومن الأمثلة الدالة على أن الكون سخره الله تعالى لخدمة دينه ونصرة أوليائه قال الله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب:٩].

قال الله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَاذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِين} [الأحقاف:٢٤، ٢٥].

والطير جند من جند الله المسخر لنصرة دين الله والقضاء على من عادى أولياء الله: قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مّن سِجّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولِ} [الفيل:١-٥].

وقال السعدي: "أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة محماة من سجيل، فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم".

الآيات التي أرسلها الله على قوم فرعون: قال الله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءايَاتٍ مّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} [الأعراف:١٣٣].

سادسا: أن الله تعالى يسخر أعداء الله لنصرة دينه فهم ينفقون الأموال و يضعون:

المخططات و كلها في نهاية المطاف تنصر دين الله و ففرعون اللعين هو الذي اخذ موسى و رباه في قصره و انفق عليه من ماله و سخر له الجنود ليكون في النهاية عدوا له ... و قد قرر الله تلك الحقيقة في آيات كثيرة منها {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) [الأنفال : ٣٦]} فكثير من المخترعات التي لم تخدم إلا أهل الإسلام إنما هي من صنع هؤلاء الكافرين

سابعا: أن الثبات على دين الله والثبات أمام المحن لا يكون إلا من الله تعالى وسؤال العبد ربه أن يثبته ونلحظ ذلك جليا في قوله تعالى {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)} فلولا أن الله تعالى ثبتها على الإيمان لنفد صبرها ولأبدت خبره.

يقول أبو حيان – رحمه الله- {لولا أن ربطنا على قلبها } .

قال قتادة: بالإيمان.

وقال السدي: بالعصمة.

وقال الصادق: باليقين.

وقال ابن عطاء: بالوحي، و {لتكون من المؤمنين}.

فعلنا ذلك، أي المصدقين بوعد الله، وأنه كائن لا محالة.

والربط على القلب كناية عن قراره وإطمئنانه ، شبه بما يربط مخافة الانفلات (١).

يقول السعدي – رحمه الله – { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ } أي: بما في قلبها { لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به. {لِتَكُونَ} بذلك الصبر والثبات {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك، على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه. (٢)

ثامنا: أخذ الحذر والحيطة في كل شيء ونأخذ ذلك من قول أم موسى لأخته {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)}

---

١ – تفسير البحر المحيط – (٩ / ٦)

٢ – تفسير السعدي – (١ / ٦١٢)

يقول الشيخ الشعراوي – رحمه الله –نلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها {قُصِّيهِ} [القصص: ١١] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط {عَن جُنُبٍ} [القصص: ١١] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه، وإن لم تُكلَّف بذلك، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح.

ما أجملَ ما قاله الشاعر في هذا المعنى: إذَا كُنْتَ في حَاجةٍ مُرْسِلاً فأَرسِلْ حَكيمـًا ولاَ تُوصِهْ وقوله تعالى: { عَن جُنُبٍ } [القصص: ١١] يظن البعض أن جنب يعني قريب مني، وهذا غير صحيح؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون في مواجهتي، لذلك يقول تعالى: { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ }[النساء: ٣٦] إذن: الجار الجنب مقابل الجار القريب، فمعناه الجار البعيد.

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذتْ مكانـًا بعيداً منه، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له.(١)

تاسعا: أن وعد الله تعالى لأنبيائه ورسله وأوليائه لا يتخلف فهو وعد صدق يقول الله تعالى {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)}

يقول السعدي – رحمه الله –ومن لطف اللّه بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال { فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } .

وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبا شديدا، وقد منعه اللّه من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترغيب، في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

---

١ – تفسير الشعراوي – (/ ٣١٩١)

{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ } كما وعدناها بذلك { كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ } بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } فأريناها بعض ما وعدناها به عيانا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد اللّه في حفظه ورسالته، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } فإذا رأوا السبب متشوشا، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن اللّه تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أُمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله، صدقا وحقا. (١)

١ – تفسير السعدي –(١ / ٦١٢)

مواقف حاسمة من تاريخ آسية بنت مزاحم – رضي الله عنها

و ممن خلد الله تعالى ذكرهن في كتابه و جعلهن مثلا للمؤمنين و المؤمنات تلك المرأة التي ضربت أروع الأمثلة في الثبات على الإيمان أمام الشهوات شهوة السلطة شهوة المال شهوة الحياة ضربت بكل هذه الشهوات عرض الحائط و ثبت ثبات الجبال الراسيات فصارت من أفضل النساء و أكملهن إنها آسية بنت مزاحم – رضي الله عنها و أرضاها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]

يقول السعدي –رحمه الله – { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ } وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها { إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: { كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء، إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام } .(١)

يقول ابن كثير حمه الله –قال: قتادة كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده فوالله ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه.

---

١ – تفسير السعدي – (١ / ٨٧٤)

وقال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن حفص الأَبُلِّيّ، حدثنا محمد بن جعفر، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تُعَذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

ثم رواه عن محمد بن عبيد المحاربي عن أسباط بن محمد، عن سليمان التيمي، به.

ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن هشام الدَّسْتُوَائي، حدثنا القاسم بن أبي بَزَّة قال: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقالت: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح (١).

فقولها: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع، {وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} أي: خلصني منه، فإني أبرأ [إليك] من عمله، {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها.(٢)

الدروس والعبر

أولا: أن الله تعالى اختارها هي والسيدة مريم عليها السلام لتكون آية في الإيمان والثبات أمام الفتن والمحن.

ثانيا: أن طاعة المطيع لا تنفع العاصي وإن كان أقرب الناس إليه إلا إذا كان العاصي له أساس من إيمان وتوحيد ففي هذه الحالة يشفع له المطيع كحال حامل القران والشهيد إما إن لم يكن له أساس من إيمان فلن تنفعه طاعة الطائع وهذا ما ذكره الله في قصة امرأة نوح وامرأة لوط – عليما الصلاة والسلام فطاعة نوح ولوط لم تنفع زوجتهما يقول الله

---

١ – تفسير الطبري (١١٠/٢٨)

٢ – تفسير ابن كثير – (٨ / ١٧٢)

تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)}

وأن عصيان العاصي لا يضر المطيع في شيء طالما انه بين له وأوضح له الصراط فلم يتبعه كما هو الحال في قصة آسية بنت مزاحم وكحال والد إبراهيم عليه ﷺ – حيث أن والده كان كافرا بالله فلم يضر ذلك إبراهيم ﷺ.

ثالثا: أن الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إليه عز وجل ومسألة الخلاص منه تعالى عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء، وهو في القرآن كثير، {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)}

وهذا كان دأب الأنبياء والصالحين أنهم يلجئون إلى الله تعالى عند الشدائد ويطلبون من الله تعالى النصر والمدد {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠)}

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)} [الأنفال/٩ ، ١٠].

رابعا: أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة لذا كان من فضائلها أنها اختارت القتل على الملك، وعذاب الدنيا على النعيم الذي كانت فيه –بعد أن خالط الإيمان قلبها.

خامسا: اختيار الدار قبل الجار.

موقف ماشطة ابنة فرعون-رضي الله عنها

عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة أسري به مر بريح طيبة فقال: (يا جبريل ما هذه الريح؟

قال: هذه ريح ماشطة بنت فرعون وأولادها بينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المدرى من يدها فقالت: بسم الله فقالت بنت فرعون: أبي؟

قالت: بل ربي وربك الله قالت: وإن لك ربا غير أبي؟

قالت: نعم الله قالت: فأخبر بذلك أبي؟

قالت: نعم فأخبرته فأرسل إليها فقال: ألك رب غيري؟

قالت: نعم ربي وربك الله فأمر بنقرة من نحاس فأحميت فقالت له: إن لي إليك حاجة.

قال: نعم قال: فجعل يلقي ولدها واحدا واحدا حتى انتهوا إلى ولد لها رضيع فقال: يا أمتاه اثبتي فإنك على الحق) (١)

يقول الشيخ علي القرني – حفظه الله –هاهو رسول الله ـ ﷺ ـ يخبر ليلة الإسراء فيقول: {فلما كانت الليلة التي أُسْرِيَ بي أتت علي رائحة طيِّبة، فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها}.

أتدرون ما خبر هذه المرأة؟ وما خبر هذه الماشطة؟

اسمعنَ إليها؛ فلعل فيها ما يثبِّت المرأة أمام شهواتها، وأمام رغباتها، والترغيب والترهيب عموماً.

هذه كانت تمشط بنت فرعون، وذات يوم من الأيام، وبينما هي تمشِّط بنت فرعون –وهو الذي يقول: أنا ربكم الأعلى–وإذا بالمِدْرَى يسقط من يديها –المشط أو المِفْرَق التي

---

١ – أخرجه ابن حبان في صحيحه ح ٢٩٠٣ وقال شعيب الارنؤوط : إسناده قوي و أخرجه الحاكم ح ٤١٦١و أبو يعلى ح ٢٥١٧ وقال **حسين سليم أسد** : إسناده صحيح الطبراني في الكبير ح ١٢٣٠٨

تفرق به الشعر يسقط من يديها-ويوم سقط من يديها قالت: باسم الله، وقد كانت تخفي إيمانها قبل ذلك، فقالت بنت فرعون: أبي؟

قالت: باسم الله ربي ورب أبيك وربك رب العالمين جميعًا، فقالت: إذاً أخبره بذلك.

قالت: افعلي.

فذهبت وأخبرت أباها، فجاء في تكبُّره وتجبُّره، ووقف عندها، وقال: أو إنَّ لك ربًا غيري؟ قالت: ربي وربك ورب الجميع رب العالمين سبحانه وبحمده، فاغتاظ، وقال: أما أنت بمنتهية؟ قالت: لا.

فقال: إذاً أعذب أو أقتل، قالت: {اقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}.

فانطلق يعذِّبها، أوتد يديْها ورجليْها، وصنف عليها أنواع العذاب، فكانت تمزج حلاوة إيمانها بمرارة العذاب، فتطفو حلاوة الإيمان على مرارة العذاب، فتشتاق وتقول: إنما هي ساعات، وإلى جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

يرسل عليها العقارب لتلسعها علَّه أن يصل إلى قلبها، ثم يقول: أما أنت بمنتهية؟ فتقول: ربي وربك الله رب العالمين، فيعود ليرسل عليها الحيَّات لتنهشها، ثم يقول: أما أنت بمنتهية؟ .

فتقول: ربي وربك الله رب العالمين.

ينوِّع عليها العذاب، ويصنف عليها ذلك، وهي راسخة بإيمانها وعقيدتها، قد علمت إنما هي سويعات، ثم تعود إلى الله عز وجل، فماذا حصل.

قال: إذاً أقتلك وأحرقك بالنَّار، قالت: {اقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}.

فأمر ببقرة من نحاس، قيل أنه قدِر على صورة بقرة، وقيل: إنها بقرة أُذِيبت، ثم جيء بها وبأولادها ليقفوا على طرف هذه النار، ثم يأخذ واحداً من أولادها، وقبل أن يأخذه قالت: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: أن تجمع عظامي مع عظام أولادي، ثم تدفننا في ثوب واحد، قال: ذلك لك علينا من الحق، ثم رمى الولد الأول فوقفت، فوقف أخوه الثاني وقال: اصبري يا أماه، فإن لك عند الله كذا وكذا إن صبرت، ثم رمى بالثاني، فقال

الثالث: اصبري يا أماه؛ فإن لك عند الله كذا وكذا إن صبرت، ويرمي بهم واحداً بعد الآخر، وهي تقول: ربي وربك الله رب العالمين.

لم يبقَ سوى طفل على ثديها رضيع لم ينطق بعد في شهوره الأولى، فما كان منها إلا أن ترددت أن تلقي بنفسها مع أولادها من أجل هذا الرضيع، ويشاء الله فيطلق الثدي وينطقه الله الذي تعبده؛ ربها ورب كل شيء، فيقول: يا أماه! اقتحمي؛ لَعذابُ الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فتقتحم مع طفلها لتلقى الله عز وجل.

راسخة ثابتة بإيمانها؛ فعليها رحمة الله ورضوانه.(١)

فاقتحمتْ المرأة مع أولادها النار، وهي تدعو اللَّه أن يتقبل منها إسلامها، فضَربتْ بذلك مثالاً طيبًا للمرأة المسلمة التي تعرف اللَّه حق معرفته، وتتمسك بدينها، وتصبر في سبيله، وتُمْتَحن بالإرهاب، فلا تخاف، وتبتلى بالعذاب فلا تهن أو تلين، وماتت ماشطة ابنة فرعون وأبناؤها شهداء في سبيل الله، بعدما ضربوا أروع مثال في التضحية والصبر والفداء.

* أن نار الدنيا أهون من نار الآخرة

* أن الإيمان إذا استقر في القلب لا يستطيع أن يزحزحه أي طغيان

*قدرة الله تعالى حيث انطق الطفل الرضيع ليثبت أقدام أمه

*أن الله تعالى ينزع الرحمة من قلوب الكافرين حتى أنهم لا يرحمون الأطفال الرضع الذين لا يملكون نفعا ولا ضرا

١ – محاضرة مكانة المرأة في الإسلام

****

موقف ابنتا شعيب من موسى عليه السلام

أحداث بين يدي القصة:

لما بلغ موسى عليه السلام مبلغ الرشد قيل الأربعين أعطاه حكما و علما يحكم بهم في الناس و يبن لهم أخرج آدم ابن أبي إياس بسنده الصحيح عن مجاهد قوله ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤] قال: الفقه والعقل والعمل قبل النبوة.

ففشى أمره بين أهل مصر فخافوا منه لأنه كان له شيعة من بني إسرائيل يناصرونه و يساندونه على قوله، ثم انه عاب على أهل مصر ما هم فيه من ضلال مبين فبلغ ذلك فرعون اللعين فصارت وحشة بينه و بين موسى .. وكان لا يدخ المدينة إلا متخفيا من فرعون وملائه أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا} قال: دخلها بعد ما بلغ أشده عند القائلة نصف النهار.

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) [القصص : ١٤]}

وفى يوم من الأيام، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد، دخل المدينة التي يسكنها فرعون وقومه: { على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا } أي : دخلها مستخفيا في وقت كان أهلها غافلين عما يجرى في مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم في بيوتهم في وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك .

{فَوَجَدَ} موسى {فِيهَا} أي في المدينة {رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ} أي: يتخاصمان ويتنازعان في أمر من الأمور.

{هذا مِن شِيعَتِهِ} أي : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته . أي: من بني إسرائيل : { وهذا مِنْ عَدُوِّهِ } أي : والرجل الثاني كان من أعدائه وهم القبط الذين كانوا يسيمون بني إسرائيل سوء العذاب .

{فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ} أي: فطلب الرجل الإسرائيلي من موسى، أن ينصره على الرجل القبطي.

والاستغاثة: طلب الغوث والنصرة، ولتضمنه معنى النصرة عدى بعلى.

{فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ} والفاء هنا فصيحة.

والوكز: الضرب بجميع الكف.

أي: فاستجاب موسى لمن استنصره به ، فوكز القبطي ، أي : فضربه بيده مضمومة أصابعها في صدره ، { فقضى عَلَيْهِ } أي : فقتله . وهو لا يريد قتله، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلي.

ولكن موسى –عليه السلام – بعد أن رأى القبطي جثة هامدة ، استرجع وندم ، وقال : { هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان } أي : قال موسى : هذا الذي فعلته وهو قتل القبطي ، من علم الشيطان ومن وسوسته ، ومن تزيينه .

{ إِنَّهُ } أي : الشيطان { عَدُوٌّ } للإنسان { مُّضِلٌّ } له عن طريق الحق { مُّبِينٌ } أى : ظاهر العداوة والإضلال .

ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع، ندما واستغفارا آخر فقال: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي فَغَفَرَ لَهُ} .

أي: قال موسى – عليه السلام – بعد قتله القبطي بدون قصد – مكررا الندم والاستغفار : يا رب إني ظلمت نفسي ، بتلك الضربة التي ترتب عليها الموت ، فاغفر لي ذنبي ، { فَغَفَرَ } الله – تعالى { لَهُ } ذنبه ، { إِنَّهُ } – سبحانه – { هُوَ الغفور الرحيم } ثم أكد موسى عليه السلام – للمرة الثالثة ، توبته إلى ربه ، وشكره إياه على نعمه ، فقال : { رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ } .

والظهير: المعين لغيره والناصر له، يقال: ظاهر فلان فلانا إذا أعانه، ويطلق على الواحد والجمع.

ومنه قوله –تعالى – : { وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } .

ثم بين –سبحانه –ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة فقال: {فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ} .

أي: واستمر موسى –عليه السلام –بعد قتله للقبطي، يساوره القلق، فأصبح يسير في طرقات المدينة التي حدث فيها القتل، {خَآئِفاً} من وقوع مكروه به {يَتَرَقَّبُ} ما سيسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات.

والتعبير بقوله {خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ} يشعر بشدة القلق النفسي الذي أصاب موسى –عليه السلام –في أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر – أيضا – بأنه – عليه السلام – لم يكن فى هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أو خففوا المسألة عليه .

و {إِذَا} في قوله –تعالى – {فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ } فجائية .

ويستصرخه: أي : يستغيث به ، مأخوذ من الصراخ وهو رفع الصوت ، لأن من عادة المستغيث بغيره أن يرفع صوته طالبا النجدو والعون .

أي: وبينما موسى على هذه الحالة من الخوف والترقب، فإذا بالشخص الإسرائيلي الذي نصره موسى بالأمس، يستغيث به مرة أخرى من قبطي آخر ويطلب منه أن يعينه عليه.

وهنا قال موسى -عليه السلام -لذلك الإسرائيلي المشاكس: { إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ } .

قال له موسى بحدة وغضب: إنك لضال بين الضلال ولجاهل واضح الجهالة، لأنك تسببت فى قتلى لرجل بالأمس ، وتريد أن تحملنى اليوم على أن أفعل ما فعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لا قدرة لك على منازعته أو مخاصمته .

ومع أن موسى -عليه السلام -قد قال للإسرائيلي {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} إلا أن همته العالية، وكراهيته للظلم، وطبيعته التي تأبى التخلي عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطي، ويحكى القرآن ذلك فيقول: {فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا} .

فحين هيأ موسى -عليه السلام -نفسه للبطش بالقبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، حيث لم يكن على دينهما.

{قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين} .

ويرى بعض المفسرين، أن القائل لموسى هذا القول، هو الإسرائيلي، الذي طلب من موسى النصرة والعون، وسبب قوله هذا: أنه توهم أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطي، عندما قال له: {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} .

فيكون المعنى: قال الإسرائيلي لموسى بخوف وفزع: يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا -هي نفس القبطي -بالأمس، وما تريد بفعلك هذا إلا أن تكوه { جَبَّاراً فِي الأرض } أي : ظالما قتالا للناس في الأرض ، { وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين } الذين يصلحون ، بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن

وقد رجح الإمام الرازي هذا الوجه الثاني فقال: والظاهر هذا الوجه، لأنه -تعالى -قال : { فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يا موسى } فهذا القول إذن منه - أي من القبطي - لا من غيره - وأيضا قوله : { إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض } لا يليق إلا بأن يكون قولا من كافر - وهو القبطي - .

و هنا بلغت الأخبار فرعون و جنده أن موسى قد قتل رجل من رجالات فرعون و عقد الاجتماع الطارئ ليقرروا فيه الحكم على موسى و قد قرر المتآمرين قتل موسى عليه السلام و إن من بين هؤلاء الجالسين رجل من أشياع موسى من سمع كلامهم حتى خرج يسعى لا يلوي على شيء إلا أن يصل إلى موسى ليخبره بما قرروا { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)}

يقول السعدي-رحمه الله-وقيض اللّه ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رَأْيُ ملئهم. قال: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} أي: ركضا على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به، قبل أن يشعر، فـ {قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ} أي: يتشاورون فيك {لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ} عن المدينة {إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} فامتثل نصحه.

{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} أن يوقع به القتل، ودعا اللّه، و {قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبا من غير قصد منه للقتل، فَتَوَعُّدُهُمْ له ظلم منهم وجراءة. (١)

دروس وعبر من قصة موسى مع القبطي وخروجه من مصر

في هذا المشهد القرآني الذي قص علينا نبا موسى وقصته مع القبطي والتآمر الفرعوني دروس لابد أن نتزود بها في هذه الحياة منها:

---

١ - تفسير السعدي -(١ / ٦١٣)

الأول: إكرام الله تعالى أوليائه وإتمام النعمة عليهم وذلك أن موسى لما بلغ أشده منحه الله العلم والحكم

ثانيا: نصر المظلوم واجب على أهل الإيمان و القدرة على التغيير فموس لما رأى ظلم القبطي لمن هو من شيعته انتصر له و لم يسكت على ذلك الظلم الواضح و ذلك من باب الحديث النبوي الشريف عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره قال تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره)[1]

ثالثا: المبادرة إلى التوبة وعدم التسويف فيها يوجب مغفرة الذنوب وينال بها العبد رحمة علام الغيوب {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)}

رابعا: الخوف الجبلي لا ينافي الإيمان بالله تعالى فموسى عليه السلام أخبر الله عنه بقوله {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}

[1] – أخرجه أحمد (ح: ١١٩٦٧) والبخاري (ح: ٦٩٥٢)

قصة موسى عليه السلام وابنتي شعيب

يقول ابن مسعود: أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلاَثَةٌ: أَبُو بَكْرٍ حِين تَفَرَّسَ فِي عُمَرَ فَاسْتَخْلَفَهُ، وَالَّتِي، قَالَتْ:{ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْت الْقَوِيُّ الأَمِينُ} وَالْعَزِيزُ حِينَ، قَالَ لِامْرَأَتِهِ: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ. (١)

قال الله تعالى قاصا علينا نبأ موسى عليه السلام و ابنتي شعيب وشعيب : {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) [القصص : ٢٢ – ٢٨]

يقول الشيخ –سعيد عبد العظيم – حفظه الله– فقد خرج نبي الله موسي – عليه السلام – من مصر خائفاً يترقب ، خوف تمهدت أسبابه ، فلم يكن جنباً مذموماً ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص : ٢٣) فذكرتا السبب الذي لأجله خرجتا ، فلابد من السقيا ، والأب كبير السن لا يقوي على ذلك ، وعلى

---

١ – ابن أبي شيبة برقم(٣٧٠٥٩) وهو صحيح

الرغم من ذلك ، فقد تباعدتا عن مكان السقاة ، وذلك لأن المرأة لا ينبغي أن تكون خراجة ولاجة ، وإذا إحتاجت للخروج لا بد من التأدب بالآداب الشرعية ، والتباعد عن مواطن التهم والرب والشكوك ، والنصوص فى حقها تأمرها بالصبانة والتحفظ و التحجب والتستر ، قال تعالي ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ الأحزاب : ٣٣ وقال ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ " الأحزاب : ٥٣ " وقال ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ الأحزاب : 32 وقال ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ " النور: ٣١ " وقالي تعالي مخاطباً نبيه الكريم والأمة فى شخصه الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ " الأحزاب : ٥٩" وضح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : " و المرأة راعية فى بيت زوجها و مسئولة عن رعيتها " فحدد بذلك مكانها ، فإذا احتاجت للخروج فعليها أن تأخذ حواف الطريق ، و تغض بصرها ، و ترتدى زيها الشرعى بحيث يضرب من الرأس حتى القدم ، و يكون فضفا ضا غير ضيق لا يصف حجم العظام ولا يشف ما تحته من البدن و ولا يكون ثوب شهرة ولا زينة ولا يشابه زى الرجال ولا زى الكافرات ، و المرأة لا تختلط بالرجال حتى في أماكن العبادة ، فهي تطوف بالكعبة من خلف صفوف الرجال ، و خير صفوف الرجال أولها و شرها أخرها ، و خير صفوف النساء أخرها و شرها أولها و ذلك في الصلاة فالمباعدة بين الرجال و النساء من جملة المطالب الشرعية التي ينبغي أن نحافظ عليها في دور العلم ووسائل المواصلات .... و هي لمصلحة الرجال و النساء ، إذ أن النبي ـ ﷺ ـ ما ترك فتنة أضر على الرجال من النساء ، و ثبت الخبر أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء

ويحكي لنا القرآن ما كان من نبي الله موسي – عليه السلام ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء

قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ القصص ٢٤ : ٢٥ مروءة وشهامة ورجولة من نبي الله موسي ، وما ضاع العبد ولا خاب بطاعة الله ، فقد تمت المصلحة ، وقضي الأمر ، دون مخالفة ، سقي الله لهما نبي الله موسي ،ثم أوجع حاجته لله ﴿ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ استشعر فقره ، واشتكى حاله لخالقه ومولاه وهو الغني الحميد ، الذي يجبر الكسر ويرحم الكسر ويقيل العثرات ويكشف الكربات ويقضي الحاجات ، والإنسان لا يحتاج فقط لمطعم وملبس ومشرب ومسكن ، فقد ابتلي بشهوة و غريزة يحتاج إلى تصريفها في الحلال ، الرجل بحاجة لزوجه يسكن إليها لتعينه على نوائب الحق ، والمرأة بحاجة لزوج تأنس به ليكون عونـًا لها على طاعة الله ، وحوائجنا

وسواء امتلك العبد معونة الزواج أو افتقدها فعليه أن يصنع صنيع نبي الله موسي ، ويظهر فقره وضعفه إلى الله فمن الثلاثة الذين يعينهم الله ، الناكح يبتغي العفاف ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه . يقول" عجبـًا لمن لم يلتمس الغني في النكاح والله يقول ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ النور : ٣٢

وانظروا لقيمة الدعاء في جلب الخيرات وتحقيق المطلوبات فما كاد نبي الله موسي يفرغ من قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ قص نبي الله موسي على شعيب والد الفتاتين ، ما كان منه بمصر فقال ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فقالت احدي الفتاتين ، ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ عرض الرجل موليته أو إبنته على من يتوسم فيه الصلاح . وهو سنة الصالحين، وقد عرض عمر غبنته على أبي بكر و عثمان – رضي الله عنهم أجمعين – ولا بد من التدقيق في من يقع عليه، إختيارنا ، فالنكاح قد (

أسر) كما قالت أم المؤمنين عائشة : " فالينظر أحدكم عند من يسترق كريمته " ، ولما سأل الحسن من أزوج إبنتي ؟ ،

قال زوجها التقي النقي، فانه إن أحبها أكرمها إن أبغضها لم يهنها " والكفاءة في الرجل معتبرة للصلاح والحرص على طاعة الله، وقد أدخل جمهور العلماء، النسب والحرفة والغني والسلامة من العيوب ..... إن قوامة الرجل على المرأة ليس معناها التسلط والقهر، بقدر ما هي قوامة شفقة ورحمة وقيام على مصلحة المرأة. لقد وقع اختيار الفتاة على القوي الأمين، هو أحد أولي العزم من الرسل، واستن شعيب بسنة الصالحين، فمثل نبي الله موسي لا يفرط فيه حتى وإن كان فقيراً، فكان العرض، الذي لاقي قبولاً وإرتياحاً من نبي الله موسي، فلا كبر ولا عجب ولا غرور، كما يفعل بعض من لا تقوي عنده، إذا تم عرض الابن عليه، وشأن المرأة أن تكون مطلوبة، فلا بد من المحافظة على هذا الأمر أثناء العرض أو التوفيق في الزواج، والمرأة لا تستكره على الزواج ممن لا تحب،

دروس وعبر من قصة ابنتي شعيب

* الفزع إلى الله عند الخوف من مكائد الأعداء {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)}

* المروءة صفة من صفات الأنبياء والأولياء والصالحين فسيدنا موسى عليه السلام لما نظر إلى أحوال القوم وما هم عليه من لؤم وقلة في المروءة حيث أنهم يتزاحمون على البئر ولا يفسحون المجال لهاتين المرأتين قام هو بنفسه وهو الغريب الذي لا يعرفه أحد فسقى لهما

أخرج عبد الرزاق بسنده الصحيح عن قتادة في قوله (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) قال: بلغنا أن قوته كانت سرعة ما أروى غنمهما. قال: بلغنا أنه ملأ الحوض بدلو واحدة. قال: وأما أمانته فإنه أمرها أن تمشي خلفه. (١)

١ – الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور – (٤ / ٤٩)

* الأصل مكث المرأة في البيت لأن المهمة الربانية التي من أجلها خلق الله المرة طاعته ولا تكون طاعته سبحانه إلا بتنفيذ أوامره والبعد عن مساخطه، فإذا دعت الحاجة المرأة إلى الخروج إلى العمل فلا بأس بذلك ولكن ذلك يكون وفوقا للضوابط الشرعية والسنن المرعية

يقول الشعراوي – رحمه الله ـ في هذه القصة أحكام ثلاثة {لاَ نَسْقِي حَتَّىا يُصْدِرَ الرِّعَآءُ }[القصص: ٢٣] أعطَتْ حكماً و{ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ }[القصص: ٢٣] أعطتْ حُكْماً و { فَسَقَىا لَهُمَا } [القصص: ٢٤] أعطت حكماً ثالثاً.

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل، فمن الحكم الأول نعلم أن سَقْي الأنعام من عمل الرجال، ومن الحكم الثاني نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة، ولا تؤدي مهمة الرجال إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} [القصص: ٢٣].

أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنساني إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلا بد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها.

وفي قوله تعالى: {لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَآءُ} [القصص: ٢٣] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل، وتوفرْت[١] لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها، فلا تختلط بالرجال، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم.([٢])

* حياء ابنة شعيب – فالحياء صفة من صفات المؤمنين والمؤمنات و هو شعبة من شعب

[١] – تفسير الشعراوي – (/ ٣٢٠٤)

[٢] – تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٩٠٤)

إن الحياء والإيمان في قرن واحد إذا نزع أحدهما تبعه الآخر. رأى النبي رجلا يعاتب أخاه في الحياء فقال عليه الصلاة والسلام: ((دعه فإن الحياء من الإيمان))[1]

وعمر رضي الله عنه يقول: (من استحيا اختفى، ومن اختفى اتقى، ومن اتقى وقي).

ويقول بعض السلف: (خف الله على قدر قدرته عليك واستح منه على قدر قربه منك).

وقد أمر النبي أصحابه أن يستحيوا من الله حق الحياء فقالوا: يا رسول الله إنا نستحي من الله حق الحياء قال : ((ليس ذلك؛ الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، من فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء))[2]

فتأمل إلى حال ابنة شعيب رضي الله عنها كيف كانت شديدة الحياء فعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال جاءت مستترة بكم درعها على وجهها وأخرج ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه وفي رفعه إلى عمر رواية أخرى صححها الحاكم بلفظ واضعة ثوبها على وجهها

* الفرج بعد الشدة: {فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا} أي لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر، مستحيية، متخمرة بخمارها، ساترة وجهها بثوبها، ليست جريئة على الرجال، فقالت في أدب وحياء وخفر: إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا.

---

[1] – أخرجه البخاري (١/٩٣–ح٢٤) واللفظ له، ومسلم (١/٦٣–ح٣٦).

[2] – أخرجه أحمد (١/٣٨٧)، والترمذي (٤/٥٥٠–ح٢٤٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١٤٢–ح٧٧٣٠)، والحاكم (٤/٣٢٣) وقال : حديث صحيح ووافقه الذهبي.

واختلف العلماء في تعيين الأب من هو، والجمهور-أو المشهور عند كثير من العلماء- على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهما ابنتاه «[1]» وليس في ذلك شيء يأباه الدين كما قال الرازي.

وقد أجابها موسى عليه السلام للتبرك بالشيخ، لا طلبا للأجرة، روي أنها لما قالت لِيَجْزِيَكَ كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا، ولا نأخذ على المعروف ثمنا، حتى قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. هذا فضلا عن أن الضرورات تبيح المحظورات.

وتبع موسى المرأة إلى منزل أبيها، وطلب منها أن تسير خلفه كيلا ينظر إليها، وأن ترشده إلى الطريق، وهي خلفه، وهذا من أدب الرجال الذين أعدهم اللّه للنبوة.)[2]

٧-جواز عرض الولي ابنته على الرجل الصالح قوله تعالى:{ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ } وهذه سنة شائعة قديمة، فقد عرض صالح دين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الواهبة نفسها على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقدبوب البخاري" باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير"

عن سالم عن بن عمر عن عمر قال : تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس أو حذيفة بن حذافة شك عبد الرزاق وكان من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ممن شهد بدرا رضي الله عنه فتوفي بالمدينة قال فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقلت إن شئت أنكحتك حفصة قال سأنظر في ذلك فلبثت ليالي فلقيني فقال ما أريد أن أتزوج يومي هذا قال عمر فلقيت أبا بكر رضي الله عنه فقلت إن شئت أنكحتك حفصة ابنة عمر فلم يرجع إلي شيئا فكنت أوجد عليه مني علي عثمان فلبثت ليالي فخطبها إلي رسول الله ـ ﷺ ـ فأنكحتها إياه فلقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئا قال قلت نعم قال فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك شيئا حين عرضتها علي

[1] – البحر المحيط: ٧/ ١١٤، تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٨٤

[2] – التفسير المنير للزحيلي – (٢٠ / ٨٤)

إلا أني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يذكرها ولم أكن لأفشي سر رسول الله ـ ﷺ ـ ولو تركها لنكحتها(١)

يقول ابن بطال – رحمه الله –أن من عرض عليه ما فيه الرغبة فله النظر والاختيار، وعليه أن يخبر بعد ذلك بما عنده؛ لئلا يمنعها من غيره؛ لقول عثمان بعد ليال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا.(٢)

* الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل في الدّين والمال والحسب أو في بعض ذلك؟ والصحيح لدى المالكية جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات، لقوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات ٤٩/ ١٣] .

وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا، فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه، ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك.

امرأة عمران رضي الله عنها

أخي المسلم .. أختي المسلم : إن من المواقف الحاسمة التي سجلها القران الكريم بحروف من نور موقف أم مريم – رضي الله عنها – يقول الله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) [آل عمران : ٣٣ – ٣٧]}

من هو عمران؟

يقول الخازن – رحمه الله–(١)واختلفوا في عمران هذا فقيل : هو عمران بن هو يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وهو والد موسى وهارون فيكون آل عمران موسى وهارون أو

---

١ –أخرجه أحمد ح٤٧ و البخاري ح ٤٠٠٥

٢ – شرح ابن بطال – (١٣ / ٢٢٦)

نفسه ، وقيل : هو عمران بن آشيم بن آمون وقيل : ابن ماتان وهو من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وعمران هذا هو والد مريم وابنها عيسى

وقيل هو عمران بن ياشم، ابن ميشا بن حزقيا بن إبراهيم، وينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام. فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم.

فعلى هذا يكون المراد بآل عمران مريم وابنها عيسى عليه السلام ، وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم { عَلَى الْعَالَمِينَ } أي اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم من النبوة والرسالة.

التعريف بامرأة عمران: وهي أم مريم واسمها حنّة بنت فاقود ، وكانت عاقرا لم تلد، واشتاقت للولد، فدعت اللّه تعالى أن يهبها ولدا، فاستجاب اللّه دعاءها.

و لقد اخبرنا سبحانه و تعالى عن موقف هذه السيدة الفاضلة حيث أنها كانت لا تلد فشاءة قدرة الله تعالى أن تحمل فلما حملت و أحست بالجنين في بطنها نذر ما في بطنها أن يكون محررا لخدمت بيت المقدس و هكذا تكون النية الصالحة في إنجاب الذرية لم ترد أن يكون لها ابنا ليحمل اسمها و اسم العائلة و لا يكون مهندسا لا يعرف عن دينه و دعوته شيء و همه أن ينال الشهادة و المنصب ثم هو لا يعرف عن الشهادة التي بها قامت السموات و الأرض شيء لا يعرف الشهادة التي بها ينال السعادة في الدنيا و الآخرة إنها شهادة أن لا اله إلا الله محمدا رسول الله ، فهم يملئون الأرض من كثرتهم ولا يغنون عن أمر جلل ، فنشا جيل مسخ إمعة لا يعرف معروفا و لا ينكر منكرا ، فالناظر إلى الأمة الإسلامية يجد أنها بلغت و ناهزت المليار و نصف و لكنها ما زالت ترزح تحت والذل و الاستعباد للعالم الغربي حالهم كما قال رسول الله – ﷺ –: ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن

---

[1] – تفسير الخازن – (١ / ٣٦١)

الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت))[1]

أين امرأة عمران لترى المسجد الذي وهبة له ما في بطنها تغتصبه الأيدي الآثمة و تحاول هدمه على مرأى و مسمع العالم الإسلامي كله

يا ويحكم يا مسلمون مآذني تهوي وبيتُ مؤذني ينهارُ

ويئنُ محرابي على أنقاضه ويموتُ تحتَ ركامي الأخيارُ

سكت الأذانُ فما سمعتُ مؤذني تزكوا بروعةِ صوتِه الأسحارُ

يا ويحكم يا مسلمون قلوبُكم جمدت فليست بالخطوبِ تثارُ

أنا مسجدُ لله مرَ بساحتي دهرٌ طويلُ وانطوت أعمارُ

كم زارني التاريخُ زورتَ عاشقٍ ولكم تجمع عندي الأخيارُ

بالأمسِ تمتلئُ القلوبُ مهابةً مني وتشرحُ صدري الأذكارُ

ويرتلُ القرآنُ بين جوانحي فجوانحي بهدى الكتابِ تنارُ

واليومَ تهدمني معاولُ غادرٍ ويميتُني رشّاشُه المهدارُ

واليومَ تطلبني العيونُ فما ترى إلا الركامَ يطيرُ منه غبارُ

هجموا عليَ وفي القلوبِ ضغائنٌ مثل الكلابِ أصابهنَ سُعارُ

أصبحتُ موطئ من يمرُ ولم تكن بالأمسِ تبلغُ هامتي الأنظارُ

كم مسجدٍ غيري أبيحَ وقارُه ولكم أبيحَ من الشيوخِ وقارُ

هذا هو الأقصى يهودُ جهرةً وببأسهِ تتحدثُ الأخبارُ

ملياركم لا خير فيه كأنما كتبت وراء الواحدِ الأصفارُ

ما جرأ الهندُوسَ إلا صمتُكم ولكم يذلُ بصمته المغوارُ

---

[1] – أخرجه أبو داود ح ٤٢٩٧ و البغوي في شرح السنة ح ٤٢٢٤ و قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ٢ / ٦٨٤ :أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) و الروياني في " مسنده " (٢٥ / ١٣٤ / ٢) و ابن عساكر في " تاريخ دمشق " (٨ / ٩٧ / ٢) عن ثوبان

نعود إلى الهم الذي تحمله أم مريم عليها سلام يقول الله تعالى {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) [آل عمران: ٣٥، ٣٦]}

يقول سيد قطب –رحمه الله–وقصة النذر تكشف لنا عن قلب «امرأة عمران» – أم مريم – وما يعمره من إيمان ، ومن توجه إلى ربها بأعز ما تملك . وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربها، محرراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه، والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موح، فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله كله، ويفر إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده.

فهذا هو التحرر إذن. .... وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية!

ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر.

فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة..... لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله.

وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله ، وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان . .

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربها منها نذرها –وهو فلذة كبدها –ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه: {عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} . .

ولكنها وضعتها أنثى؛ ولم تضعها ذكراً!

{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) } . .

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل. ولكن ها هي ذي تجدها أنثى. فتتوجه إلى ربها في نغمة أسيفة :{ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى } . .{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } . ... ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنها تعتذر إن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة.

{و لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} . . ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} . .. وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة .

مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه .

يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً.

وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم.

حال الود والقرب والمباشرة، والمناجاة البسيطة العبارة، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد.

مناجاة من يحس أنه يحدث قريباً وديداً سميعاً مجيباً.

{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} .

وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم. .... وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص.

فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم!

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[آل عمران: ٣٧] .

جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر. ... وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح، وكلمة الله، وأن تلد عيسى -عليه السلام -على غير مثال من ولادة البشر.) (١)

---

١ – في ظلال القرآن – (١ / ٣٦٢)

ولقد تقبل الله تعالى منها نذرها ةو حفظها وذريتها من الشيطان الرجيم فعن أبي هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها (١) فتقبل اللّه مريم من أمها بأبلغ قبول حسن، ورضي أن تكون محررة خالصة للعبادة وخدمة البيت على صغرها وأنوثتها، ورباها ونماها بما يصلح أحوالها تربية عالية تشمل الجسد والروح، كما يربى النبات في الأرض الصالحة بعد تعهد الزارع إياه بالسقي والتسميد والعزق وقلع الأعشاب الضارة من حوله.

الدروس والعبر من قصة امرأة عمران – رضي الله عنها

الدرس والأول: النية في إنجاب الذرية.

يقول أبو إسحاق الحويني –رحمه الله–لماذا نتزوج؟

لو سألت هذا السؤال أي رجل، فإنه لا يجيبك على الفور، إنما يتريث ويفكر قليلاً، فهذا التريث يدل على أنه لم يتزوج لهدف، وإنما تزوج لأن أمه تريد أن تفرح به، وأبوه يريد أحفاداً، أو يريد أن يورث الأولاد، أو يريد أن يخلِّد اسمه، وهذه المسألة تجد للناس فيها مذاهب، لكن أصل الزواج كله قائم على ما ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: (إني لأكره نفسي على إتيان المرأة، رجاء أن يخرج الله من صلبي نسمة توحده)(٢)هذه هي الغاية من إقامة البيت المسلم.

إذاً: الغاية هي توحيد الله عز وجل، لا يكون من نسلك رجل فاسق ولا فاجر: (إني لأكره نفسي على إتيان المرأة، رجاء أن يخرج الله من صلبي نسمة توحده) هذه هي الغاية، والله تبارك وتعالى لما ذكر طلاق المرأة للمرة الثالثة قال: { فَإِنْ طَلَّقَهَا } [البقرة:٢٣٠]يعني: للمرة الثالثة، { فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ } [البقرة:٢٣٠]، حسن! { فَإِنْ طَلَّقَهَا } [البقرة:٢٣٠]، يعني: الزوج الثاني، وأراد الزوج الأول أن يردها إلى عصمته: { فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } [البقرة:٢٣٠]، إذاً: الغاية من

---

١ – أخرجه مسلم ح ٢٣٦٦ و ابن حبان ح ٦٢٣٤

٢ – «أخرجه البيهقى (٧٩/٧) .» بلفظ («وَاللهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ نَفْسِي عَلَى الْجِمَاعِ؛ رَجَاءَ أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنِّي نَسَمَةً تُسَبِّحُ اللهَ»

إقامة البيت المسلم هو إقامة حدود الله عز وجل، فالبيوت التي تسودها الفوضى لا قيمة لها: { إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } [البقرة:٢٣٠]، إذا كان الهدف المراجعة، فلأن يكون في إقامة الحدود من باب أولى.

رجل يتزوج بامرأة لماذا؟ ليقيما حدود الله، هذه هي الغاية من إقامة البيوت، ولقد ذهب الشرع مذهبًا عظيمًا في سبيل هذا الاصطلاح، فحض على اختيار المرأة؛ لأن المرأة كالأرض، فالأرض البوار ثمنها رخيص، والأرض التي تزرع ثمنها غال.

إذاً: عندما تنظر إلى المجتمع الذي تعيش فيه المرأة، إذا خرجت من بيتٍ ملتزم فإنها توزن بالذهب، لا تستكثر من أجل الحصول عليها كل غالٍ ونفيس، فهذه هي الأرض الخصبة.(١)

و تأمل في حال نبي الله سليمان لما أراد أن يطوف عل مائة امرأة ليس لشهوة عابرة و إنما أرد بذلك أن ينجب رجالا يحملوا همَّ الإسلام هريرة رضي الله عنه، وهو في صحيحي البخاري ومسلم قال ـ ﷺ ـ: (قال سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو قال على تسع وتسعين امرأة، كلهن تلد غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه قل: إن شاء الله، فلم يقلها، فلم تلد واحدة منهن أحداً إلا امرأة واحدة ولدت نصف إنسان، قال النبي ـ ﷺ ـ: أما لو استثنى -يعني لو قال: إن شاء الله- لولدت كلهن فارسًا يقاتل في سبيل الله، وكان أدعى لحاجته)(٢)

فقد بوب عليه البخاري باب فقال {باب من طلب الولد للجهاد}

قال المهلب: في هذا الحديث حض على الولد بنية الجهاد في سبيل الله، وقد يكون الولد بخلاف ما أمله فيه، فيكون كافرًا، ولكن قد تم له الأجر في نيته وعمله. (٣)

---

١ – من محاضرة الغاية من إقامة البيت المسلم

٢ –– أخرجه احمد ح ٧٧٠١ و أخرجه البخاري ٥٢٤٢ ومسلم ١٦٥٤

٣ – شرح ابن بطال – (٩ / ٣٨)

الدرس الثاني: حمل هم الدين والدعوة وإقامة شعائر الله تعالى فقد كان الشاغل الذي يشغل قلبها خدمة بيت المقدس والقيام عليه

والحديث عن حمل هم الإسلام يتطلب منا التأكيد على أمرين مهمين:

أولهما: أن هذا الهم أمرٌ تعبدي تؤجر عليه كما تؤجر على الفرح لنصر الدين وتمكينه روى البخاري عن أنس ومسلم عن جابر قال رسول الله ـ ﷺ ـ " إن بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر "[1]

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على همٍ نكابده ومن أقام على همٍ كمن راح

[1] – «أخرجه البخاري (٢٨٣٨)، وأحمد (١٢٠٢٨).»

مواقف حاسمة من تاريخ السيدة العذراء مريم عليها السلام

أنزل الله ملائكة يقولون لها: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٤٢].}

ويقول عنها رسول الله ـ ﷺ ـ:" خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بنتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بنتُ مُزَاحِمٍ، وَخَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بنتُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلامُ. (١) ".

العناية الربانية

ولقد نالت السيدة البتول من العناية الربانية ما جعلها له سبحانه وتعالى ذاكرة و بطاعته قائمة و ألقى الله عليها القبول {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)}

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الصحيح عن شيبان عن قتادة: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) قال حُدثنا أنهما كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها بنو آدم.

يقول ابن كثير رحمه الله-يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} أي: جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا، ويَسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين. ولهذا قال: {وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا} وفي قراءة: {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية، أي جعله كافلا لها.

قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سَنَةُ جَدْب، فكفل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين. والله أعلم.

---

١ «أخرجه أبو يعلى في المسند ٥/ ٣٨٠ برقم (٣٠٣٩) – وهناك استوفينا تخريجه– وابن عساكر– تراجم النساء– ص (٣٧٦) و (٣٧٧). وانظر "جامع الأصول" ٩/ ١٢٤، وكنز العمال ١٢/ ١٤٣ – ١٤٤.».

وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعًا وعملا صالحًا؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير [وغيرهما] وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: "فإذا بِيحيى وعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ"، وقد يُطْلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا تَوسُّعا، (١)

يقول ابن كثير –رحمه الله –ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا } قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخَعيّ، والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية العَوْفي، والسُّدِّي [والشعبي] يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وعن مجاهد {وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} أي: علما، أو قال: صحفًا فيها علم. رواه ابن أبي حاتم، والأول أصح، وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. (٢)

يقول القشيري –رحمه الله–مِنْ إمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب –فذلك عَبْدٌ عزيز.

ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشُغْلُها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقًا لِيَعْلَمَ العاملون أن الله –سبحانه –لا يُلْقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم وليًا من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء. وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء.

ثم كان زكريا عليه السلام يقول: {أَنَّى لَكِ هَذَا}؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شُغْلها، فكان يسأل ويقول: {أَنَّى لَكِ هَذَا} ومن أتاكِ به؟

---

١ – تفسير ابن كثير – (٢ / ٣٥)

٢ – تفسير ابن كثير – (٢ / ٣٦)

وكانت مريم تقول: هو من عند الله لا من عند مخلوق، فيكون لزكريا فيه راحتان: إحداهما شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها، ولم يسبق به.(١)

موقفها من دخول الملك عليها

البشارة بمولود لا أب له: وها هو المولى سبحانه يصف لنا حالها معه إذ أنها نفردت عن قومها وجعلت بينها وبينهم حجابا زيادة في الستر والعفاف {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)

أخي المسلم بينا السيدة الفاضلة في خلوة مع ربها عز وجل مستغرقة في الذكر والابتهال اذ بشخص يقتحم عليها تلك الخلوة وهي التي لم يدخل عليها أحد من الرجال الأجانب قط عند لجأت إلى الله تعالى وطلبت العون والممد ممن هي وقف عليه فقالت {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ} انه سبحانه ملاذ أوليائه عند الشدائد فهي تركن إلى ركن شديد {إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}

وللإمام الرازي – رحمه الله – في تفسير " إن كنت تقيا " ثلاثة وجوه يقول رحمه الله – وفيه وجوه:

أحدها: أرادت أن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله: {وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [البقرة: ٢٧٨] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال.

---

١ – تفسير القشيري – (١ / ٣٠٧)

وثانيها: أن معناه ما كنت تقياً حيث استحللت النظر إلي وخلوت بي.

وثالثها؛ أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى والأول هو الوجه. (١)

يقول السعدي – رحمه الله– { فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا } أي: سترا ومانعا، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } وقوله { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } وهو جبريل عليه السلام { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } أي كاملا من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه فلما رأته في هذه الحال وهي معتزلة عن أهلها منفردة عن الناس قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها خافت أن يكون رجلا قد تعرض لها بسوء وطمع فيها فاعتصمت بربها واستعاذت منه فقالت له { إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ } أي ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء { إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } أي إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها وإنما ذلك خوف منها وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه

وهذه العفة –خصوصا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع –من أفضل الأعمال

ولذلك أثنى الله عليها فقال {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}

فأعاضها الله بعفتها ولدا من آيات الله ورسولا من رسله) (٢)

---

١ – تفسير الرازي –(١٠ / ٢٨٤).

٢ – تفسير السعدي – (١ / ٤٩١)

إنها قد بلغت منزلة عالية في العبادة والتقوى والخوف من الله سبحانه وتعالى فهي الحصان الرزان التي لا تظن بريبة.

فلما رأى الملك ذلك منها و رأى الخوف باد عليها اخبرها بأنه ليس بشرا و إنما هو ملك كريم أرسله الله لها لأمر معجز ألا هو انه جاء ليبشرها بغلام ذلك الغلام ليس كأي غلام و ليس كأي بشر حيث انه سيولد من دون أب { إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩)} و في دهش و استغراب قالت السيدة البتول { قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)} المعهود لدى البشرية من لدن ادم عليه السلام أن يولد الطفل بعد التقاء ذكر و أنثى

يقول الشعراوي – رحمه الله–وقوله: {يَمْسَسْنِي} [مريم: ٢٠] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} [مريم: ٢٠] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل: الوسيلة الأولى: هي الزواج الشرعي الذي شرعه الله لعباده للتكاثر وحِفْظ النسل، وهو إيجاب وقبول، وعقد وشهادة، وهذا هو المسّ الحلال.

الوسيلة الثانية: أنْ يتم هذه اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْبًا عنها. وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} [مريم: ٢٠] لا في الحلال، ولا في الحرام، وأنا بذاتي {لَمْ أَكُ بَغِيًّا} [مريم: ٢٠] إذن: فمن أين لي بالغلام؟ (١)

و أمام ذلك الاستغراب و أمام تلك الدهشة أخبرها جبريل عليه السلام – بأن الأمر ليس بعجيب و ليس بصعب أمام قدرة الله تعالى و إنما هو مر هين على الله تعالى و هو سبحانه أراد ذلك ليكون هذا الغلام آية دالة على قدرة الله و هو كذلك رحمة للناس من حيث انه يأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية و يحذرهم من خطر الغواية يقول الله تعالى { قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) }

(١) – تفسير الشعراوي – (/ ٢٢٥٤)

فهو آية من حيث من كونه ولادته من غير زواج وأشار إلى كونه آية أيضا في «الأنبياء» بقوله: وجعلناها وابنها آية للعالمين [٢١ \ ٩١] ، وفي «الفلاح» بقوله : وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الآية [٢٣}

يقول ابن كثير – رحمه الله-{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ } أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع (١٠) في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.(١)

وفي آيات أخرى يبن الله تعالى لها كيف أنه سيكون آية وعلامة على قدرة الله تعالى وذلك مما يخفف عنها هذا الأمر ويجعلها تقر عينا بما قضاه الله وقدره عليها {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} آل عمران ٤٥ ،٤٦].

يقول السعدي رحمه الله- يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمى روح الله { وجيها في الدنيا والآخرة } أي: له الوجاهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيها عند الله يشفع أسوة

(١) – تفسير ابن كثير – (٥ / ٢٢٠)

إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين.

{ويكلم الناس في المهد وكهلا} وهذا غير التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به {ومن الصالحين} أي: يمن عليه بالصلاح، من منَّ عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام.

ولتعلمي أيضا أن هذا هو قضاء الله تعالى الذي لا مر له ولا مفر منه.

من الحمل حتى الولادة

ثم إن جبريل عليه السلام نفخ في كماه فوصلت إلى الرحم فعن وهب بن منبه قال: لما أرسل الله جبريل إلى مريم تمثَّل لها بشرا سويا فقالت له:(إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت.

عن وهب بن منبه اليماني، قال: لما قال ذلك، يعني لما قال جبريل (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ).... الآية استسلمت لأمر الله، فنفخ في جيبها ثم انصرف عنها. (١)

{فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)}

يقول ابن كثير –رحمه الله –يقول تعالى مخبرًا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك –وهو جبريل عليه السلام–عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعًا به ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا عليه السلام، كان قد سأل الله الولد،

---

١ – تفسير الطبري – (١٨ / ١٦٦)

فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضًا أني حبلى؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذي في جوفها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعًا، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، عليه السلام، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلا لتعظيم جلال الرب تعالى.)([1])

مدت الحمل:

ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر -قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جُرَيْج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت.

وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [المؤمنون: ١٢ -١٤] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يومًا وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً } [الحج : ٦٣] فالمشهور الظاهر -والله على كل شيء قدير-أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمّل ما

[1] - تفسير ابن كثير - (٥ / ٢٢١)

هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حبّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم -فهمت ما أشار إليه-أما قولك: "هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟" فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر "وهل خلق يكون من غير أب؟"

فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلَّم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكانًا قصيًّا، أي: قاصيًا منهم بعيدًا عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فَطَرَ لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: "إنما صاحبها يوسف"، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجابًا، فلا يراها أحد ولا تراه. (١)

إن من اشد الأمور التي لا تحتملها الطاهرات العفيفات أن ترمى في عفتها و أن يشاع عنها الريبة فالموت لها خير من البقاء إذ أن اعز ما تملك الحرة المؤمنة عفتها و طهارتها ، فلما شاع الخبر في بني إسرائيل و أخذت نفوس المرضى تفري في عرض السيدة الطاهرة اعتزلتهم و اتخذت مكانا قصيا حتى لا تسمع ما يجرح عفافها ومرت الأيام و حان وقت الولادة و جاء فرج الرب الكريم ليكشف عنها السوء و ليبرئها عما قاله الظالمون و عما اختلقه الكاذبون { فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣)}

---

١ – تفسير ابن كثير – (٥ / ٢٢٢)

ها هي مريم عليها السلام قد جاءها المخاض وها هي تعاني ما تعانيه المرأة عند الولاة وفي هذا اللحظات التي ترهق فيها المرأة تمنت أنها لم تكن شيئا وودت أنها كانت نسيا منسيا

يقول السعدي – رحمه الله–أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس { مَكَانًا قَصِيًّا } فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسيا منسيا فلا تذكر. وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل. (١)

النداء الذي يكشف به الكرب ويخفف البلاء:

فجاءها الفرج من تحتها وطيب نفسها وأخبرها أن لا تناقش أحدا بل تصوم عن الكلام

{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)}

يقول الزحيلي – رحمه الله–: في الدنيا والآخرة –فناداها جبريل من تحت الأكمة أو من تحت النخلة، وقيل: المنادي هو عيسى، وقد أنطقه اللّه بعد وضعه تطييبا لقلبها وإيناسا لها، قائلا: لا تحزني، فقد جعل ربك تحتك جدولا أو نهرا صغيرا، أجراه اللّه لها لتشرب منه. وقيل: المراد بالسريّ هنا عيسى، والسريّ: السيد العظيم الخصال من الرجال. قال ابن عباس: المراد ب مِنْ تَحْتِها جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي للّه تعالى فيها مراد عظيم، وهذا هو الأصح.

---

١ – تفسير السعدي –(١ / ٤٩١)

{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا }أي حرّكي جذع النخلة، تسقط عليك رطبا طريا طيبا، صالحا للاجتناء والأكل من غير حاجة إلى تخمير وصناعة. وهذه آية أخرى،

قال الزمخشري، كان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة، وكان الوقت شتاء. وقيل: كانت النخلة مثمرة. والمهم في الأمر: وجوب اتخاذ الأسباب لتحصيل الرزق، والاعتقاد بأن الفاعل الحقيقي في تيسير الرزق هو اللّه تعالى، وأنه على كل شيء قدير. وأما التفاصيل فلا يجب علينا أن نعتقد إلا بما أخبر به القرآن صراحة، وأما الروايات فتحتاج إلى تثبت ودليل وسند صحيح. وما أحسن قول الشاعر:

ألم تر أن اللّه أوحى لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سبب

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا أي فكلي من ذلك الرطب، واشربي من ذلك الماء، وطيبي نفسا ولا تحزني وقرّي عينا برؤية الولد النبي، فإن اللّه قدير على صون سمعتك، والإرشاد إلى حقيقة أمرك. قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

{فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً، فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} أي إن رأيت إنسانا يسألك عن أمرك وأمر ولدك، فأشيري له بأنك نذرت للّه صوما عن الكلام، أي صمتا، بألا أكلم أحدا من الإنس، بل أكلم الملائكة، وأناجي الخالق.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم، يحرم عليهم الطعام والكلام، قال ابن زيد والسدّي: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الكلام. (١)

البراءة الواضحة والمكانة السامية

فلما وضعته و أرضعته انطلقت راجعة إلى قومها و كلها ثقة و الثبات أمام جميع الإشاعات لقد ظهرت لها من الدلائل ما يربط على قلبها و يزيد في إيمانها و يرفع من

١ – التفسير المنير للزحيلي – (١٦ / ٧٦)

قدرها رجعت إليهم و هي تحمل الهم الآيات و تنزل عليهم بها البركات و الرحمات في حين أنهم ما زالوا يرمونها في عفتها و طهارتها يصور الله تعالى لنا ذلك المشهد بقوله{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)}

لما اطمأنت أتت تحمله لا تخفيه وتظهر وتبديه فهو شرفها وهو الذي سيرفع شانها في الأولين والآخرين، فما إن مثلت بين أيديهم حتى قال قومها لها: يا من تنسبين الى هارون يا من تربيت في بيت الطهارة والعفاف لقد كان أبوك معروفا بين الناس بالإيمان والصلاح أما أمك فلم تكن في لحظة من اللحظات بغيا إن الذي جئتي به أمرا منكرا عظيما يلطخ سمعة هذا المنزل الكريم.... ومع كل ذلك مريم عليها السلام لم يتغير لونها ولم تول هاربة من الميدان في الواثقة بربها فما إن سمعت حتى أشارت إلى الطفل الوليد إشارة يفهم من خلالها أن سيجيبهم على هذا الاستفسار ويرد عنها كل بلية ... فتعجب القوم منها كيف نكلم طفلا لم تمر عليه سوى ساعات بعد الولادة إن هذا أمر يدعوا إلى الغرابة و التعجب من إشارتها{ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)}

كان كلامه الحكيم الفيصل بين الحق والباطل وأبلغ ما يكون ردا للاتهام الذي لا يقوم إلا بمجرى العادات، فتبين لهم أنه فوق مجرى العادات الحاكمة التي يحسبها فلاسفتهم أن الأسباب والمسببات قانون لا يقبل التخلف، ونسوا أن خالق الأسباب والمسببات فوق كل نظام ؟ لأنه خالق كل نظام وفعال لما يريد.

ونلاحظ قبل أن نتكلم في معاني هذه الآيات أنها عندما واجهت القوم لم تقل كما أمرت (إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)، ولكنها نفذت الأمر بالفعل فلم تتكلم معهم بل أشارت إليه أن يرد، فهي نفذت مدلول الأمر ولم تنطق به ولو نطقت لكان ذلك نقضا للصوم الذي نذرته.

وقد أثار العلماء بحثا حول نطقه صغيرا بهذا الكلام الذي لا ينطق به إلا نبي يوحى إليه ، أكان هذا الكلام نتيجة بعثه نبيا ، وأنه بذلك بعث وهو صبى في المهد ، وقد أجاب الأكثرون عن ذلك بأنه تكلم في المهد ليتحقق وفاء أمه بنذرها ، ولتحقق براءة أمه من اتهامها بالزنى ، وهى البريئة العذراء البتول التي اصطفاها الله على نساء العالمين ، ثم عاد إلى ما يكون عليه الأطفال حتى بلغ المبلغ الذي ينطق فيه من يكون في سن النطق ، وأثاروا بحثا حول ما جاء بقوله من أنه أوتى الكتاب ، وجعله نبيا ، وإيصائه بالصلاة والزكاة ، وبره بأمه ونطقه بقوله (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا.

وأجيب عن ذلك بأن كل هذا الذي أخبر به سبق بلفظ الماضي، ومعناه للمستقبل كقوله تعالى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (١)

و يقول ابن كثير – رحمه الله–وقوله: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرْية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صامتة فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}؟

قال ميمون بن مِهْران: {فَأَشَارَتْ [إِلَيْهِ}، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيا!

وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَتُها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها.

---

١ – زهرة التفاسير – (١ / ٤٦٣٣)

{قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: {آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر، وقال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} إلى قوله: {مَا دُمْتُ حَيًّا}

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البُنَاني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } الآية.

وقال عكرمة: {آتَانِيَ الْكِتَابَ} أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى. (١)

وقوله في هذه الآية الكريمة: {آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّـًا} التحقيق فيه إن شاء الله: أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل لتحقق الوقوع منزلة الوقوع.

ونظائره في القرآن كثيرة كقوله تعالى: {أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١].

وقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ} [الزمر : ٦٨-٧٠] . {وَسِيقَ الذين كفروا} [الزمر: ٦٨-٧١]. وقوله تعالى: {وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ} [الزمر: ٧٣].

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل. تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن. وهذا الذي ذكرنا -من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: {آتَانِيَ الكتاب} الخ بمعنى المستقبل هو الصواب إن شاء الله.

---

١ - تفسير ابن كثير - (٥ / ٢٢٨)

خلافاً لمن زعم أنه نبيء وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ . وقوله {وجلعني مباركاً} أي كثير البركات.

لأنه يعلم الخير ويدعو إلى الله، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله(١)

الدروس والعبر

أخي المسلم. أختي المسلمة: بعد هذا الشرح والبيان لما جاء في كتاب الرحمن نستلهم الدروس والعبر من حياة السيدة البتول – عليها وعلى ابنها أزكى وأفضل سلام.

الدرس الأول: إثبات كرامات الأولياء وأن الله تعالى يمنحهم من الآيات الدالة على محته سبحانه الله وأنه في عون أوليائه ونأخذ ذلك من قوله {تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)}

الدرس الثاني: أن التستر والحجاب وعدم الاختلاط بالرجال سنة من سنن الصالحات فها هي مريم يا ابنة الإسلام لم تختل بالرجال حتى في مكان العبادة والطاعة {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)}

الدرس الثالث: أن دفع الصائل يكون بالأسهل فالأسهل فلا يقتل المرء الصائل المتعدي إذا كان يمكنه دفعه بالكلام أو بالضرب فان فعل كان آثما وهذا نأخذه من فعل السيدة البتول عليها السلام {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)}

يقول الزحيلي –وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولا باللّه عز وجل، والاستعاذة والتخويف لا يؤثران إلا في التقي، وهو كقوله تعالى: وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [البقرة ٢/ ٢٧٨] أي إن الإيمان يقتضي ذلك ويوجبه،)(٢)

---

١ =– أضواء البيان – (٣ / ٤٧٥)

٢ – التفسير المنير للزحيلي – (١٦ / ٦٩)

رابعا: شأن المؤمن الرضا بما كتبه الله تعالى عليه: فهو من الإيمان بالله تعالى فقد استسلمت عليها السلام لما أخبرها الملك أن هذا هو قضاء الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

عن وهب بن خالد الحمصي عن بن الديلمي قال وقع في نفسي شيء من القدر فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم ولو كان لك جبل أحد أو مثل جبل أحد ذهبا أنفقته في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار) (١)

الدرس الخامس: جواز تمني الموت عند الخوف من الفتنة في الدين

عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه (٢)

قال ابن عبد البر: ظن بعضهم أن هذا الحديث معارض للنهي عن تمني الموت، وليس كذلك، وإنما في هذا أن هذا القدر سيكون لشدة تنزل بالناس من فساد الحال في الدين أو ضعفه أو خوف ذهابه لا لضرر ينزل في الجسم، كذا قال، وكأنه يريد أن النهي عن تمني الموت هو حيث يتعلق بضرر الجسم، وأما إذا كان لضرر يتعلق بالدين فلا .

وقد ذكره عياض احتمالا أيضا وقال غيره: ليس بين هذا الخبر وحديث النهي عن تمني الموت معارضة، لأن النهي صريح وهذا إنما فيه إخبار عن شدة ستحصل ينشأ عنها هذا التمني، وليس فيه تعرض لحكمه، وإنما سيق للإخبار عما سيقع.

---

١ – أخرجه أحمد ح ٢١٦٥١ و أبو داود ح ٤٦٩٩ و البيهقي في الكبرى ح ٢٠٦٦٣ و الطبراني في الكبير ح ٤٩٤٦ و الاوسط و ابن حبان في صحيحه ح ٧٢٧و قال الألباني : صحيح ظلال (١٤٥) ، المشكاة (١١٥) ، شرح الطحاوية (٦٢٩)

٢ – أخرجه البخاري ح ٦٥٨٢

قلت: ويمكن أخذ الحكم من الإشارة في قوله " وليس به الدين إنما هو البلاء " فإنه سيق مساق الذم والإنكار، وفيه إيماء إلى أنه لو فعل ذلك بسبب الدين لكان محمودا، ويؤيده ثبوت تمني الموت عند فساد أمر الدين عن جماعة من السلف.

قال النووي لا كراهة في ذلك بل فعله خلائق من السلف منهم عمر بن الخطاب وعيسى الغفاري وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

ثم قال القرطبي : كأن في الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين ويقل الاعتناء بأمره ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه نفسه وما يتعلق به ، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة كما أخرج مسلم من حديث معقل بن يسار رفعه " العبادة في الهرج كهجرة إلي " ويؤخذ من قوله " حتى يمر الرجل بقبر الرجل " أن التمني المذكور إنما يحصل عند رؤية القبر ، وليس ذلك مرادا بل فيه إشارة إلى قوة هذا التمني لأن الذي يتمنى الموت بسبب الشدة التي تحصل عنده قد يذهب ذلك التمني أو يخف عند مشاهدة القبر والمقبور فيتذكر هول المقام فيضعف تمنيه ، فإذا تمادى على ذلك دل على تأكد أمر تلك الشدة عنده حيث لم يصرفه ما شاهده من وحشة القبر وتذكر ما فيه من الأهوال عن استمراره على تمني الموت . وقد أخرج الحاكم من طريق أبي سلمة قال " عدت أبا هريرة فقلت: اللهم اشف أبا هريرة، فقال: اللهم لا ترجعها، إن استطعت يا أبا سلمة فمت، والذي نفسي بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر. وليأتين أحدهم قبر أخيه فيقول: ليتني مكانه " وفي كتاب الفتن من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال " يوشك أن تمر الجنازة في السوق على الجماعة فيراها الرجل فيهز رأسه فيقول: يا ليتني مكان هذا، قلت: يا أبا ذر إن ذلك لمن أمر عظيم، قال: أجل "[1]

[1] – فتح الباري لابن حجر – (٢٠ / ١٢٣)

عن سعيد بن أبى العاص قال: «رصدت عمر ليلة فخرج إلى البقيع وذلك فى السحر فاتبعته فصلى فرفع يديه ثم قال: اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وخشيت الانتشار من رعيتي فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم»

قال الزهرى، عن ابن المسيب: فما انسلخ الشهر حتى مات.

عن عبيدة قال: سمعت عليًا يخطب فقال: «اللهم إني قد سئمتهم وسئموني فارحمني منهم وارحمهم منى، ما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم -وأشار إلى لحيته».

يقول الزحيلي: يكون تمني الموت جائزا في مثل حال السيدة مريم، فإنها تمنت الموت من جهة الدّين لسببين: أحدهما-أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير، فيفتنها ذلك.

الثاني-لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى، وذلك مهلك.

فخافت صونا لسمعتها الدينية، وحماية لتدين الآخرين حتى لا يقعوا في الذنب. (١)

الدرس السادس: الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل والأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة اللّه تعالى في عباده، وأن ذلك لا يتعارض مع التوكل، فإن التوكل على اللّه يكون بعد اتخاذ الأسباب. وقد كانت مريم قبل الولادة يأتيها رزقها من غير تكسب، تكريما خاصا لها، كما قال

تعالى: كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً .. الآية [آل عمران ٣/ ٣٧]

فلما ولدت أمرت بهز الجذع لأن قلبها قبل الولادة كان مشغولا بالعبادة متفرغا لها، فلم تشغل أعضاؤها بتعب التكسب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، أمرت بالكسب، وردت إلى العادة بالتعلق بالأسباب، كسائر العباد.

سابعا: وجوب الأخذ بالأسباب في طلب الزق والمعاش: فقد استدل العلماء بهذه الآية على أن الرزق، وإن كان محتوما، فإن اللّه تعالى ربطه بالسعي، ووكل ابن آدم إلى سعي ما

---

١ - التفسير المنير للزحيلي - (١٦ / ٧٧)

فيه لأنه سبحانه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية ألا تهتز النخلة لأن جذعها صلب قوي ثخين يصعب تحركه.

ثامنا: أن الرطب أفضل ما يقدم للمرأة النفساء وهذا ما أثبته الإعجاز العلمي في العصر الحديث

تاسعا * الرد عل النصارى الذين يقولون بالتثليث: يقول الشنقيطي – رحمه الله –ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن أول كلمة نطق لهم بها عيسى وهو صبي في مهده أنه عبد الله ، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم أنه الله ، أو ابنه أو إله معه! وهذه الكلمة التي نطق بها عيسى في أول خطابه لهم ذكرها الله جل وعلا عنه في مواضع أخر . كقوله تعالى : { وَقَالَ المسيح يا بني إِسْرَائِيلَ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ } [المائدة : ٧٢] وقوله في « آل عمران » : { إِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [آل عمران : ٥١] ، وقوله في « الزخرف » { فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ إِنَّ الله هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [الزخرف « ٦٣-٦٤] ، وقوله هنا في سورة » مريم « : { وَإِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [مريم : ٣٦] ، وقوله : { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ } [المائدة : ١١٧] . الآية.

إلى غير ذلك من الآيات. (١)

عاشرا عدم مشروعية الكلام في شرعنا من التزم بالنذر بألا يكلم أحدا من الآدميين، أو نذر الصمت، فذلك كان مشروعا في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، وليس في شريعتنا، فلا يجوز نذر الصمت في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه، مما لم يجزه النبي ـ ﷺ ـ ، وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام، كما تقدم. وهذا هو الصحيح ـ ﷺ ـ

لحديث أبي إسرائيل: الذي نذر الصوم في الشمس، فأمره النبي ـ ﷺ ـ بأن يتكلم ويتم صومه في الظل، والحديث خرّجه البخاري عن ابن عباس.

---

١ =–أضواء البيان –(٣ / ٤٧٥)

قال ابن زيد والسدّي كما تقدم: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام.

ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح،

قال عليه الصلاة والسلام في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا: «إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم» (١)

وقال أيضا فيما رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». (٢)

*****

الزوجةُ الوفيَّةُ (زوجة أيوب النبي عليه السلام)

نقف مع زوجة صابرة أخلصت لزوجها، ووقفت إلى جواره في محنته حين نزل به البلاء، واشتد به المرض الذي طال سنين عديدة، ولم تُظْهِر تأفُّفًا أو ضجرًا، بل كانت متماسكة طائعة.

إنها زوجة نبي اللَّه أيوب – عليه السلام – الذي ضُرب به المثل في الصبر الجميل، وقُوَّة الإرادة، واللجوء إلى اللَّه، والارتكان إلى جنابه.

وكان أيوب – عليه السلام – مؤمنًا قانتًا ساجدًا عابدًا لله، بسط اللَّه له في رزقه، ومدّ له في ماله، فكانت له ألوف من الغنم والإبل، ومئات من البقر والحمير، وعدد كبير من الثيران، وأرض عريضة، وحقول خصيبة ،وكان له عدد كبير من العبيد يقومون على خدمته، ورعاية أملاكه، ولم يبخل أيوب –عليه السلام– بماله، بل كان ينفقه، ويجود به على الفقراء والمساكين .

---

١ –«أخرجه مسلم (١٦٢، ١٦٠/ ١١٥١) والنسائي (٢٢١٦، ٢٢١٧). وأخرجه البخاري (١٨٩٤، ١٩٠٤) ومسلم والنسائي من حديث أبي صالح السَّمان عن أبي هريرة، والترمذي (٧٦٤) بنحوه، وابن ماجة (١٦٩١).»

٢ – «وأخرجه أحمد ٤٥٢/٢ – ٤٥٣ و ٥٠٥، والبخاري "١٩٠٣" في الصوم: باب مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ في الصوم، و "٦٠٥٧"»

وأراد اللَّه أن يختبر أيوب في إيمانه، فأنزل به البلاء، فكان أول ما نزل عليه ضياع ماله وجفاف أرضه ؛ حيث احترق الزرع وماتت الأنعام، ولم يبق لأيوب شيء يلوذ به ويحتمي فيه غير إعانة الله له، فصبر واحتسب، ولسان حاله يقول في إيمان ويقين : عارية اللَّه قد استردها، ووديعة كانت عندنا فأخذها، نَعِمْنَا بها دهرًا، فالحمد لله على ما أنعم، وَسَلَبنا إياها اليوم، فله الحمد معطيا وسالبًا، راضيا وساخطًا، نافعًا وضارا، هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء . ثم يخرُّ أيوب ساجدًا لله رب العالمين.

ونزل الابتلاء الثاني، فمات أولاده، فحمد اللَّه -أيضًا-وخَرّ ساجدًا لله، ثم نزل الابتلاء الثالث بأيوب -فاعتلت صحته، وذهبت عافيته، وأنهكه المرض، لكنه على الرغم من ذلك ما ازداد إلا إيمانًا، وكلما ازداد عليه المرض؛ ازداد شكره لله.

وتمر الأعوام على أيوب -عليه السلام -وهو لا يزال مريضًا، فقد هزل جسمه، ووهن عظمه، وأصبح ضامر الجسم، شاحب اللون، لا يقِرُّ على فراشه من الألم. وازداد ألمه حينما بَعُدَ عنه الصديق، وفَرَّ منه الحبيب، ولم يقف بجواره إلا زوجته العطوف تلك المرأة الرحيمة الصالحة التي لم تفارق زوجها، أو تطلب طلاقها، بل كانت نعم الزوجة الصابرة المعينة لزوجها، فأظهرت له من الحنان ما وسع قلبها، واعتنت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. لم تشتكِ من هموم آلامه، ولا من مخاوف فراقه وموته. وظلت راضية حامدة صابرةً مؤمنةً، تعمل بعزم وقوة؛ لتطعمه وتقوم على أمره، وقاست من إيذاء الناس ما قاست .

ومع أن الشيطان كان يوسوس لها دائمًا بقوله: لماذا يفعل اللَّه هذا بأيوب، ولم يرتكب ذنبًا أو خطيئة؟ فكانت تدفع عنها وساوس الشيطان وتطلب من الله أن يعينها، وظلت في خدمة زوجها أيام المرض بضع سنين، حتى طلبت منه أن يدعو اللَّه بالشفاء، فقال لها: كم مكثت في الرخاء؟ فقالت: ثمانين. فسألها: كم لبثتُ في البلاء؟ فأجابت: بضع سنين.

قال: أستحي أن أطلب من اللَّه رفع بلائي، وما قضيتُ منِه مدة رخائي. ثم أقسم أيوب - حينما شعر بوسوسة الشيطان لها -أن يضربها مائة سوط، إذا شفاه اللَّه، ثم دعا أيوب ربه أن يكفيه بأس الشيطان، ويرفع ما فيه من نصب وعذاب، قال تعالى: {وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} (٤١ سورة ص.)

فلما رأى اللَّه صبره البالغ، رد عليه عافيته؛ حيث أمره أن يضرب برجله، فتفجر له نبع ماء، فشرب منه واغتسل، فصح جسمه وصلح بدنه، وذهب عنه المرض، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ} [ص:٤١-٤٣].

ومن رحمة اللَّه بهذه الزوجة الصابرة الرحيمة أَن أَمَرَ اللَّهُ أيوبَ أن يأخذ حزمة بها مائة عود من القش، ويضربها بها ضربةً خفيفةً رقيقةً مرة واحدة؛ ليبرّ قسمه، جزاء له ولزوجه على صبرهما على ابتلاء الله ـ ﷺ ـ {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ نَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٤٤].

دروس وعبر

أولا: المرأة الصالحة سند في المحن: ضربت زوجة أيوب أروع الأمثلة في التضحية والوفاء، إذ بقيت ترعى زوجها وتخدمه طوال فترة مرضه التي امتدت لسنوات، ولم تتخلَّ عنه حين فقد ماله وأولاده وصحته.

ثانيا: عِظم حجم الابتلاء والمشاركة فيه: لم تكن الزوجة بعيدة عن الألم، فقد شاركت زوجها في فقدان الأولاد والأموال والمكانة، مما يعلمنا أن الابتلاء قد يحيط بالأسرة بأكملها، وصمودها يمثل قوة إيمانية عالية.

ثالثا: الضعف البشري ولحظات اليأس: حين اشتد البلاء وتراكمت المحن، صدرت منها كلمة تدعو للجزع (حيث طلبت منه أن يدعو الله ليكشف ضره ولو أدى ذلك لموته)، وهو ما يعكس الفطرة البشرية وضعف الإنسان أمام الألم الشديد.

رابعا: الرحمة بالضعفاء والمواساة: تعامل نبي الله أيوب مع زلة لسانها بحكمة ورحمة ولم يقابل الإساءة بالإساءة، بل تذكر صبرها الطويل، وهو ما يعبر عن ضرورة الإحسان لمن وقف معك في أوقات الشدة.

خامسا: الجزاء من جنس العمل: كافأها الله سبحانه وتعالى على صبرها ووفائها بأن فرج كربتهما، ورّد عليهما صحتهما، ورزقهما الذرية، مما يدل على أن العاقبة للصابرين.

ملكة سبأ بلقيس –رضي الله عنها

بلقيس بنت الهدهاد، وكان لمولدها خبر ظريف ذكرته الرواة فميا روي أنه تصور لأبيها في بعض قَنَصِه حَيَّتَان سوداء وبيضاء فأمر بقتل السوداء منهما،؛وما ظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن، وأن الشيخ زوجه بابنته، واشترط عليه شروطًا لها، فعلقت منه ببلقيس، ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها، فغابت عنه، في خبر ظريف، وهو موجود في كتاب أخبار التبابعة.

وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الأخباريين وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها، وليس. قصدنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم، لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحديث المنقادين

للشرع والمسلِّمين للحق، وأخبار الشياطين على حسب ما نطق به الكتاب المنزل على النبي المرسل، وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه صلى الله علية وسلم، وإعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكان ملك بلقيس عشرين ومائة سنة، وكان من أمرها مع سليمان عليه السلام ما ذكر اللّه عز وجل في كتابه، وما اقتص من خبر الهدهد، وما اقتص من أمرهما، فملك سليمان اليمن ثلاثاً وعشرين سنة.(١)

يقول ابن الأثير – رحمه الله– –نذكر أولاً ما قيل في نسبها وملكها، ثمّ ما جرى له معها، فنقول: قد اختلف العلماء في اسم آبائها، فقيل: إنها هي بلقمة ابنة ليشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقيل: هي بلقمة ابنة هادد واسمه ليشرح بن تبّع ذي الأذعار بن تبّع ذي المنار بن تبّع الرايش.

وقيل في نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره.)(٢)

قصتها مع سليمان عليه السلام

تبدأ قصتها مع نبي الله سليمان عليه السلام – بقصة تغيب أحد جنود سليمان عن الحضور و المثول بين يديه يقول الله تعالى {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا

---

١ – مروج الذهب – (١ / ١٩٩)

٢ – الكامل في التاريخ – (١ / ٧٥)

تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ، فَقالَ: ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ، أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ} :أي بحث سليمان عن الهدهد بين جنوده، وكان له علم بمنطق الطير، وكانت الطيور مسخرة له كالريح وغيرها، فقال متعجبا: كيف لا أرى الهدهد؟ علما بأنه لم يأذن له بالغياب، بل هو من الغائبين دون أن أعلم بغيبته. وفي العبارة قلب، أي ما للهدهد لا أراه؟! وهو كقولك: ما لي أراك كئيبا؟ أي مالك؟

وذكر المفسرون أن سبب بحثه عنه أنه كان يدل على مكان وجود الماء تحت الأرض، بنقره فيها، فيستخرج منها من طريق الجن أو الشياطين، كما كان يرشد سليمان وجنوده إلى الحد الفاصل بين قريب الماء وبعيده أثناء السير بفلاة من الأرض.

وحين تثبّت من غيابه توعده بالعذاب إذا كان بغير عذر مقبول، فقال تعالى: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ} أي أنه هدده بالقتل أو بالتعذيب والعقاب الشديد كنتف ريشه إلا أن يأتي ببرهان واضح يبين عذره، أي إن التهديد والوعيد كان بأحد أمرين إن لم يأت بالأمر الثالث وهو العذر الواضح البيّن.

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَقالَ: أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}: أي غاب الهدهد زمانا يسيرا ثم جاء فسأله سليمان عن سبب غيابه، فقال

لسليمان: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتك من مدينة سبأ بخبر صدق متيقّن، والأكثر على أن سَبَإٍ مصروف لأنه اسم بلد. وأهل سبأ: هم حمير وهم ملوك اليمن. والأكثر على أن الضمير في فَمَكَثَ يعود للهدهد، ويحتمل أن يكون لسليمان، والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل، أي غير وقت طويل.

وقد كان الهدهد ماهرا بالدفاع عن نفسه بتلطف وقدرة على اجتذاب النظر إليه وإصغاء السمع لكلامه، وأنه كان يقوم برحلة استكشاف علمية لمملكة سبأ ومعرفة أحوال أهلها في الملك والتدين. ثم عرّف سليمان ببعض المعارف بالرغم مما أوتيه من فضل النبوة

والحكمة والعلوم الجمة، للتنبيه على وجود العلم والمعرفة عند من هو أضعف منه، وللإرشاد إلى ضرورة تواضع العلماء.

قال الزمخشري: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة: أن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه

ومضمون خبر الهدهد ثلاثة أمور هي في هذه الآية:

{إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ،وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ } أي إني وجدت في بلاد سبأ مملكة عظيمة ذات مجد تملكهم امرأة هي بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها قبلها ملكا عظيم الملك، وأعطيت من متاع الدنيا الشيء الكثير من شراء وغنى، وملك وأبهة، وجيش مسلح بأنواع مختلفة من معدات القتال، وبإيجاز: أوتيت من كل شيء تحتاجه المملكة في زمانها، ولها سرير عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ، تجلس عليه، فوصفه بالعظم أي في الهيئة ورتبة السلطان، قال المؤرخون: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد، رفيع البناء، محكم الصنع، فيه ثلاث مائة طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحا ومساء. وهذا ما أشارت إليه الآية التالية المبينة عقيدتهم الدينية.

وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أي وجدت هذه الملكة وقومها يعبدون الشمس من غير اللّه، وزيّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم، فصاروا يرون السيء حسنا، ومنعهم الشيطان عن طريق الحق وعبادة اللّه الواحد الأحد، فأصبحوا لا يهتدون إليه.

{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ} أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود للّه وحده، دون ما خلق من الكواكب وغيرها، وهو الخالق المبدع الذي يخرج إلى الوجود بعد العدم كل شيء

مخبوء مغيب في السموات والأرض كالمطر والنبات والمعادن والمخلوقات، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال.

ونظير الآية في القسم الأول منها: {وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [فصلت ٤١/ ٣٧]} . ونظيرها في القسم الآخر: {سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ [الرعد ١٣/ ١٠]}.

{اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} أي أنه بعد بيان الدليل على وجود اللّه وتوحيده، وهو افتقار العالم إليه، نزهه وأبان عظمته، فذكر أنه الإله الواحد الذي لا شريك له، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه، فكل عرش مهما عظم فهو دونه، ومنها عرش بلقيس، فكان الواجب إفراده بالعبادة. فوصف الهدهد عرش بلقيس بالعظم إلى الإيمان والإسلام للّه عز وجل، وأعطاه ذلك الهدهد، وأمره أن يلقيه إليهم، ثم يبتعد عنهم قريبا، ويتأمل رد الفعل، وما يراجع بعضهم بعضا القول، ويناقش فيه.

دروس وعبر

دلت الآيات على ما يأتي:

١-القائد يتفقد عادة جيشه وجنوده، وقد فعل ذلك سليمان عليه السلام أثناء مسيره ومروره بوادي النمل، فتفقد جنس الطير وجماعتها التي كانت تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها. وكان سبب تفقده ما تقتضيه عادة العناية بأمر الملك، والاهتمام بعناصر الجيش وبكل جزء منها، كما دل ظاهر الآية. وقال

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك. ويرحم اللّه

عمر بن الخطاب، فإنه كان على سيرته قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب، ليسأل عنها عمر «[1]» . والخلاصة:

استنبط العلماء من الآية استحباب تفقد الحاكم أحوال الرعية، وكذلك تفقد الأصدقاء والأقارب.

٢-قوله تعالى: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً}: دليل على أن الحدّ أي العقوبة على قدر الذنب، لا على قدر الجسد، ولكن يرفق بالمحدود في الزمان والصفة.

وأما ذبحه فدليل على أن اللّه أباح له ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع.

٣-قوله تعالى: {أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ}: أي علمت ما لم تعلمه من الأمر، دليل على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب، ودليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه.

٤-الاعتذار الصحيح مقبول عند أهل الحق والإيمان، فقول الهدهد:

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ دفع فيه عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح.

٥-كانت بلقيس ملكة سبأ، وكان هذا عرفا معمولا به عند القدماء، وعند المعاصرين غير المسلمين. أما في شرعنا

فقد روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ـ ﷺ ـ لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[2]

قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه.

ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه، وليس بأن تكون

---

[1] - تفسير القرطبي: ١٣/ ١٧٨.

[2] - «البخاري ١٣ / ٤٥ و ٤٦ في الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، وفي المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، والترمذي رقم (٢٢٦٣) في الفتن، باب لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، والنسائي ٨ / ٢٢٧ في القضاة، باب النهي عن استعمال النساء في الحكم،»

قاضية على الإطلاق ولا بأن يكتب لها منشور (أو مسطور) بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، بدليل

قوله ـ ﷺ ـ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»(١)

وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وما روي عن عمر أنه قدّم امرأة على حسبة السوق لم يصح، فلا يلتفت إليه، وإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث.

٦-كانت أمة بلقيس ممن يعبد الشمس لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى، وقيل: كانوا مجوسا يعبدون الأنوار، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم أي ما هم فيه من الكفر، وصدهم عن طريق التوحيد، فهم لا يهتدون إلى اللّه وتوحيده، وزين لهم ألا يسجدوا للّه، أو فهم لا يهتدون أن يسجدوا للّه، وعلى هذا تكون (لا) زائدة، مثل: {ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ} [الأعراف ٧/ ١٢] أي أن تسجد.

وهذا دليل على أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به قطعا.

ثم آمنت تلك الأمة واهتدت إلى الإقرار بنبوة سليمان ودعوته إلى التوحيد، كما سيأتي بيانه.

٧-إن اللّه الذي خلق فسوى، وأخرج المخبوء في السماوات والأرض كالمطر من السماء والنبات والكنوز من الأرض، هو الذي تجب عبادته، وهو الذي يستحق العبادة. والآية دلت على وصف اللّه تعالى بالقدرة والعلم، أما القدرة:

فقوله: يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث، ومن الأرض بالنبات. وأما العلم فقوله:{وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ}.

٨-قول الهدهد {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ وقوله اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} دليل على أنه داع إلى الخير، وعبادة اللّه وحده والسجود له، لذا نهى النبي ـ ﷺ ـ عن قتله، كما

---

١ - «البخاري ١٣ / ٤٥ و ٤٦ في الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، وفي المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، والترمذي رقم (٢٢٦٣) في الفتن، باب لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، والنسائي ٨ / ٢٢٧ في القضاة، باب النهي عن استعمال النساء في الحكم،»

روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: «نهى النبي ـ ﷺ ـ عن قتل أربع من الدواب:

النملة والنحلة والهدهد والصرد».

٩-قوله تعالى: {أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ} دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم، بباطن أعذارهم لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد.

وفي الصحيح: «ليس أحد أحبّ إليه العذر من اللّه، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

وقد قبل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه.

لكن للإمام أن يمتحن المعتذر إذا تعلق بالأمر حكم من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان بالتثبت من صدق الهدهد.

١٠-دلت آية: {اذْهَبْ بِكِتابِي هذا} ... على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعوتهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي ـ ﷺ ـ إلى كسرى وقيصر، وإلى كل جبار، كما دلت الآية على سرعة الهدهد في تبليغ الكتاب إليهم، وعلى إيتائه قوة المعرفة وفهم كلامهم، وأن الملكة فهمت الكتاب فورا بواسطة مترجم، وعلى حسن آداب الرسل أن يتنحوا عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة، للتشاور فيها.(١)

مشاورة بلقيس قومها في أمر رسالة سليمان والرد عليها

وبينما الملكة جالس في عرشها إذ برسالة يحملها الهدهد إليها وكانت امرأة زكية حكيمة في قرارها وكان لديها نظر ثاقب تقدر الأمور بمقاديرها ولا تلجا إلى الغرور ولا القوة

---

١ – التفسير المنير للزحيلي – (١٩ / ٢٨٩)

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

{قَالَتْ: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ، إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ} أي قالت بلقيس لأشراف قومها ومستشاريها وأركان دولتها ومملكتها: يا أشراف القوم، إني ألقي إلي كتاب كريم: لأن مرسلة نبي اللّه سليمان، وهو ملك كريم، ولحسن مضمونه وجمال عباراته، ولأنه كان مختوما،

قال ـ ﷺ ـ فيما رواه الطبراني: «كرامة الكتاب: ختمه»

وكان ـ ﷺ ـ يكتب إلى العجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم، فاتخذ لنفسه خاتما كما أن فيه عجيب أمر حامله، وهو طائر ألقاه به إليها، ثم تولى عنها أدبا، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

ومضمون الكتاب: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ، وَإِنَّهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} أي قرأت الكتاب على أشراف قومها، وكان في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة شاملا أمورا ثلاثة:

١-البسملة الدالة على إثبات اللّه ووحدانيته وقدرته ورحمته.

٢-النهي عن الترفع الذي يحجب وصول الحق إلى النفوس، والنهي عن الانقياد للأهواء.

٣-الأمر بالإسلام الجامع لأصول الفضائل، أو الأمر بالانقياد والطاعة لأمر سليمان.

قال العلماء: لم يكتب أحد: بسم اللّه الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام. وبه ثبت أن هذا الكتاب على وجازته جامع كل ما لا بد منه من أمور الدين والدنيا.

ثم استشارتهم في شأن الرد على الكتاب، وهذا من الحكمة والديمقراطية ونبذ الاستبداد:

{قالَتْ: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ، أَفْتُونِي فِي أَمْرِي، ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ}: أي قالت بلقيس: يا أشراف القوم، أشيروا عليّ في شأن هذا الكتاب الذي أرسل إلي من نبي اللّه سليمان عليه السلام، ما كنت مبرمة أمرا ولا قاضية في شأن حاسم حتى يكون بحضوركم ومشاورتكم فيه.

وهذا دال على حسن سياستها ورشادها وحكمتها، فإنها استعطفتهم ليعينوها على اتخاذ الرأي الأفضل والأخلص والأصوب، فأجابوها بإظهار الاستعداد للقتال والحرب والدفاع عن المملكة:

قالُوا: {نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ} أي قال أشراف القوم: نحن أصحاب قوة جسدية وعددية، وذوو نجدة وشجاعة وشدة وثبات في الحروب. ثم فوضوا إليها أمر إعلان الحرب، قائلين: نحن على أتم الاستعداد من جانبنا للحرب، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا، ففيه إظهار القوة الذاتية والعرضية، وإظهار الطاعة لها إن أرادت السلم والمصالحة.

فناقشتهم في ذلك، لعلمها بقوة سليمان وجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، فآثرت السلم على الحرب، وقالت: إني أخشى أن نحاربه، فيتغلب علينا، ويصيبنا جميعا الهلاك والدمار. فمالت إلى المصالحة، وتبين أنها أحزم رأيا منهم، وأعلم بأمر سليمان، ولهذا حكت لهم ما يفعله الملوك الأشداء:

قالَتْ: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً، وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ} أي قالت بلقيس لهم حين أظهروا استعدادهم لقتال سليمان:

إن الملوك إذا دخلوا بلدا عنوة، خرّبوه وأتلفوا الديار والأموال، وأذلوا أعزة أهلها بالقتل أو الأسر، وأهانوهم غاية الهوان، لتتحقق لهم الغلبة والرهبة، ويفعلون هكذا.

وقوله: {وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ} الأقرب أنه من كلامها الذي أرادت به أن هذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت.

وهذا تحذير لقومها من محاربة سليمان ومجيئه إليهم ودخوله بلادهم، وبعد أن استبعدت فكرة الحرب، لجأت إلى الوسائل الودية ومنها المسالمة والمصالحة، واقترحت إرسال هدية إليه، وكان ذلك هو الرأي السديد.

{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ، فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}: أي وإني ألجأ إلى هذه التجربة وهي بعث هدية إليه، تليق بمثله، وأختبر أمره، أهو نبي أم ملك؟ وأنظر ماذا يكون جوابه بعدئذ، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يفرض علينا خراجا نرسله إليه في كل عام، فنأمن جانبه، ويترك قتالنا ومحاربتنا.

قال قتادة رحمه اللّه: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس.

قال صلّى اللّه عليه وسلم فيما رواه ابن عساكر عن أبي هريرة وهو حسن: «تهادوا تحابوا، وتصافحوا يذهب الغل عنكم».

وقال ابن عباس وغيره: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك، فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

وكانت الهدية عظيمة مشتملة على ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، قال ابن كثير:

والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب، فماذا كان موقف سليمان من الهدية؟:

{فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ، قالَ: أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ، فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} أي لما جاء الرسول ومعه أتباعه بالهدية إلى سليمان، لم ينظر إليها، وأعرض عنها، وقال منكرا عليهم: أتمدونني بمال؟ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟ إن اللّه تعالى أعطاني خيرا كثيرا مما أعطاكم وهو النبوة، والملك الواسع

العريض، والمال الوفير، فلا حاجة لي بهديتكم، وإنما أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف وتفرحون بها، وأما أنا فلست طالبا للدنيا الزائلة، وإنما أطالبكم بالدخول في دين اللّه وترك عبادة الشمس، ولا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً، وَهُمْ صاغِرُونَ} أي ارجع أيها المبعوث إليهم بهديتهم، فإنا سنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بقتالهم، ولنخرجنهم } من بلدتهم أذلة، وهم مهانون مدحورون، إن لم يأتوا مسلمين منقادين للّه رب العالمين.(١)

دروس وعبر وأحكام

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أدب الخطاب وخصوصا في مجال الدعوة إلى اللّه تعالى في مكاتبات الملوك ورؤساء الدول مطلوب شرعا، لذا وصفت بلقيس كتاب سليمان عليه السلام بأنه كتاب كريم، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعوة إلى عبادة اللّه عز وجل، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبّا ولا لعنا، ويؤيده قول اللّه عز وجل إلى نبيه صلّى اللّه عليه وسلم: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [النحل ١٦/ ١٢٥] وقوله لموسى وهارون: فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى [طه ٢٠/ ٤٤].

والوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف بدليل قوله تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ [الواقعة ٥٦/ ٧٧].

٢-كانت عادة المتقدمين في المكاتبة أو المراسلة أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وسار السلف الصالح من أمتنا على هذا المنهج معاملة بالمثل،

قال ابن سيرين، قال النبي ـ ﷺ ـ: «إن أهل فارس إذا كتبوا بدؤوا بعظمائهم، فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه»

---

١ - التفسير المنير للزحيلي - (١٩ / ٢٩٢)

وقال أنس: ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ـ ﷺ ـ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم.

لكن لو بدأ الكاتب بالمكتوب إليه جاز لأن الأمة اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوها في ذلك، فالأحسن في زماننا ومن عدة قرون أيضا أن يبدأ الكاتب بالمكتوب إليه، ثم بنفسه، لأن البداية بنفسه تعدّ منه استخفافا بالمكتوب إليه، وتكبرا عليه.

٣- إذا كانت التحية واردة في رسالة ينبغي على المرسل إليه أن يرد الجواب لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر، وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام.

٤- اتفق العلماء على البدء بالبسملة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ في أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها لأنه أبعد من الريبة، و

جاء في الحديث المتقدم: «كرامة الكتاب ختمه»

واصطنع النبي ـ ﷺ ـ خاتما، ونقش على فصه:«لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».

٥- كان مضمون كتاب سليمان مع وجازته مشتملا على المقصود وهو إثبات وجود اللّه وصفاته الحسنى، والنهي عن الانقياد للهوى والنفس والترفع والتكبر، والأمر بالإسلام والطاعة، بأن يأتوه منقادين طائعين مؤمنين.

قال القرطبي: وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة.

أما سليمان عليه السلام فإنه رد هدية بلقيس لأنها كانت بدلا عن السكوت عن الحق وعن الدعوة إلى الإسلام والإيمان، وواجب الرسل التبليغ دون أجر، ودون مهادنة أو مساومة لأن غرضهم إرضاء اللّه، ونشر العقيدة والفضيلة والإخلاص في عبادة اللّه تعالى. لذا انضم إلى رده الهدية إنذارهم بالحرب والقتال بجيوش لا طاقة لهم على مقاومتها، وتهديدهم بالإخراج من أرضهم أذلة قد سلبوا ملكهم وعزمهم، مهانين محتقرين إن لم يسلموا.

وقد حقق الإنذار الغاية منه، فجاءت بلقيس مع حاشيتها وجنودها مسلمين منقادين طائعين، كما أبانت الآيات التالية.

إسلام بلقيس وولاؤها وزيارتها لسليمان عليه السلام

و عند ذلك أدركت بلقيس أن سليمان عليه السلام ليس ملكا من الملوك الذين يريدون زينة الحياة الدنيا و إنما هو نبي من أنبياء الله تعالى يدعو العباد إلى عبادة الله وحده و نبذ ما سواه من أصنام و أحجار و نيران فقررت الذهاب إلى مملكته ذلك النبي و الدخول في دينه طواعية ، و أراد سليمان عليه السلام أن يبن لها من المعجزات الدالة على صدقة يقول الله تعالى { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)} [النمل : ٢٠-٤٤]

لما اقترب وفد بلقيس من بلاد الشام، جمع سليمان عليه السلام جنده من الجن والإنس، وخاطبهم بقوله:قالَ: { يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } أي قال سليمان: يا أيها السادة الأعوان، من منكم يستطيع الإتيان بعرش (سرير) بلقيس قبل وصولها مع وفدها إلينا منقادين طائعين، ليكون ذلك دليلا على صدق نبوتنا، ومعجزة إلهية تعرف بها أن مملكتها صغيرة أمام عجائب اللّه وبدائع قدرته؟ فأجابه بعض جنده: {قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } أي قال شيطان مارد من الجن: أنا أحضره إليك قبل انفضاض مجلس حكمك وقضائك،

وكان يمتد إلى منتصف النهار، ثم أكد عزمه وضمن نتيجة فعله بقوله: وإني على حمله لقادر غير عاجز، أمين غير خائن، لا آخذ منه شيئا، ولا أمسّ ما فيه من الجواهر واللآلئ.

ثم أجابه آخر بعد أن قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، لأنه أراد بإحضار هذا السرير عظمة ما وهب اللّه له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، بأن يأتي بخارق عظيم وهو إحضار سريرها من بلادها في اليمن بعد أن تركته محفوظا، قبل وصولها إليه:

{قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} أي قال عالم من علماء أسرار الكتاب الإلهي: أنا أحضره في لمح البصر قبل أن تغمض عينك وقبل أن يرجع إليك نظرك.

وهذا العالم: قيل: كان من الملائكة إما جبريل أو غيره من الملائكة، أيد اللّه تعالى به سليمان عليه السلام، وقيل: كان من الإنس وهو آصف بن برخيا وزير سليمان وهو المشهور من قول ابن عباس، وكان يعلم الاسم الأعظم، إذا دعا به أجيب. أو هو الخضر عليه السلام، والراجح في رأي الرازي أنه سليمان عليه السلام لأنه أعرف بالكتاب من غيره لأنه هو النبي، وقال أبو حيان:

ومن أغرب الأقوال أنه سليمان عليه السلام، كأنه يقول لنفسه: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. والمهم أنه حدث ما وعد به هذا العالم، واللّه أعلم به.

{فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي، لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ} أي فلما عاين سليمان وجماعته وجود سرير بلقيس الذي أتي به من بلاد اليمن السعيدة، ورآه ساكنا قائما بين يديه، قال: هذا من نعم اللّه علي ليختبرني أأشكر بأن أراه فضلا منه بلا حول ولا قوة مني، أم أجحد فأنسب العمل لنفسي. وفائدة الشكر ومضرة الجحود والكفر ترجع إلى الإنسان نفسه، لذا قال:

{وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ، فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} أي ومن شكر النعمة فإن نفع الشكر عائد إليه، لا إلى اللّه تعالى لأنه بالشكر تدوم النعم، ومن جحد النعمة ولم

يشكرها، فإن اللّه غني عن العباد وعبادتهم وعن شكرهم لا يضره كفرانهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، لا يقطع النعمة عن عباده بسبب إعراضهم عن شكره، كما قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صالِحـًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[فصلت ٤١/ ٤٦] وقال سبحانه حكاية لقول موسى: وَقالَ مُوسى : {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعـًا، فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ }[إبراهيم ١٤/ ٨]} .

وجاء في صحيح مسلم: «يقول اللّه تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» .(١)

ثم أمر سليمان عليه السلام بتغيير صفات عرش بلقيس، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، كما حكى تعالى:

قالَ: { نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي، أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ } أي قال سليمان لأتباعه: غيّروا هيئة عرشها وصفته وشكله لنختبر حالها، وننظر في إمكاناتها العقلية وملاحظاتها الفكرية ومقدار ذكائها، أتهتدي إليه، فتعرف أنه عرشها، أم تكون غير مهتدية إليه أو تائهة عنه متحيرة في الحكم وإبداء الرأي؟

وذلك يدل على قدرة اللّه تعالى بنقله من مكان بعيد إلى بلاد الشام، وعلى صدق سليمان عليه السلام.

---

١ – أهرجه مسلم ح ٢٥٧٧ و الحاكم ح ٧٦٠٦ وأخرجه : معمر في " جامعه " (٢٠٢٧٢) ، والطيالسي (٤٦٣) ، وأحمد ٥/١٥٤ و١٦٠ و١٧٧ ، وهناد في " الزهد " (٩٠٥) ، والبخاري في " الأدب المفرد " (٤٩٠) ، وابن ماجه (٤٢٥٧) ، والترمذي (٢٤٩٥) ، والبزار (٤٠٥١) و(٤٠٥٢) و(٤٠٥٣) ، وابن حبان (٦١٩) ، والطبراني في " مسند الشاميين " (٣٣٨) و(٢٨١١) ، والحاكم ٤/٢٤١، وأبو نعيم في "الحلية" ٥/١٢٥ – ١٢٦ ، والبيهقي ٦/٩٣ ، وفي " شعب الإيمان " ، له (٧٠٨٨) ، والخطيب في " تاريخه " ٧/٢٠٣ – ٢٠٤ .

{فَلَمَّا جاءَتْ، قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ } أي حين قدمت، عرض عليها عرشها (سرير الملك) وقد غيّر وزيد فيه ونقص، فسئلت عنه: أمثل هذا عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقينا، فقالت: كأنه هو، أي يشبهه ويقاربه، ولم تجزم أو تقطع يقينا بأنه هو، لاحتمال أن يكون مثله بسبب بعد مسافته عنها.

وكان جوابها جواب سياسي بارع ذكي محنّك، دل على كمال عقلها ودهائها، وثبات شخصيتها، وأنها في غاية الذكاء والحزم، فشبهت عليهم من حيث شبهوا عليها.

{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} الظاهر كما قال أبو حيان أن هذا الكلام ليس من كلام بلقيس، وإن كان متصلا بكلامها، فقيل-وهو قول مجاهد-: من كلام سليمان، أي أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وكنا في كل ذلك موحدين خاضعين للّه تعالى، وقيل: من كلام قوم سليمان وأتباعه «[1]» .

قال ابن كثير: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح «[2]»، كما سيأتي.

ثم أبان اللّه تعالى عذر بلقيس في عدم إعلانها الإسلام قبل ذلك فقال:

{وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ} أي ومنعها عن عبادة اللّه وإظهار الإسلام ما كانت تعبد من غير اللّه وهو عبادة الشمس، فإنها كانت من قوم وثنيين كانوا يعبدون الشمس، فتأثرت بالبيئة التي نشأت فيها، ولم تكن قادرة على تغيير عقيدتها، حتى جاءت إلى بلاد سليمان الذي أحسن عرض الإسلام عليها، وأقنعها بصحته ووجوب الاعتقاد بوجود اللّه ووحدانيته، فهو رب الكون جميعه، ورب الكواكب كلها، شمسها وقمرها ونجومها العديدة.

{قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الصَّرْحَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً، وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها، قالَ: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ، قالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ}

---

[1] – البحر المحيط: ٧/ ٧٨.

[2] – تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٦٥.

هذا جار على عادة استقبال الملوك والرؤساء في قصور الضيافة الفخمة، فقد قال لها وفد الاستقبال السليماني: ادخلي هذا القصر المشيد العالي، فإنه بني لاستقبال العظماء، وليريها سليمان ملكا أعز من ملكها، وسلطانا هو أعظم من سلطانها، وكان صحنه من الزجاج الأبيض الشفاف، فلما رأت مدخله الفخم ظنت وجود ماء مجتمع كثير فيه، فكشفت عن ساقيها، فقال لها سليمان: إنه قصر مصنوع من الرخام الأمرد ذي السطح الأملس، ومن

الزجاج الصافي، وأن الماء يجري تحته لا فيه، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء.

وحينئذ استدلت بكل ما رأت على التوحيد والنبوة فأعلنت إسلامها، وأراد اللّه لها الخير والهداية، فقالت: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ، لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ} أي يا ربي، إني ظلمت نفسي في الماضي بعبادة غيرك، وأسلمت مع إسلام سليمان، وخضعت للّه رب العوالم كلها من الإنس والجن.

دروس وعبر وأحكام

يفهم من الآيات ما يأتي:

١-استدعى سليمان عليه السلام عرش بلقيس (كرسي الملك) من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ليريها قدرة اللّه العظمى، ويجعله دليلا على نبوته لأخذه من قصرها دون جيش ولا حرب، وقبل أن تأتي هي وجماعتها إليه مستسلمين.

٢-ظهرت قدرة اللّه على يد مؤمن عالم بكتاب اللّه وبأسراره وبالاسم الأعظم، فجيء بعرش بلقيس بسرعة خاطفة، وكان هذا العالم بإقدار اللّه وتوفيقه أقدر من عفريت الجن- وهو القوي المارد-الذي استعد للإتيان به، في زمن أطول، ولكنه سريع وقريب وقصير أيضا، إذ كان في مدة زمن القضاء اليومي، وأما زمن العالم فهو بمقدار إطباق الأجفان وفتحها.

وفي هذا دلالة على سمو مرتبة العلم ورفعة العلماء في الدنيا والآخرة إذا عملوا بعلمهم صالحات الأعمال.

قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال: إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}. وعند هؤلاء يكون ما فعل العفريت ليس من المعجزات، ولا من الكرامات، فإن الجنّ يقدرون على مثل هذا.

وعلى أي حال، تم نقل العرش من اليمن إلى الشام بقدرة اللّه العظمى، وإن وجدت الوسيلة في الظاهر، كفلق البحر لموسى عليه السلام، بضرب العصا، فإن الفالق هو اللّه تعالى، وليس العصا.

٣-إن ما حدث من إحضار العرش بهذه السرعة هو معجزة لسليمان عليه السلام، والمعجزات خوارق للعادات، لا تخضع لمقاييس الأحوال العادية، ولا يصدق بالمعجزة إلا مؤمن بقدرة اللّه، أما الكافر الملحد أو المادي الذي لا يصدق إلا بما يقدمه العلم التجريبي، فإن إقناعه بذلك عبث. وقد أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة، وتؤمن بنبوته.

٤-إن ظهور المعجزة على يد الأنبياء أمر موجب للشكر والحمد الكثير للّه عز وجل، لتأييدهم بها، ولإظهار عجزهم الحقيقي أمامها، لذا قال سليمان لما رأى العرش ثابتا مستقرا عنده: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي أي هذا النصر والتمكين من فضل اللّه ربي، لينظر أأكون شاكرا حامدا، أما كافرا بالنعمة جاحدا؟

٥-لا يرجع نفع الشكر إلا إلى الشاكر نفسه لأنه بالشكر يحقق تمام النعمة ودوامها والمزيد منها، وبه تنال النعمة المفقودة أيضا. وأما ضرر الكفر والجحود فعائد كذلك إلى الكافر نفسه، ومع كفره فإن اللّه غني عن شكره، كريم في التفضل والإنعام عليه بالرغم من الكفر.

٦-إن تنكير العرش وتغيير هيئته فيه استثارة البحث، وإمعان النظر، وإعمال العقل، وتركيز الانتباه إلى آية المعجزة، وقد بدا كل هذا في جواب بلقيس كَأَنَّهُ هُوَ. قال عكرمة: كانت حكيمة، فقالت: كَأَنَّهُ هُوَ.

وقال مقاتل: عرفته، ولكن شبّهت عليهم، كما شبّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم هو.

٧-قوله تعالى: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا} .. إذا كان من قول سليمان وهو الظاهر فيراد به أنه أوتينا العلم بقدرة اللّه على ما يشاء من قبل هذه المرة، أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها. وإذا كان من قول بلقيس، فيراد به أنه أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل آية العرش هذه، وكنا مسلمين منقادين لأمره.

٨-ما أجمل تقديم هذا الاعتذار عن تأخر إسلام بلقيس إلى لقاء سليمان، وهو تأثرها بالبيئة وعقيدة أهل المملكة، فقد منعها أن تعبد اللّه ما كانت تعبد من الشمس والقمر، وكانت من قوم كافرين غير مؤمنين بوجود اللّه ووحدانيته.

٩-أراد سليمان أيضا بالإضافة إلى إظهار المعجزة لنبوته بإحضار عرش بلقيس أن يبهرها بقوة ملكه، وعزة سلطانه، وأن ذلك أعزّ وأمنع من مملكتها الغنية، وبلادها الخصبة، وقصورها المشيدة. كما أنها شهدت في صرح سليمان فنا رائعا في البناء والهندسة المعمارية ما لا مثيل له حتى في أوج العصر الحاضر وعظمة تقدم العلم والفن في القرن العشرين، ولعل عظمة بناء المسجد الأقصى خير مثال على تقدم فن البناء وعظمته في عهد سليمان عليه السلام.

١٠-تبلورت قصة سليمان مع بلقيس في تلك الخاتمة المشرقة وهي تبرؤ بلقيس من الشرك الذي كانت عليه، وإعلان إيمانها باللّه الواحد الأحد، وإظهار إسلامها كإسلام سليمان، وخضوعها للّه رب العالمين.

وأخيرا يستطرد المفسرون في نهاية هذه القصة إلى قضية زواج سليمان عليه السلام من بلقيس، وأحسن ما أذكره هنا قول الرازي: والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها، وليس لذلك ذكر في الكتاب، ولا في خبر مقطوع بصحته، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها: اختاري من قومك من أزوجك منه، فقالت: مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني، فقال: النكاح من الإسلام، فقالت: إن كان كذلك فزوجني ذا تبّع ملك همدان،

فزوجها إياه، ثم ردهما إلى اليمن، ولم يزل بها ملكا، واللّه أعلم «[1]» .

و هكذا أيها الإخوة انضمت السيد الملكة بلقيس إلى جنود الرحمن و سطرت اسمها في أسمى و أعلى الكتب السماوية حتى يذكرها المؤمنون و المؤمنات و يأخذوا من حياتها الحنكة و الفطنة و الذكاء و سرعة الانقياد لله و لرسوله ـ ﷺ ـ فإذا جاءك الدليل من كتاب الله و سنة رسوله ـ ﷺ ـ فقل : أسلمت لله رب العالمين وانقدت لما جاء به النبي الأمين ـ ﷺ ـ {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)}["سورة النور]

الفصل الثاني

مواقف حاسمة

من

تاريخ المرأة المسلمة

[1] – التفسير المنير للزحيلي – (١٩ / ٣٠٩) و تفسير الرازي: ٢٤/ ٢٠١

أمة محمد - ﷺ -

خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها-

تعريف و تشريف: وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمها فاطمة بنت زائدة من الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر وأم فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عمر بن لؤي بن غالب بن فهر وأم هالة قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.(١)

[1]-تهذيب سيرة ابن هشام – (١ / ٥١

قال عنها رسول الله ـ ﷺ ـ: "ما أبدلني الله خيراً منها ـ آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد النساء" .(١)

عن أبي هريرة –رضي الله عنه – قال :" أتى جبريلُ النبي ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيتٍ في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " .(٢)

عن علي رضي الله عنه– ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال :" خيرُ نسائها مريم بنت عمران ، وخيرُ نسائها خديجة بنت خويلد".(٣)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطَّ رسول الله في الأرض أربعة خطوط فقال : " تدرون ما هذا ؟"

فقالوا : الله ورسوله أعلم فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: " أفضل نساء أهل الجنَّة خديجةُ بنتُ خويلد وفاطمة بنتُ محمدٍ وآسية بنتُ مزاحم امرأة فرعون ومريمُ ابنة عمران رضي الله عنهن أجمعين ".(٤)

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء جبريلُ إلى النبي ـ ﷺ ـ وعنده خديجة فقال:" إن الله يقرىء خديجة السلام " فقالت : إن الله هو السلام ، وعلى جبريل السلام وعليك السلامُ ورحمةُ الله وبركاته .(٥)

وعن عبد الله ابن أبي أوفى، وعن عائشة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: "بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.(٦)

---

١ –مسند أحمد برقم (٢٤٧٤٥).

٢ –رواه البخاري ومسلم.

٣– رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ومسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٣٠) .

٤ –رواه أحمد، "صحيح الجامع" برقم (١١٣٥).

٥– رواه مسلم، والنسائي.

٦ –أخرجه البخاري برقم (١٦٩٩)، ومسلم برقم (٢٤٣٥).

وعن أنس ـ ﷺ ـ: "حسبك من نساء العالمين : مريم بنت عمران و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد و آسية امرأة فرعون" .(١)

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على نساء النبي ـ ﷺ ـ إلا على خديجة وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا ذبح الشاة فيقول : "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة" ، قالت : فأغضبته يوماً فقلت : خديجة ، فقال : "إني قد رُزِقْتُ حُبَّها" .(٢)

وفي رواية عنها أيضاً، قالت: "ما غرت على امرأةٍ للنبي ـ ﷺ ـ ما غرتُ على خديجة ، هلكت قبل أن يتزوجني لما كنتُ أسمعه يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيتٍ من قصبٍ ، وإن كان ليذبح الشاة منها ما يسعهن" .(٣)

وكانت عائشة تقول للنبي – ـ ﷺ ـ إذا أكثر من ذكر خديجة : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول: "إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد" .(٤)

قوله – رضي الله عنهما –: "إنها كانت وكانت"، أي: كان فاضلة وكانت عاقلة ونحو ذلك.

زواجها من النبي ـ ﷺ ـ

سمعت خديجة عن صدق محمد بن عبد الله قبل البعثة، وقبل الرسالة، فلقد شهد اجتماع مكة في دار الندوة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالصدق والأمانة قبل أن يبعث، يوم أن دخل عليهم وهم يختلفون: من الذي سيضع الحجر الأسود في مكانه، ويوم أن التفتت الأنظار وشخصت تجاه الباب، وإذ بهم يرون محمداً ـ ﷺ ـ ، فهتفوا جميعاً على لسان رجل واحد: لقد دخل عليكم محمد الأمين، لقد أطلق أهل مكة في دار الندوة على محمد لقب الأمين قبل البعثة.

---

١ –صحيح الجامع حديث رقم (٣١٤٣) و (٣٣٢٨).

٢– أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة.

٣– رواه البخاري ومسلم.

٤ –أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها.

فلما سمعت خديجة عن أمانته وعن صدقه وعن عفته؛ أرسلت إليه ليتاجر بمالها، ولبى النبي ـ ﷺ ـ ذلك تلبية لرغبة عمه أبي طالب ، وذهب النبي عليه الصلاة والسلام ليتاجر لـ خديجة بمالها، وعاد غلامها ميسرة -الذي لا نعلم عنه شيئًا في الإسلام كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة- ليحدثها عن أمانة محمد، وعن صدق محمد، وعن وفاء وإخلاص وبر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

ودب الحب في قلب خديجة رضي الله عنها لهذا الصدق وهذه الشيم وتلك الأخلاق الكريمة التي سمعت في رسول الله ـ ﷺ ـ.

وقد أجمعت الروايات كلها على: أن خديجة رضي الله عنها هي التي خطبت رسول الله ـ ﷺ ـ ؛ لتتشرف بالزواج منه، ولن نقف طويلاً عند هذه الأحداث الصغيرة، وذهب النبي ـ ﷺ ـ إلى خديجة رضي الله عنها ليخطبها مع أعمامه، وعلى رأسهم حمزة و أبو طالب ، ووقف أبو طالب عم النبي ـ ﷺ ـ ليخطب خديجة رضي الله عنها، وكان من أروع ما قاله أبو طالب حيث قام خطيبًا: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وفرع إسماعيل، وجعلنا حجبة البيت وسواس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوبًا وحرمًا آمنًا، ثم إن هذا ابن أخي محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ الذي لو وزن به أي شريف من أشراف مكة شرفًا وعقلاً ونبلاً وفضلاً لرجحه محمد، ومحمد من قد عرفتم، وقد جاء اليوم يخطب خديجة ، فله رغبة فيها، ولها رغبة فيه، وما أحببتم من الصداق فعلي.

هذه هي خطبة أبي طالب.

فقام عمها عمر بن أسد، ونظر إلى أبي طالب وقال: هو الفحل لا يقدح أنفه.

أي: هو الكريم الذي لا يرد.

صبر وإنفاق خديجة -رضي الله عنها-

ونزل عليه بعد ذلك قول الله جل وعلا: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } [المدثر:١-٥]، نزل عليه صدر سورة المدثر فبدأ النبي ـ ﷺ ـ يدعو إلى الله تبارك وتعالى، ولاقى من أصناف العذاب والاضطهاد والبلاء ما تنوء

بحمله الجبال الراسيات، وكان في كل مرة يرجع إلى بيته النقي التقي ليجد في بيت خديجة رضي الله عنها وأرضاها السكينة.

أيها الأحبة! ضربت خديجة رضي الله عنها أروع الأمثلة في الصبر على البلاء، والوفاء لزوجها، والإيثار، والجود، والمحبة، والإخلاص، والكرم، وكانت تشد من أزره، وتقف خلفه ليدعو إلى الله جل وعلا، حتى بلغ البلاء أقصاه، ودخل المسلمون في حصار اقتصادي رهيب، وهي دندنة قديمة حديثة من أهل الكفر والشرك على أهل التوحيد والإيمان في كل زمان ومكان، فرض على المسلمين حصار اقتصادي رهيب من المشركين في مكة، واستمر هذا الحصار ثلاثة أعوام، ودخل في هذا الحصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته الصابرة الوفية خديجة رضي الله عنها، وقدمت كل ما تملك من مال، واتصلت بابن عمها وابن خالها ليأتي بالطعام للمسلمين المحاصرين في هذا الشعب، الذين أكلوا ورق الشجر مع رسول الله ـ ﷺ ـ ، فما صدهم ذلك عن دين الله جل وعلا، ولا عن نصرة رسول الله ـ ﷺ ـ.

وأخيراً -أيها الأحباب-نصر الله عبده وعباده، وأخرجهم من هذا الحصار، وقد انتصروا انتصاراً إيمانيًا كبيراً على أنفسهم، وعلى ذواتهم، وعلى الوقوف إلى جوار نبيهم، وعلى نصرة نبيهم ـ ﷺ ـ.

من المواقف الحاسمة من حياة السيدة الطاهرة – رضي الله عنه –

كان أول موقف يوضح نبل خديجة ووفائها وحكمتها وحلمها وحصافة عقلها يوم نزل الوحي على رسول الله ـ ﷺ ـ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان أول ما بدئ به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ (وهو التعبد الليالي ذوات العدد) ـ قبل أن يرجع إلى أهله

ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، فجاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال :"ما أنا بقارئ" قال : فأخذني : فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت:"ما أنا بقارئ" فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ". فأخذني فغطني الثالثة ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى دخل على خديجة رضي الله عنها فقال :" زملوني ، زملوني " حتى ذهب عنه الروع ، فقال :" يا خديجة مالي " فأخبرها الخبر ، فقال :" قد خشيت على نفسي " فقالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصِل الرحِم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن عم لها وقد كان شيخا كبيراً وقد تنصر في الجاهلية فقالت له أي ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال: يا ابن أخي ماذا ترى ؟

وأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا وأكون حيًا حين يخرجك قومك وأنصرك نصراً مؤزراً. (١)

فخففت بهذه الكلمات الطيبات، ما كان يجده النبي في نفسه في ثوان معدودات، ولم يجف ريقها رضي الله عنها من هذا الكلام حتى انطلقت مسرعة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، تنقل له خبر ما وقع لزوجها، لأنه كان امرأ تنصر في الجاهلية يكتب الكتاب العبراني والإنجيل، فطمأنها بأنه رسول هذه الأمة وأن الوحي قد جاءه كما جاء لموسى ومن قبله من الأنبياء.

وهكذا كان لخديجة شرف الإسلام الأول، وشرف العلم بالوحي المنزل وشرف احتضانها لرسول الله بعد الأمر الذي نابه، وتخفيفها لشدة الوطء الذي أصابه، وكان هذا دأبها معه حتى ماتت، قال ابن إسحاق: (وكان لا يسمع شيئًا يكرهه من رد عليه وتكذيب

---

١ – رواه البخاري في كتاب "بدء الوحي" برقم (٣/١) ، ومسلم في كتاب "بدء الوحي" برقم (٣٧٩/١) .

له فيحزنه إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس).

ولها قصة ثانية:

قال ـ ﷺ ـ: {يا خديجة! أرى رجلاً يدخل على البيت! قالت: تعال، فجعلته عن يمينها ـ ﷺ ـ قالت: أتراه؟

قال: نعم.

فجعلته عن يسارها قالت: أتراه؟

قال: نعم.

فكشفت عن شيء من رأسها فقالت: أتراه؟

قال: لا.

قالت: هذا مَلَك وليس بشيطان} لأن الملك لا ينظر إلى المرأة.

دروس وعبر

قوة يقين خديجة رضي الله عنها

فهذه خديجة رضي الله عنها التي كان لها الفضل العظيم في تثبيت زوجها محمد ـ ﷺ ـ، وأنها قالت له: (كلا والله، لا يخزيك الله أبداً) ثم استدلت من سيرته عليه الصلاة والسلام ومن خبره وحاله وما تراه من شأنه في الاستدلال على أنه على صراط مستقيم.

مؤانسة المرأة لزوجها خديجة للنبي ـ ﷺ ـ حال المواقف الحرجة كذلك فإنها آنسته بذكر ما ييسر عليه الأمر ويهونه عليه، وأنَّ من نزل به أمر يستحب له أن يطلع من يثق بنصيحته وصحة رأيه، وهكذا لجأ إليها ـ ﷺ ـ، أول ما لجأ ـ ﷺ ـ بعد ذلك الموضوع المخيف الذي حصل له عليه الصلاة والسلام لجأ إلى زوجته الأمينة وهو يقول: (لقد خشيت على نفسي) ثم قامت بواجبها خير قيام في إلقاء الطمأنينة في نفسه وإشاعة الأمن في قلبه رضي الله تعالى عنها، وهذا مما يدل على قوة قلبها، ويقينها، ورزانة عقلها، وثبات أمرها، فلا جرم أنها كانت أفضل نسائه صلى الله عليه وسلم على الراجح،

منزلة خديجة ومريم ابنة عمران في الأفضلية:

كذلك فإنها قد ساوت مريم بنت عمران لما ذكرهما معاً في هذا الحديث، وإذا كانت مريم خير نساء زمانها، فإن خديجة رضي الله تعالى عنها خير نساء زمانها، وقد جاء في رواية عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: (لقد فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين) ([1])وهذا حديث حسن الإسناد كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، واستدل به من استدل على أن خديجة أفضل من عائشة ، ونسائها يشمل كل امرأة على الأرض ممن كانت موجودة في زمن خديجة وممن ستوجد بعد ذلك.

عن ابن عباس مرفوعاً: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة و فاطمة و مريم و آسية)([2]) فهؤلاء خير نساء الجنة، وقد قال ـ ﷺ ـ أيضاً: (سيدة نساء العالمين مريم ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية)،([3]) وقيل: إن مريم نبية، وقال بعضهم إنها ليست بنبية، لأنه لا يبعث من الأنبياء إلا رجال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً } [يوسف:١٠٩].

جميع أولاد النبي ـ ﷺ ـ من خديجة إلا إبراهيم:

وقوله ـ ﷺ ـ: (وكان لي منها ولد) لأن جميع أولاد النبي ـ ﷺ ـ من خديجة إلا إبراهيم ، فإنه كان من جاريته مارية ، وأولاده ـ ﷺ ـ من خديجة : القاسم وبه يكنى عليه الصلاة والسلام، مات صغيراً قبل البعثة أو بعدها، وكذلك بناته الأربع: زينب و رقية و أم كلثوم و فاطمة ، وقيل: إن أم كلثوم كانت أصغر من فاطمة ، و عبد الله ولد بعد المبعث، فكان له الطيب أو الطاهر ، ويقال: هما أخوان له، فإذاً القاسم و عبد الله ، ويقال: إن لقب عبد الله الطاهر أو الطيب، ويقال: هما أخوان مستقلان، وكل الذكور ماتوا صغاراً، فهو عليه الصلاة والسلام له أجر فقد الولد، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن أجر فقد الولد الذي

---

[1] – «كشف الأستار: ٢٣٦/٣؛ وقال الهيثمي: رواه الطبراني والبزار وفيه أبو يزيد الحميري ولم أعرفه: ٢٢٢/٩.»

[2] – «المسند ٤/ ٤٠٩ (٢٦٦٨)، ومسند أبي يعلى ٥/ ١١٠ (٢٧٢٢) وإسناده صحيح. وصحّحه الحاكم ٢/ ٥٩٤، ٣/ ١٨٥ على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحّحه ابن حبّان ١٥/ ٤٧٠ (٧٠١٠).»

[3] – «أنيس الساري (تخريج أحاديث فتح الباري)» (٥/ ٣٣٣٦)

لم يبلغ الحلم (وأنه يأتي إلى باب الجنة يفتحه لأبيه) تقول عائشة رضي الله عنها: (فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة ! فقال: إني رزقت حبها) (١) وكان حبه ـ ﷺ ـ لـ خديجة لما تقدم ذكره من الأسباب، وهي كثيرة، كل واحد يكفي ليكون سبباً مستقلاً لوجود المحبة.

سبق خديجة نساء الأمة إلى الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام

ومما اختصت به خديجة رضي الله عنها: أنها سبقت نساء الأمة كلها في الإيمان، وهذا يمكن أن يكون من أفضل ما حصل من الخير لهذه المرأة، ولذلك سنت لكل من آمنت بعدها من النساء سنة حسنة، فيكون لها مثل أجورهن؛ لأن من سنَّ سنةً حسنة، كان له أجرها وأجر من استن بها إلى يوم القيامة، وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة للرجال، ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب إلا الله عز وجل، لأن الصديق فتح الباب، فسنَّ السنة للرجال، و خديجة فتحت الباب فسنت السنة للنساء، فكل امرأة بعد خديجة تكون مقتدية بـ خديجة ، فلـ خديجة مثل أجرها، وكونه عليه الصلاة والسلام عاش معها في هذا الوفاء فإنه يدل على حسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حياً وميتاً، لأن حسن العهد من الإيمان، كون الإنسان يكون وفياً لصاحبه الذي عاش معه السنوات الطويلة هذا من الإيمان.

وكذلك في هذا الحديث إكرام وإعانة الصديق والصاحب؛ لو مات لك صاحب عزيز، فإكرام أصدقائه من السنة، والنبي عليه الصلاة والسلام لما ماتت زوجته خديجة ، أكرم صويحباتها؛ لأجل خديجة ، وكان يهديهن ويذبح لهن الشاة ولا ينساهن.

---

١ –«رواه البخاري ٧ / ١٠٢ في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها، وفي النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، وفي الأدب حسن العهد من الإيمان، وفي التوحيد، باب قول الله تعالى: {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} ، ومسلم رقم (٢٤٣٤) و (٢٤٣٥) و (٢٤٣٦) و (٢٤٣٧) في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، والترمذي رقم (٣٨٨٥) و (٣٨٨٦) في المناقب، باب مناقب خديجة رضي الله عنها.»

مواقف حاسمة من تاريخ عائشة رضي الله عنها

ترجمتها: عائشة أم المؤمنين: بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، بن كعب بن لؤي ؛ القرشية التيمية، المكية، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي ـ ﷺ ـ ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق.

وأمها هي أم رومان بنت عامر بن عويمر، بن عبد شمس، بن عتاب ابن أذينة الكنانية.

هاجر بعائشة أبواها، وتزوجها نبي الله قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرا، وقيل: بعامين.

ودخل بها في شوال سنة اثنتين، منصرفه عليه الصلاة والسلام من

غزوة بدر، وهي ابنة تسع.

فروت عنه علماء كثيرا طيبا مباركا فيه. (١)

عن عمرو بن العاص –وهو ممن أسلم في السنة الثامنة للهجرة–أنه سأل النبي ـ ﷺ ـ وقال له: (أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها))(٢)

عن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة) لمعرفة الصحابة محبة النبي عليه الصلاة والسلام لـ عائشة، فقد كانوا يهدون إليه في اليوم الذي يكون عندها، حتى يكون ذلك اليوم أكثر سعداً وفرحـًا لرسول الله ـ ﷺ ـ ، تقول عائشة : (فاجتمعن صواحبي إلى أم سلمة) وكانت أم سلمة من كبار أزواج النبي ـ

---

١ – طبقات ابن سعد م: ٨ / ٥٨ –٨١، التاريخ لابن معين: ٧٣، ٧٣٨، طبقات خليفة: ٣٣٣، تاريخ خليفة: ٢٢٥، المعارف: ١٣٤، ١٧٦، ٢٠٨، ٥٥٠.

تاريخ الفسوي: ٣ / ٢٦٨، المستدرك: ٤ / ٤ –١٤، حلية الأولياء: ٢ / ٤٣، الاستيعاب: ٤ / ١٨٨١، جامع الأصول: ٩ / ١٣٢، أسد الغابة: ٧ / ١٨٨، تهذيب الكمال: ١٦٨٨، تاريخ الإسلام: ٢ / ٢٩٤، البداية والنهاية: ٨ / ٩١، ٩٤، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٢٥ –٢٤٤، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٣٣ –٤٣٦، الإصابة: ١٣ / ٣٨، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩٣، كنز العمال: ١٣ / ٦٩٣ شذرات الذهب: ١ / ٩ و ٦١ – ٦٣.

٢ – أخرجه أحمد ح ٢٦٠٨٨ ومصنف ابن أبي شيبة (ح٣٢٦٢١

ﷺ ـ سنـًا، وسيأتي تفصيل الحزبين اللذين كانا في أزواج النبي عليه الصلاة والسلام بحكم طبيعة المرأة وغيرتها.

قالت: (فجئن إلى أم سلمة فقلن لها: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة ، فقولي لرسول الله ـ ﷺ ـ يأمر الناس أن يهدوا له أينما كان.

فذكرت أم سلمة ذلك له فسكت فلم يرد عليها، فعادت الثانية فلم يرد عليها، فلما كان الثالثة قال: يا أم سلمة! لا تؤذيني في عائشة؛ فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) (١) وهذه فضيلة لها عن باقي أزواج النبي ـ ﷺ ـ.

علمها:

قال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزوجه وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة رضي الله عنها أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيـًا في العامة.

وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة رضي الله عنها.

وهذه الرواية عن عروة تروى بوجه آخر مفصل يبين لنا أن عائشة كانت على ذكاء وافر وفطنة عجيبة، يقول عروة -وهو ابن أختها-: صحبت عائشة رضي الله عنها فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بقضاء ولا طب منها.

وكونها تعلم علم القرآن والسنة والفقه لا غرو في ذلك؛ فقد كانت زوجة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

يقول عروة: قلت لها: يا خالة! الطب من أين علمتيه؟ أي: عرفنا أنك علمت الفقه والأحكام من الرسول عليه الصلاة والسلام، والنسب من أبي بكر، والشعر من حسان ، لكن من أين لك هذا الطب؟ فقالت: كنت أمرض فينعت لي رسول الله ـ ﷺ ـ الشيء

---

١ – أخرجه البخاري (ح : ٣٧٧٥) والترمذي (ح: ٣٨٧٩).

لأتعالج به، ويمرض المريض فينعت له رسول الله ـ ﷺ ـ، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه)، فكانت رضي الله عنها طبيبة قلوب وطبيبة أبدان، فهذا يدل على الفطنة، ويدل على أن عائشة لم تكن اهتماماتها اهتمامات سطحية كحال بعض نسائنا اليوم.

وعن الشعبي أن عائشة رضي الله عنها قالت: (رويت للبيد نحواً من ألف بيت) وكان الشعبي يذكرها –أي: عائشة – فيتعجب من فقهها وعلمها، فإذا كان هذا العلم الذي تحفظه فما ظنك بالتربية العلمية والعملية التي تلقتها من رسول الله ـ ﷺ ـ.

ومن هنا لجأ إليها الصحابة رضوان الله عليهم ونهلوا من علمها وأخذوا من فقهها كثيراً.

قال ابن سعد في الطبقات: كانت عائشة رضي الله عنها أعلم الناس، يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ.

وقال أيضـًا: ما كان أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام يشكون في شيء إلا سألوا عنه عائشة ، فيجدون عندها من ذلك علمـًا.

بل قد صنف الزركشي كتابـًا كاملاً سماه: "الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة" أي: فيما استدركت عليهم من الأخطاء التي وقعوا فيها، أو الأقوال التي خالفتهم فيها بحجة ودليل من رسول الله ـ ﷺ ـ.

المعاملة الزوجية بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين عائشة –رضي الله عنها–

عائشة رضي الله عنها، كما ورد في الصحيح عن عائشة تقول: (لقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد، وإنه ليسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقف من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو) (١)

قال المهلب: المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين، فما كان من الأعمال مما يجمع منفعة الدين وأهله، فهو جائز فى المسجد، واللعب بالحراب من تدريب الجوارح على

---

١ – أخرجه أحمد ٢٥٣٧٢ و البخاري (ح: ٤٥٤)(و مسلم ح: ٨٩٢).

معاني الحروب، وهو من الاشتداد للعدو، والقوة على الحرب فهو جائز في المسجد وغيره.

وفيه: جواز النظر إلى اللهو المباح وقد يمكن أن يكون ترك الرسول عائشة لتنظر إلى اللعب بالحراب؛ لتضبط السنة في ذلك وتنقل بعض تلك الحركات المحكمة إلى بعض من يأتى من أبناء المسلمين وتعرفهم بذلك.

وفيه: من حسن خلق الرسول وكريم معاشرته لأهله ما يلزم المسلم امتثاله والاقتداء به فيه، ألا ترى وقوفه عليه السلام وستره لعائشة وهى تنظر إلى اللعب!.(١)

فهذا الرسول عليه الصلاة والسلام -وهو من هو عظمة- يتودد إلى عائشة ، ويمكنها من أن ترى بعض ما يدخل السرور على نفسها، ويقف لأجلها حتى يكون رداءاً وساتراً لها، ولا يتحرك حتى تنتهي من مطالعتها ومن متعتها وسرورها تلطفاً منه عليه الصلاة والسلام ومراعاة لها ولسنها، فما بال الرجال يأنفون من أقل من هذا بكثير، بل يستكثرون به على أزواجهم، ويظنون أن في ذلك إذهاباً لهيبتهم، وأنه لا بد أن يكون الواحد منهم متجهم الوجه، مقطب الجبين، ينظر بعينه شزراً، وتتقد عينه جمراً، وإن لم يكن كذلك فلا يكون رجلاً، هذا لا شك أنه من فرط الجهل لأصول المعاشرة.

فإن الإنسان قد يتوقى ويتحرز من الناس البعيدين أو الأغراب، أما من تكثر الخلطة معهم فلا بد من أن تكون معهم على لين وتودد وتلطف، وعلى ترسل في المعاملة من غير تكلف، وعلى إبداء ما عندك دون حرج؛ لأنك ستلقاهم كل يوم، فلو تحفظت وتحرجت وتهيبت فإنك لا تستطيع أن تستمر على ذلك.

قد ترى الإنسان عندما تتعرف إليه أول أمره لا يتكلم معك في خاص أموره، ولا فيما يتعلق ببعض ما يحترز منه من الدعابة أو المزاح أو كذا، لكن إذا أكثرت خلطته وعشرته بدا لك منه كل شيء، فكيف يكون الرجل مع زوجته وهي أقرب الناس إليه وأكثرهم عشرة له ثم لا يتلطف ولا يتودد ولا يكون في سيرته معها على ما هو طبعه وسجيته دون

---

١ - شرح ابن بطال -(٣ / ١٢٦)

أن يكون متكلفاً ولا متجهماً؟! وكذلك من لطائف هذه المعاملة الزوجية ما ورد في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ـ ﷺ ـ قال لها: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى).

ليس هناك من غضاضة ولا جرم ولا كبيرة من الكبائر أن تغضب المرأة على زوجها، لما قد يقع من أسباب الاختلاف المعتادة في حياة الناس، ولكن انظر إلى أدب عائشة وإلى فطنة رسول الله ـ ﷺ ـ، فقالت له: (كيف ذاك يا رسول الله -أي: كيف تعرف رضاي من غضبي-؟! فقال: إذا كنت راضية عني قلت: لا ورب محمد.

وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم، فقالت عائشة رضي الله عنها: أجل والله ما أهجر -يا رسول الله-إلا اسمك)(١)

يقول ابن حجر -رحمه الله- يؤخذ منه استقراء الرجل حال المرأة من فعلها وقولها فيما يتعلق بالميل إليه وعدمه ، والحكم بما تقتضيه القرائن في ذلك ، لأنه ـ ﷺ ـ جزم برضا عائشة وغضبها بمجرد ذكرها لاسمه وسكوتها ، فبنى على تغير الحالتين من الذكر والسكوت تغير الحالتين من الرضا والغضب ، ويحتمل أن يكون انضم إلى ذلك شيء آخر أصرح منه لكن لم ينقل

وقول عائشة " أجل يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك "

قال الطيبي: هذا الحصر لطيف جدا لأنها أخبرت أنها إذا كانت في حال الغضب الذي يسلب العاقل اختياره لا تتغير عن المحبة المستقرة فهو كما قيل :

إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل

وقال ابن المنير: مرادها أنها كانت تترك التسمية اللفظية ولا يترك قلبها التعلق بذاته الكريمة مودة ومحبة ا هـ .

---

١ – أخرجه أحمد ٢٤٣٦٣ والبخاري (ح: ٥٢٢٨)(مسلم ح: ٢٤٣٩).

وفي اختيار عائشة ذكر إبراهيم عليه السلام دون غيره من الأنبياء دلالة على مزيد فطنتها، لأن النبي ـ ﷺ ـ أولى الناس به كما نص عليه القرآن ، فلما لم يكن لها بد من هجر الاسم الشريف أبدلته بمن هو منه بسبيل حتى لا تخرج عن دائرة التعلق في الجملة .

وقال المهلب: يستدل بقول عائشة على أن الاسم غير المسمى إذ لو كان الاسم عين المسمى لكانت بهجره تهجر ذاته وليس كذلك.

ثم أطال في تقرير هذه المسألة ومحل البحث فيها كتاب التوحيد حيث ذكرها المصنف، أعان الله تعالى على الوصول إلى ذلك بحوله وقوته.(١)

ومن حسن عشرة النبي ـ ﷺ ـ لها انه سابقها – رضي الله عنها –عن عائشة قالت: خرجت مع النبي ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن فقال للناس تقدموا فتقدموا ثم قال لي تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقته فسكت عنى حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس تقدموا فتقدموا ثم قال تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل يضحك وهو يقول هذه بتلك (٢)

(هذه بتلك السبقة) أي: هذه السبقة التي حصلت هذه المرة بتلك السبقة التي حصلت فيما مضى، وهذا يدل على كمال أخلاقه ـ ﷺ ـ، وحسن عشرته لأهله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.)) (٣)

موقف جميل جداً لعل الواحد منا يتنزه عما هو أقل منه، ويرى أن ذلك خارم لمروءته وجارح في عدالته وإنزال من منزلته، فإذا ظن ذلك فليستغفر؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك، ولنا فيه قدوة وأسوة حسنة، فإنه كان يتلطف بهذا، وهذا يدلنا أيضـًا على عظمة رسول الله عليه الصلاة والسلام من وجه آخر، فإنه كان يجيش الجيوش، ويدرس الدروس، ويربي الرجال، ولم يشغله كل ذلك عن أن يكون مؤديـًا

---

١ – فتح الباري لابن حجر –(١٥ / ٣٥)

٢ – أخرجه أحمد ح ٢٦٣٢٠ وأبو داود (ح: ٢٥٧٨) والحميدي (ح: ٢٦١) والنسائي في الكبرى (ح:٨٩٤٣) وابن حبان في صحيحه (ح: ٤٦٩١)و الطبراني في الكبير (ح: ١٩٠٧٨).

٣ – شرح سنن أبي داود –عبد المحسن العباد – (١ / ٢)

لحق أهله ومراعياً لزوجته حتى في تفرغه لمسابقتها ومداعبتها وملاعبتها، وغير ذلك من الأمور التي ينشغل عنها الناس اليوم، ولا يفطنون لها ولا يتوددون بها إلى أزواجهم، فتبقى الحياة كاحتكاك الحديد بالحديد ليس هناك بينهما حسن التلطف والتودد الذي يزيل هذا الاحتكاك ويجعل المسائل على أحسن وجه مما يجعل الحياة الزوجية هانئة سعيدة.

وهنا أيضاً حادثة لطيفة فيما يتعلق بين الزوجات مع أزواجهن، والرواية عن القاسم عن عن عائشة أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة لعائشة وحفصة وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث فقالت حفصة ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك تنظرين وأنظر فقالت بلى فركبت فجاء النبي ـ ﷺ ـ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا وافتقدته عائشة فلما نزلوا جعلت رجليها بين الإذخر وتقول يا رب سلط علي عقربا أو حية تلدغني ولا أستطيع أن أقول له شيئا (١)

يقول ابن حجر – رحمه الله–قوله (ألا تركبين الليلة بعيري إلخ)

كأن عائشة أجابت إلى ذلك لما شوقتها إليه من النظر إلى ما لم تكن هي تنظر، وهذا مشعر بأنهما لم يكونا حال السير متقاربتين بل كانت كل واحدة منهما من جهة كما جرت العادة من السير قطارين، وإلا فلو كانتا معا لم تختص إحداهما بنظر ما لم تنظره الأخرى، ويحتمل أن تريد بالنظر وطأة البعير وجودة سيره.

قوله (فجاء النبي ـ ﷺ ـ إلى جمل عائشة وعليه)

في رواية حكاها الكرماني " وعليها " وكأنه على إرادة الناقة. (٢)

فهذه مواقف يسيرة من معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام لـ عائشة رضي الله عنها، وحسن أدب عائشة مع المصطفى عليه الصلاة والسلام.

---

١ – أخرجه البخاري (ح: ٥٢١١)، ومسلم (ح: ٢٤٤٥)

٢ – فتح الباري لابن حجر – (١٥ / ١٠).

وهذا كله يدلنا على ما ينبغي أن يكون بين الرجل وزوجته.

عن عائشة: أن نساء رسول الله ـ ﷺ ـ كن حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفيه وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر أزواجه.

وكانوا المسلمون قد علموا حب رسول الله ـ ﷺ ـ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أخرها، حتى إذا كان في بيت عائشة بعث بها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ في بيت عائشة.

فتكلم حزب أم سلمة فقلن لها: كلمي رسول الله ـ ﷺ ـ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله هدية فليهد إليه حيث كان من نسائه.

فكلمته أم سلمة بما قلن.

فلم يقل لها شيئا.

فسألنها.

فقالت: ما قال لي شيئا.

فقلن: كلميه.

قالت: فكلمته حين دار إليها.

فلم يقل [لها] شيئا.

فسألنها.

فقالت: ما قال لي شيئا.

فقلن [له]: كلميه.

فدار إليها فكلمته.

فقال لها: " لا تؤذيني في عائشة.

فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب

امرأة إلا عائشة ".

فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ، فأرسلت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، تقول: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر.

فكلمته، فقال: " يا بنية، ألا تحبين ما أحب " ؟ قالت: بلى.

فرجعت إليهن وأخبرتهن.

فقلن: ارجعي إليه.

فأبت أن ترجع.

فأرسلن زينب بنت جحش.

فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك الله العدل في ابنة أبي قحافة.

فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة، وهي قاعدة، فسبتها، حتى إن رسول الله ـ ﷺ ـ لينظر إلى عائشة هل تتكلم.

قال: فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها.

فنظر النبي ـ ﷺ ـ إلى عائشة، وقال: إنها ابنة أبي بكر (١).

تبرئة الله تعالى لها من فوق سبع سماوات حادثة الإفك

أخي المسلم. أختي المسلمة: إن من أشهر المواقف الحاسمة التي مرت بها المرأة المسلمة عبر التاريخ موقف الصديقة بنت الصديق المبرئة من وق سبع سماوات الطاهرة التي هي اطهر ن الطهر و اعف من العفة نفسها الذي خاض في عرضها المنافقون وولج في الكلام عن شرفها لكذابون من غير ما بينة و لا دليل إنما هو الحقد الدفين على إمام المرسلين و خاتم النبيين ـ ﷺ ـ و تعال أخي المسلم أختي المسلمة لنشاهد أحداث هذا الحدث فلا فصلا من خلال صاحبة الحدث و هي تقص علينا ما أصابها :

عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ـ ﷺ ـ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا وكل حدثني طائفة من الحديث وبعض حديثهم يصدق بعضا وإن كان بعضهم أوعى له

---

١ – البخاري ٧ / ٧٣ في فضائل أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: باب فضل عائشة، وفي الأطعمة: باب الثريد، وباب ذكر الطعام، ومسلم (٢٤٤٦) في فضائل الصحابة: باب فضل عائشة رضي الله عنها، والترمذي (٣٨٨٧).

من بعض الذي حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ـ ﷺ ـ معه قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ـ ﷺ ـ بعدما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ ﷺ ـ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم إنما تأكل العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي و والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ـ ﷺ ـ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها

عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح

بن أثاثة فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا قالت أي هنتاه أولم تسمعي ما قال قالت قلت وما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ـ ﷺ ـ تعني سلم ثم قال كيف تيكم فقلت أتأذن لي أن آتي أبوي قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت فأذن لي رسول الله ـ ﷺ ـ فجئت أبوي فقلت لأمي يا أمتاه ما يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها قالت فقلت سبحان الله أولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ـ ﷺ ـ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك قالت بريرة لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت فقال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال

لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ـ ﷺ ـ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ـ ﷺ ـ يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني قالت فتشهد رسول الله ـ ﷺ ـ حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي أجب رسول الله ـ ﷺ ـ فيما قال: قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ـ ﷺ ـ فقلت لأمي أجيبي رسول الله ـ ﷺ ـ قالت ما أدري ما أقول لرسول الله ـ ﷺ ـ قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبي يوسف قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ ﷺ ـ في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله ـ ﷺ ـ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه قالت فلما سري عن رسول الله ـ ﷺ ـ سري عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك فقالت أمي قومي إليه قالت فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل فأنزل

الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو بكر بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال يا زينب ماذا علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرا قالت وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك (١)

دروس وعبر وفوائد

قال المهلب: وفى حديث الإفك من الفقه سوى ما مر منه فى غير هذا الموضع خروج النساء إلى حاجة الإنسان بغير إذن أزواجهن.

وفيه: خدمة الرجال لما يركبنه النساء من الدواب، واحتمالهن فى الهوادج.

وفيه: ترك مكالمة النساء ومخاطبتهن فى ذلك.

وفيه: كتم ما يقال فى الإنسان من القبيح عنه، كما كتم قول الناس فى عائشة عنها حتى أعلمتها أم مسطح به.

وفيه: تشكي السلطان والإمام بمن يؤذيه فى أهله، وفى غير ذلك إلى المسلمين والاستعذار منه.

---

١ – حادثة الإفك، رواها البخاري في تفسير سورة النور برقم (٤٧٥٠) باب (٦) عن عائشة رضي الله عنها.

الإفك: يقال: إفكهم أفكهم وأفكهم فمن قال أفكهم يقول: حرضهم على الإيمان وكذبهم كما قال تعالى ﴿**يؤفك عنه من أفك**﴾ يصرف عنه من صرف.والإفك : الكذب، وقيل هو أشد أنواع الكذب يقال رجل أفاك : أي كذاب .

وقال البخاري رحمه الله تعالى: والأفك بمنزلة النَّجْس والنَّجَس."أفكه" أي قلبه وصرفه عن الشيء ومنه قوله تعالى ﴿أجئتنا لتأفكنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾.

وفيه: مشاورة الرجل بطانته فى فراق أهله لقول قيل.

وفيه: الكشف والبحث عن الأخبار الواردة إن كان له نظائر أم لا، لسؤال النبى ـ ﷺ ـ بريرة وأسامة وزينب وغيرهم من بطانته عن عائشة، وعن سائر أفعالها وما يغمص عليها، والحكم بما يظهر من الأفعال على ما قيل.

وفيه: أن المرأة لا تخرج إلى دار أبويها إلا بإذن زوجها.

وفيه: فضيلة من شهد بدرًا من المسلمين وأن الدعاء عليهم وجفاء الكلمة منهم مما يجب أن ينكر كما أنكرته عائشة على أم مسطح فى ابنها مع ما للأبوين من المقال مما ليس لغيرهما.

وفيه: توقيف المقول فيه على ما يقال وأمره بالتوبة إن كان أذنب.

وفيه: أن الاعتراف بما فشا من الباطل لا يحل ولا يجمل.

وفيه: أن عاقبة الصبر الجميل فيه الغبطة والعزة فى الدارين.

وفيه: أن النبي ـ ﷺ ـ ليس كان يأتيه الوحي متى أراد لبقائه شهرًا لا يوحى إليه.

وفيه: ترك حد من له منعة والتعرض لما يخشى من تفرق الكلمة وظهور الفتنة، كما ترك النبي ـ ﷺ ـ التعرض لحد عبد الله بن أبى ابن سلول.

وفيه: غضب المسلمين لعرض إمامهم وسلطانهم.

وفيه: أن المعصية تنقل عن اسم الصلاح كما نقلت سعد بن عبادة من الصلاح عصبيته لعبد الله بن أبى عن حاله؛ لقول عائشة: « وكان قبل ذلك رجلا صالحًا » .

وفيه: أنه قد يسب الرجل أو يرمى بشيء نسب إليه، وإن لم يكن فيه ما نسب؛ لقول أسيد: « كذبت لعمرو الله؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين » ولم يكن سعد منافقًا لكن مجادلته عنه استحل منه أسيد أن يرميه بالنفاق.

وفيه: أن الشبهة تسقط العقوبة كما سقط الحد، وتبيح الفرض وتسقط الحرمة.

وفيه: أن من آذى رسول الله ـ ﷺ ـ في أهله أو في عرضه أنه يقتل؛ لقول أسيد: « إن كان من الأوس قتلناه » ولم يرد عليه النبي ـ ﷺ ـ شيئًا، فكذلك من سب عائشة بما برأها الله منه، أنه

يقتل لتكذيبه القرآن المبرئ لها وتكذيبه الله ورسوله. وقال قوم: لا يقتل من سبها بغير ما برأها الله منه.

قال المهلب: والنظر عندي يوجب أن يقتل من سب أزواج النبي ـ ﷺ ـ بما رميت به عائشة أو بغير ذلك؛ لأن قول أسيد: « إن كان من الأوس قتلناه » إنما قال ذلك قبل نزول القرآن، ولم يرد النبي ـ ﷺ ـ قوله، ولو كان قوله غير الصواب لما وسع النبي ـ ﷺ ـ السكوت عنه؛ لأنه مفروض عليه بيان حدود الله، ومن سب أزواجه ـ ﷺ ـ فقد آذاه ونقصه فهو متهم بسوء العقيدة في إيمانه بالنبي ـ ﷺ ـ فهو دليل على إبطانه النفاق.

وفيه: معاقبة المؤذى بقطع المعروف عنه.

وفيه: الأخذ بالعفو والصفح عن المسئ، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب.

ذكر ألفاظ من الغريب وقعت في حديث الإفك، وفى المغازى، والتفسير

قولها: « فإذا عقد لى من جزع أظفار » هكذا رواه فليح بن سليمان، عن ابن شهاب، وكذلك رواه يونس، عن ابن شهاب في تفسير القرآن في سورة النور، وأهل اللغة لا يعرفون هذا ويقولون: من جزع ظفار وهو مبنى على الكسر كما تقول: حزام ورقاس، وقد رواه البخاري « ظفار » كما قال أهل اللغة في كتاب المغازى من رواية صالح بن كيسان، عن ابن شهاب. قال ابن قتيبة: ظفار مدينة باليمن وهو جزع ظفارى. قال صاحب العين: الجزع ضرب من الجزر، والجزع بكسر الجيم، جانب الوادى ومنعطفه.

والعلقة ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداة، والعلاق مثله. عن صاحب العين.

اختلف العلماء فى قول المسئول عن التزكية: ما أعلم إلا خيرًا، فذكر ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان إذا أنعم مدح الرجل قال: ما علمت إلا خيرًا. وذكر الطحاوى عن أبى يوسف أنه إذا قال ذاك قبلت شهادته، ولم يذكر خلافًا عن الكوفيين، واحتجوا بالحديث الأول، قال محمد بن سعيد الترمذى: سألنى عبد الرحمن بن إسحاق القاضى عن رجل شهد عنده فزكيته له، فقال لى: هل تعلم منه إلا خيرًا؟ فقلت: اللهم غفرًا، قد أعلم منه غير الخير ولا تسقط بذلك عدالته، يلقى كناسته في الطريق، وليس ذلك من الخير. فسكت.

وروى ابن القاسم، عن مالك، أنه أنكر أن يكون قوله: لا أعلم إلا خيرًا، تزكية، وقال: لا تكون تزكية حتى يقول: رضًا وأراه عدلاً رضًا.

وذكر المزنى، عن الشافعى قال: لا يقبل فى التعديل، إلا أن يقول عدل علىّ ولىّ، ثم لا يقبله حتى يسأله عن معرفته؛ فإن كانت باطنة متقدمة وإلا لم يقبل ذلك.

قال الأبهرى: والحجة لمالك أنه قد لا يعلم منه إلا الخير، ويعلم غيره منه غير الخير مما يجب به رد شهادته، فيجب أن يقول: أعلمه عدلا رضًا؛ لأن هذا الوصف الذى أمر الله تعالى بقبول شهادة الشاهد معه بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٣] فيجب أن يجمع الشاهد العدالة والرضا.

قال المهلب: وأما قول أسامة: « لا أعلم إلا خيرًا » فى التزكية، فإن هذا كان فى عصر الرسول الذين شهد الله لهم أنهم خير أمة أخرجت للناس، فكانت الجرحة فيهم شاذة نادرة؛ لأنهم كانوا كلهم على العدالة، فتعديلهم أن يقال: لا أعلم إلا خيرًا، فأما اليوم فالجرحة أعم فى الناس، وليست لهم شهادة من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ـ ﷺ ـ بعدالة مستولية على جميعهم، فافترق حكمهم.

وفى قول بريرة: « ما أعلم عليها شيئًا أغمصه » دليل على أن من اتهم فى دينه بأمر أنه يطلب فى سائر أحواله نظير ما اتهم به، فإن لم يوجد له نظير لم يصدق عليه ما اتهم فيه، وإن وجد لذلك نظير قويت الشبهة، وحكم عليه بالتهمة فى أغلب الحال لا فى الغيب، والله أعلم. (١)

** أخي المسلم: و للعلامة ابن القيم رحم الله مع قصة الافك وقفات إيمانية و التربوية ذكرها في كتابه القيم زاد المعاد و إليك طفا منها:

استشارته ـ ﷺ ـ أصحابه في فراقها وذلك أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها وكانت تلك عادته مع نسائه فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل فخرجت عائشة لحاجتها ثم رجعت

١- شرح ابن بطال - (١٥ ٤/ ٥)

ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ولا ينكرون خفته لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذي حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال فرجعت عائشة إلى منازلهم وقد أصابت العقد فإذا ليس بها داع ولا مجيب فقعدت في المنزل وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها والله غالب على أمره يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون زوجة رسول الله ـ ﷺ ـ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم كما جاء عنه في " صحيح أبي حاتم " . وفي " السنن " : رآها عرفها وكان يراها قبل نزول الحجاب فاسترجع وأناخ راحلته فقربها إليها فركبتها وما كلمها كلمة واحدة ولم تسمع منه إلا استرجاعه ثم سار بها يقودها حتى قدم بها وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسا فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه وكان أصحابه يتقربون به إليه فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث ورسول الله ـ ﷺ ـ ساكت لا يتكلم ثم استشار أصحابه في فراقها فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها ويأخذ غيرها تلويحا لا تصريحا وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها وألا يلتفت إلى كلام الأعداء فعلي لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ليتخلص رسول الله ـ ﷺ ـ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس فأشار بحسم الداء وأسامة لما علم حب رسول الله ـ ﷺ ـ لها ولأبيها وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك وأعظم منه وعرف من كرامة رسول الله ـ ﷺ ـ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء وبنت صديقه بالمنزلة التي أنزلها به أرباب الإفك وأن رسول الله ـ ﷺ ـ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيا وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ـ

ﷺ ـ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة وهي تحت رسوله ومن قويت معرفته لله ومعرفته لرسوله وقدره عند الله في قلبه قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة لما سمعوا ذلك ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

عما لا يليق به أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيا فمن ظن به سبحانه هذا الظن فقد ظن به ظن السوء وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها كما قال تعالى:﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾[النور: ٢٦] فقطعوا قطعا لا يشكون فيه أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة.

[الحكم من توقفه ـ ﷺ ـ في أمرها]

فإن قيل فما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به وهلا قال﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾كما قاله فضلاء الصحابة؟

[الامتحان له ـ ﷺ ـ]

فالجواب أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببا لها وامتحانا وابتلاء لرسوله ـ ﷺ ـ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ليرفع بهذه القصة أقواما ويضع بها آخرين ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا ولا يزيد الظالمين إلا خسارا واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ـ ﷺ ـ الوحي شهرا في شأنها لا يوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها وتتم نعمة الله عليهم ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله والذل له وحسن الظن به والرجاء له ولينقطع رجاؤها من المخلوقين وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق ولهذا وقت هذا

المقام حقه لما قال لها أبواها : قومي إليه وقد أنزل الله عليه براءتها فقالت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي

[حبس الوحي لتمحيص القضية وازدياد حاجته ـ ﷺ ـ له]

وأيضا فكان من حكمة حبس الوحي شهرا أن القضية محصت وتمحضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه والمؤمنون فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه فوقع منهم أعظم موقع وألطفه وسروا به أتم السرور وحصل لهم به غاية الهناء فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها.

إظهار الله منزلته ـ ﷺ ـ وأهل بيته عنده وأيضا فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي لذلك الثائر لرسوله وأهل بيته .

[ثبوت براءة عائشة الصديقة –رضي الله عنها–]:

وأيضا فإن رسول الله ـ ﷺ ـ كان هو المقصود بالأذى والتي رميت زوجته فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها ولم يظن بها سوءا قط وحاشاه وحاشاها ولذلك لما استعذر من أهل الإفك قال من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه وحسن ظنه بربه وثقته به وفى مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه حتى جاءه الوحي بما أقر عينه وسر قلبه وعظم قدره وظهر لأمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه .

[حد القذف والسبب في عدم حد ابن أبي]

ولما جاء الوحي ببراءتها أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بمن صرح بالإفك فحدوا ثمانين ثمانين ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك فقيل وقيل بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه وقيل الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو ببينة وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

وقيل حد القذف حق الآدمي لا يستوفى إلا بمطالبته وإن قيل إنه حق لله فلا بد من مطالبة المقذوف وعائشة لم تطالب به ابن أبي . وقيل بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارا وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام فإنه كان مطاعا فيهم رئيسا عليهم فلم تؤمن إثارة الفتنة في حده ولعله ترك لهذه الوجوه كلها.

[من حد في حادثة الإفك]:

فجلد مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيرا لهم وتكفيرا وترك عبد الله بن أبي إذا فليس هو من أهل ذاك.

[قوة إيمان عائشة]:

ومن تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها فقال لها أبواها : قومي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله علم معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها وإفراده بالحمد في ذلك المقام وتجريدها التوحيد وقوة جأشها وإدلالها ببراءة ساحتها وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له وثقتها بمحبة رسول الله ـ ﷺ ـ لها قالت ما قالت إدلالا للحبيب على حبيبه ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال فوضعته موضعه ولله ما كان أحبها إليه حين قالت لا أحمد إلا الله فإنه هو الذي أنزل براءتي ولله ذلك الثبات والرزانة منها وهو أحب شيء إليها ولا

صبر لها عنه وقد تنكر قلب حبيبها لها شهرا ثم صادفت الرضى برضاه وقربه مع شدة محبتها له وهذا غاية الثبات والقوة .)[1]

ومَنْ قَويتْ معرفته لله ومعرفته لرسوله وقدره عندَ اللهِ في قلبه، قال كما قال أبو أيوب وغيره مِن سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

وتأمل ما في تسبيحهم للهِ، وتنزيههم له في هذا المقامِ مِن المعرفةِ به، وتنزيهه عما لا يليقُ به، أن يجعلَ لِرسوله وخليلهِ وأكرمِ الخلق عليه إمرأةً خبيثةً بغيًّا فمن ظنَّ به سُبحانه هذا الظَّنَّ، فقد ظَنَّ به ظنَّ السوءِ، وعرف أهلُ المعرفة باللهِ ورسوله أن المرأة الخبيثةَ لا تليقُ إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿الخَبِيثات لِلخَبِيثِينَ﴾.[3]

، فقطعوا قطعاً لا يشُكُّونَ فيهِ أن هذا بُهتان عظيم، وفِريةٌ ظاهرة.

فان قيل: فما بال رسول الله ـ ﷺ ـ توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به وهلا قال ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

فالجواب: إن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها وامتحاناً وابتلاءً لرسول الله ـ ﷺ ـ الأمة إلى يوم القيامة ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

واقتضى تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ الوحيُ شهراً في شأنها، ولا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حِكمتُهُ التي قدَّرها وقضَاهَا، وتظهرَ على أكمل الوجوه، ويزدادَ المؤمنونَ الصادِقُونَ إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحُسْنِ الظنِّ باللهِ ورسولهِ، وأهل بيتهِ، والصِّدِّقينَ مِن عباده، ويزدادَ المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويُظهِرَ لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبوديةُ المرادة مِن الصِّدِّيقةِ وأبويها، وتتمَ نعمةُ اللهِ عليهم، ولتشتد الفاقةُ والرغبةُ منها ومِن أبويها، والافتقارُ إلى اللهِ والذلُّ له، وحُسن الظن به،

---

[1] – زاد المعاد –(٣ / ٢٣٣/٢٣٦).

[2] –النور الآية (١٦).

[3] –النور الآية (٢٦).

والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأسَ مِن حصول النُّصرةِ والفرح على يد أحد من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقَام حقَّه، لما قال لها أبوها، قُومي إليه، وقد أنزلَ اللهُ عليه براءتَها، فقالت: واللهِ لا أَقومُ إليهِ، ولا أَحْمَدُ إلا اللهَ، وهُو الذي أَنزَلَ براءَتِي.

وأيضاً فكان من حكمهِ حَبْسِ الوحي شهراً، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّضتْ، واستشرفت قلوبُ المؤمنين أعظمَ استشرافٍ إلى ما يُوحيه اللهُ إلى رسوله فيها، وتطلَّعت إلى ذلك غايةَ التطلُّع، فوافى الوحيُ أحوجَ ما كان إليه رسول الله ـ ﷺ ـ، وأهلُ بيته، والصِّدِّيقُ وأهلُه، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيثِ على الأرضِ أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقع وألطَفَه، وسرُّوا به أتمَّ السُّرورِ، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع اللهُ رسولَه على حقيقة الحالِ مِن أوَّلِ وَهلة، وأنزل الوحيَ على الفور بذلك، لفاتت هذه الحِكمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها.

وأيضاً فإن الله سبحانه أحبَّ أن يُظْهِرَ منزلَةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامتهم عليه.

وأيضاً فإن رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ كان هو المقصودَ بالأذى، والتي رُميَتْ زوجتُه، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنَّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سُوءاً قطُّ، وحاشاه، وحاشاها.

ولما جاء الوحي ببراءتها، أمرَ رسول الله ـ ﷺ ـ بمن صرَّح بالإفك، فَحُدُّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أبي، مع أنه رأسُ أهل الإفك، فقيل: لأن الحدودَ تخفيفٌ عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعَدَهُ الله بالعذابِ العظيم في الآخرةِ، فيكفيه ذلك عن الحد.

الموقف الثاني قصة: العقد ومشروعية التيمم

ومن مواقف الصديق بنت الصديق – رضي الله عنهما–ذلك الموقف الذي سقط فيه عقدها وحبس النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه ليبحثوا عن ذلك العقد.

عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا في البيداء – أو بذات الجيش–انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ـ ﷺ ـ على التماسه، وأقام الناس معه،

وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ـ ﷺ ـ وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر، ورسول الله ـ ﷺ ـ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ـ ﷺ ـ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ـ ﷺ ـ على فخذي، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بَركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. (١)

عن ابن عباس، عن عمار بن ياسر؛ أن رسول الله ـ ﷺ ـ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جَزْع ظَفَار، فحبس الناس ابتغاء عقدها، وذلك حتى أضاء الفجر، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله، عز وجل، على رسوله ـ ﷺ ـ رخصة التطهر بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ـ ﷺ ـ فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئا، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الآباط.

فيه دروس وعبر

أولا: قوله وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء إقامة الناس معه دون ماء مع علمهم بعدمه وتركه الإنكار عليهم دليل على جواز المقام بموضع لا ماء فيه لمن لا ماء معه لما يعن له من الحاجات فيه أو لمن يكون معه (٢)

ثانيا: قوله: (فأتى الناس إلى أبي بكر) فيه شكوى المرأة إلى أبيها وإن كان لها زوج، وكأنهم إنما شكوا إلى أبي بكر لكون النبي ـ ﷺ ـ كان نائما وكانوا لا يوقظونه. وفيه نسبة

---

١ -٤٦٠٧. أخرجه مالك الموطأ صفحة (٥٧) وأحمد (١٧٩/٦) والبخارى (٩١/١) و(٥٢/٧ ومسلم (١٩١/١) والنسائى (١٦٣/١) وفى الكبرى (٢٩١) وابن خزيمة (٢٦٢أخرجه الحميدى (١٦٥). والدارمى (٧٥٢))

٢ المنتقى – شرح الموطأ – (١ / ١٢٥)

الفعل إلى من كان سببا فيه لقولهم: صنعت وأقامت، وفيه جواز دخول الرجل على ابنته وإن كان زوجها عندها إذا علم رضاه بذلك ولم يكن حالة مباشرة.

ثالثا: وفيه تأديب الرجل ابنته ولو كانت مزوجة كبيرة خارجة عن بيته، ويلحق بذلك تأديب من له تأديبه ولو لم يأذن له الإمام.

رابعا: فيه استحباب الصبر لمن ناله ما يوجب الحركة أو يحصل به تشويش لنائم، وكذا لمصل أو قارئ أو مشتغل بعلم أو ذكر.(١)

خامسا: رحمة الله تعالى بهذه الأمة و خصها بما يخص به غيرها من الأمم جابر، قال النبي، ـ ﷺ ـ أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة – .)(٢)

سادسا: رب ضارة نافعة: حيث تضرر الصحابة – رضي الله عنهم من حبسهم على طلب العقد ولم يكن معهم ماء يتطهرون به فجاءهم الفرج وشرع الله تعالى لهم التيمم

سابعا عدم إضاعة المال: فقد حبس الجيش بأكمله طلبا لذلك العقد وفي ذلك صيانة للمال من الضياع.

****

أم سلمة–رضي الله عنها–

أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة

---

١ – فتح الباري لابن حجر – (٢ / ٢٣)

٢ –أخرجه أحمد ح ١٤٣٠٣و البخاري ح ٣٣٥ و مسلم ح ٥٢١ و الدارمي ح ١٣٩٦

ترجمتها: أم سلمة أم المؤمنين [1] السيدة المحجبة، الطاهرة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، المخزومية، بنت عم خالد بن الوليد، سيف الله ؛ وبنت عم أبي جهل بن هشام.

من المهاجرات الأُول.

كانت قبل النبي ـ ﷺ ـ عند أخيه من الرضاعة: أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الرجل الصالح.

دخل بها النبي ـ ﷺ ـ في سنة أربع من الهجرة.

وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبا.

وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين.

عمرت حتى بلغها مقتل الحسين، الشهيد، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت عليه كثيرا.

لم تلبث بعده إلا يسيرا، وانتقلت إلى الله.

ولها أولاد صحابيون: عمر، وسلمة، وزينب. [2]

مواقف حاسمة من حياة أم سلمة-رضي الله عنها

موقف الهجرة

[1] – سير أعلام النبلاء – (٢ / ٢٠١)التاريخ لابن معين: ٧٤٢، طبقات ابن سعد: ٨ / ٨٦ – ٩٦، طبقات خليفة: ٣٣٤، المعارف: ١٢٨، ١٣٦، الجرح والتعديل: ٩ / ٤٦٤، المستدرك: ٤ / ١٦ – ١٩، الاستيعاب: ٤ / ١٩٢٠، أسد الغابة: ٧ / ٣٤٠، تهذيب الكمال: ١٦٩٨، العبر: ١ / ٦٥، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٤٥، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٥٥، الإصابة: ١٣ / ٢٢١، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩٦، كنز العمال: ١٣ / ٦٩٩، شذرات الذهب: ١ / ٦٩.

[2] – سير أعلام النبلاء – (٢ / ٢٠١)

فلنتركها هي تتحدث عن هجرتها وما عانت من فراق زوجها وابنها، حيث قالت:

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل بعيرا له وحملني وحمل معي ابني سلمة ، ثم خرج يقود بعيره فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني فغضب ، ثم ذلك بنو عبد الأسد وأهووا إلى سلمة وقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد ورهط أبي سلمة وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة ففرق بيني وبين زوجي وابني فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي سبعا أو قريبها حتى مر بن رجل من بني عمي فرأى ما في وجهي ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون من هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها ، فقالوا : الحقي بزوجك إن شئت ورد على بني عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله فكنت أبلغ من لقيت حتى إذا كنت بالتنعيم[1] لقيت عثمان بن طلحة[2] أخا بني عبد الدار ، فقال أين يا بنت أبي أمية ، قلت : أريد زوجي بالمدينة ، فقال: هل معك أحد ، فقلت : لا والله إلا الله وابني هذا ، فقال : والله مالك من متترك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني فوالله ما صحبت رجلا من كان أكرم منه إذا نزل المنزل أناخ بن ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري قدمه ورحله ثم استأخر عني وقال اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى نزلت ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بن المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : إن

[1] –التنعيم: مكان على ثلاثة أميال من مكة.

[2] –عثمان بن طلحة: كان حاجب بيت الله في الجاهلية، ورافق أم سلمة مشركاً، أسلم في هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، فلما فتحت مكة دفع النبي ـ ﷺ ـ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة استشهد عثمان بن طلحة بأجنادين في خلافة عمر رضي الله عنهما.

زوجك في هذه القرية وكان أبو سلمة نازلا بها وقيل أنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة ويقال إن ليلى امرأة عامر بن ربيعة شركتها في هذه الأولية .([1])

يقول الدكتور علي الصلابي: فهذا مثل على الطرق القاسية التي سلكتها قريش لتحول بين أبي سلمة والهجرة، فرجل يفرق بينه وبين زوجه عنوة، وبينه وبين فلذة كبده، على مرأى منه، كل ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة ولكن متى ما تمكن الإيمان من القلب، استحال أن يقدم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئًا، حتى لو كان ذلك الشيء فلذة كبده، أو شريكة حياته لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة لا يلوي على أحد، وفشل معه هذا الأسلوب وللدعاة إلى الله فيه أسوة([2]).

وهكذا أثر الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرة فرق شملها، وامرأة تبكي شدة مصابها، وطفل خلعت يده وحُرِم من أبويه، وزوج وأب يسجل أروع صور التضحية والتجرد، ليكون أول مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصممين على المضي في طريق الإيمان والانحياز إلى كتيبة الهدى فماذا عسى أن ينال الكفر وصناديده من أمثال هؤلاء؟

وأما صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه، فقد كان يومئذ كافراً (وأسلم قبل الفتح)، ومع ذلك تشهد له أم سلمة رضي الله عنها بكرم الصحبة، وذلك شاهد صدق على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضعيف([3])، (فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل أن يَدَع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!

---

[1] – الإصابة (٨/٢٢٢).

[2] – انظر: في السيرة النبوية، د. إبراهيم علي محمد، (ص١٣١، ١٣٠) تقسيم الأساليب أخذت من هذا الكتاب ومشاهد العظمة من الهجرة النبوية المباركة

[3] – انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٤.

فأين من هذه الأخلاق – يا قومي المسلمين –أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندي لها جبين الإنسانية، ومن تفنن في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال.

إن هذه القصة –ولها مُثُلٌ ونظائر –لتشهد أن ما كان للعرب من رصيد من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثم اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة (١).

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأم سلمة ولذلك بذل الجهد والوقت من أجلها (٢)، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة في مصاحبته لأم سلمة رضي الله عنهم(٣).(٤)

الموقف الثاني موقف موت زوجها أبو سلمة وزواج النبي -ﷺ- منها

ومن المواقف التي خلدت ذكر ام سلمة رضي الله عنها وجعلتها مثالا يحتذى به في الصبر والرضا بقضاء الله تعالى وتصديق قول النبي -ﷺ- موقفها يوم ان مات وزجها – رضي الله عنه –

عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله -ﷺ- "إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي -ﷺ- فقلت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات، قال: قولي اللهم اغفر لي وله

---

١ – السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، د. محمد أبو شهبة (٤٦١/١).

٢ – التاريخ الإسلامي للحميدي (١٢٨/٣).

٣ – السيرة النبوية الصحيحة (٢٠٤/١).

٤ – السيرة النبوية –(٤ / ٢٧٠).

وأعقبني منه عقبى حسنة، قالت: فقلت فأعقبني الله من هو خير لي منه محمدا ـ ﷺ ـ " ([1]).

وفي رواية عنها رضي الله عنها تقول : حزنت كثيراً لوفاة زوجي أبي سلمة ، وعند ذلك ذهبت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت : كيف أقول ؟

قال: " **قولي : اللهم اغفر لنا وله ، وأعقبني منه عُقبى صالحة** ". تقول : فقلتها ، فأعقبني الله محمداً ـ ﷺ ـ.([2])

عن أم سلمة قالت أتاني أبو سلمة يوما من عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :لقد سمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ قولا فسررت به قال لا تصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا فعل ذلك به قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه ثم رجعت إلى نفسي قلت من أين لي خير من أبي سلمة فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا أدبغ إهابا لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في ولكني امرأة في غيرة شديدة فأخاف ان ترى منى شيئا يعذبنى الله به وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال فقال أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز و جل منك واما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي قالت فقد سلمت لرسول الله ـ ﷺ ـ فتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت أم سلمة فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه رسول الله ـ ﷺ ـ.([3])

---

[1] –أخرجه مسلم برقم (٩١٩).

[2] –رواه مسلم برقم (٩١٩).

[3] – أخرجه أحمد (ح: ١٦٣٨٨) مالك (ح: ٥٦٠) ومسلم (ح: ٩١٨).

عن أم سلمة، قالت: لما انقضت عدة أم سلمة خطبها أبو بكر فلم تتزوجه فبعث النبي - ـ ﷺ ـ يخطبها عليه ، فقالت : أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ أني امرأة غيرى وأني امرأة مصيبة وليس أحد من أوليائي شاهدا ، فقال : "قل لها أما قولك غيري فسأدعو الله فتذهب غيرتك ، وأما قولك أني امرأة مصيبة فستكفين صبيانك ، وأما قولك ليس أحد من أوليائي شاهدا فليس أحد من أوليائك شاهد أو غائب يكره ذلك" ، فقالت لابنها عمر قم فزوج رسول الله ـ ﷺ ـ فزوجه .

وفي رواية قالت: فلما مات أبو سلمة قُلتُ: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؛ أول بيتٍ هاجر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ ثم إني قُلتُها، يعني إنا لله وإنا إليه راجعون، فأخلف الله لي رسول الله ـ ﷺ ـ.

قالت: أرسل إليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ حاطِبَ بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلتُ: إنَّ لي بنتًا، وأنا غيور.

فقال: أما ابنتُها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعوا الله أن يذهب بالغيرة. (١)

عن أم سلمة قالت: لما بني رسول الله ـ ﷺ ـ بي قال:"ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت لك وسبعت عندهن يعني نساءه ـ وإن شئت ثلاثًا ودُرت" قالت: ثلاثًا. (٢)

الوقف الثالث موقفها يوم الحديبية

من المواقف النادرة والفذة التي كان لأم سلمة رضي الله عنها والذي يدل على رزانة عقلها ومن مناقبها رضي الله عنها.

في العام السادس من الهجرة النبوية صحبت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ـ ﷺ ـ في رحلته إلى مكة معتمراً، وهي الرحلة التي صدت فيها قريش النبي ـ ﷺ ـ والصحابة الكرام عن دخول البلد الحرام، وتم على أثرها صلح الحديبية.

حديث الحديبة بطوله

---

١ –رواه مسلم برقم (٩١٨).

٢ –أخرجه مسلم برقم (١٢٤٦).

عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ـ ﷺ ـ إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش وسار النبي ـ ﷺ ـ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس حل حل فألحت فقالوا خلأت القصواء خلأت القصواء فقال النبي ـ ﷺ ـ ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ـ ﷺ ـ من أهل تهامة فقال إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله ـ ﷺ ـ إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره فقال بديل سأبلغهم ما تقول قال فانطلق حتى أتى قريشا قال إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء وقال ذوو الرأي منهم هات ما سمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ـ ﷺ ـ فقام عروة بن مسعود فقال أي قوم ألستم بالوالد قالوا بلى قال أولست بالولد قالوا بلى قال فهل تتهموني قالوا لا قال ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني قالوا بلى قال فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد

اقبلوها ودعوني آتيه قالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبي ـ ﷺ ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها وإني لأرى أوشابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص ببظر اللات أنحن نفر عنه وندعه فقال من ذا قالوا أبو بكر قال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك قال وجعل يكلم النبي ـ ﷺ ـ فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ـ ﷺ ـ ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ـ ﷺ ـ ضرب يده بنعل السيف وقال له أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه فقال من هذا قالوا المغيرة بن شعبة فقال أي غدر ألست أسعى في غدرتك وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية أصحاب النبي ـ ﷺ ـ بعينيه قال فوالله ما تنخم رسول الله ـ ﷺ ـ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ـ ﷺ ـ محمدا والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة دعوني آتيه فقالوا ائته فلما أشرف على النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه قال رسول الله ـ ﷺ ـ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع إلى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال دعوني آتيه فقالوا ائته فلما أشرف عليهم قال النبي ـ ﷺ ـ هذا مكرز وهو رجل فاجر

فجعل يكلم النبي ـ ﷺ ـ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو قال معمر فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ـ ﷺ ـ لقد سهل لكم من أمركم قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبي ـ ﷺ ـ الكاتب فقال النبي ـ ﷺ ـ بسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ـ ﷺ ـ اكتب باسمك اللهم ثم قال هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ـ ﷺ ـ والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله قال الزهري وذلك لقوله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها فقال له النبي ـ ﷺ ـ على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا قال المسلمون سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي فقال النبي ـ ﷺ ـ إنا لم نقض الكتاب بعد قال فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا قال النبي ـ ﷺ ـ فأجزه لي قال ما أنا بمجيزه لك قال بلى فافعل قال ما أنا بفاعل قال مكرز بل قد أجزناه لك قال أبو جندل أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذابا شديدا في الله قال فقال عمر بن الخطاب فأتيت نبي الله ـ ﷺ ـ فقلت ألست نبي الله حقا قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به قال بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام قال قلت لا قال فإنك آتيه ومطوف به قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا

نبي الله حقا قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا قال أيها الرجل إنه لرسول الله ـ ﷺ ـ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق قلت أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به قال بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام قلت لا قال فإنك آتيه ومطوف به قال الزهري قال عمر فعملت لذلك أعمالا قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى { ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية ثم رجع النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا فاستله الآخر فقال أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ـ ﷺ ـ حين رآه لقد رأى هذا ذعرا فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم قال النبي ـ ﷺ ـ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى

اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ـ ﷺ ـ تناشده بالله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي ـ ﷺ ـ إليهم فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ حتى بلغ ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت قال أبو عبد الله { معرة } العر الجرب { تزيلوا } تميزوا وحميت القوم منعتهم حماية وأحميت الحمى جعلته حمى لا يدخل وأحميت الحديد وأحميت الرجل إذا أغضبته إحماء)(١)

١ – أخرجه البخاري ح ٢٧٣٢ والبيهقي في الكبرى ح ٩٨٥٦و الطبراني في الكبير ح ١٦٧٧٠

زينب بنت جحش – رضي الله عنها

ترجمتها: زينب بنت جحش زوج النبي ـ ﷺ ـ. هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبيرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان ابن أسد بن خزيمة أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله ـ ﷺ ـ.(١)

عن عائشة قالت: كانت زينب بنت جحش تساميني في المنزلة عند رسول الله ـ ﷺ ـ؛ ما رأيت امرأة خيرا في الدين من زينب، أتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة.رضي الله عنها (٢).

قصة زواجه من زيد بن حارثة – رضي الله عنه و زواجها من الحبيب– ـ ﷺ ـ. قال الله تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا

---

١ – سير أعلام النبلاء – (٢ / ٢١١)طبقات ابن سعد: ٨ / ١٠١، ١١٥، طبقات خليفة: ٣٣٢، تاريخ خليفة: ١٤٩، المعارف: ٢١٥، ٤٥٧، ٥٥٥، تاريخ الفسوي: ٢ / ٧٢٢، و ٣ / ٢٣٣، المستدرك: ٤ / ٢٥ ٢٣، الاستيعاب: ٤ / ١٨٤٩، أسد الغابة: ٧ / ١٢٥، تهذيب الكمال: ١٦٨٣، تاريخ الإسلام: ٢ / ٣٤، العبر: ١ / ٥، ٢٤، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٤٦ ٢٤٨، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٢١ ٤٢٠، الإصابة: ١٢ / ٢٥٧، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩١، كنز العمال: ١٣ / ٧٠٠، شذرات الذهب ١ / ١٠ و ٣١.

٢ – أخرجه مسلم (٢٤٢٢)

كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) [الأحزاب : ٣٦ - ٣٩]}

يقول السعدي – رحمه الله –وكان سبب نزول هذه الآيات، أن اللّه تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبناهم، في نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله، وفعلا وإذا أراد اللّه أمرًا، جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يدعى "زيد بن محمد" قد تبناه النبي -ﷺ- ، فصار يدعى إليه حتى نزل {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ } فقيل له: "زيد بن حارثة" .

وكانت تحته، زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول اللّه -ﷺ- ، وكان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوَّجها، فقدر اللّه أن يكون بينها وبين زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي -ﷺ- في فراقها.

قال اللّه: { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ } أي: بالإسلام { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ } بالعتق حين جاءك مشاورًا في فراقها: فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته مع وقوعها في قلبك: { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، { وَاتَّقِ اللَّهَ } تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى، تحث على الصبر، وتأمر به.

{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها -ﷺ-.

{وَتَخْشَى النَّاسَ} في عدم إبداء ما في نفسك { وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } وأن لا تباليهم شيئًا، { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا } أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. { زَوَّجْنَاكَهَا } وإنما فعلنا ذلك، لفائدة عظيمة، وهي: { لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ } حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل، ينتسب إليك.

ولما كان قوله: {لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ} عامًا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك

بقوله: {إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا} أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة، فوائد، منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن اللّه سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن اللّه أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من اللّه له أنه مسلم مؤمن، ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها، النعمة الخاصة.

ومنها: أن المُعْتَق في نعمة الْمُعْتِق.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيّ، كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي، أبلغ من القولي، خصوصا، إذا اقترن بالقول، فإن ذلك، نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته ومملوكته، ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها، لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن اللّه أخبر أن الرسول ـ ﷺ ـ ، أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ـ ﷺ ـ ، قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه.

وهذا يدل، على أنه رسول اللّه، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه -إذا استشير في أمر من الأمور-أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي: الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: [أنه يتعين] أن يقدم العبد خشية اللّه، على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي اللّه عنها أم المؤمنين، حيث تولى اللّه تزويجها، من رسوله ـ ﷺ ـ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وتقول زوجكن أهاليكن، وزوجني اللّه من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة، إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.(١)

وكانت زينب بنت جحش ممن هاجر مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، فخطبها رسول الله ـ ﷺ ـ على زيد بن حارثة.

فقالت: يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش قال: فإني قد رضيته لك.

فتزوجها زيد بن حارثة (٢).

وروي أن زيدا " كان يقال له زيد بن محمد، وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن الذي يتبنى غيره يصير ابنه بحيث يتوارثان إلى غير ذلك، فلما نزل قوله تعالى:﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[الأحزاب: ٥] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية.

وزواج النبي ـ ﷺ ـ بزينب بنت جحش إنتفى ما كانوا يعتقدونه في الجاهلية، وعلاوة على ذلك متحن الله تعالى المسلمين في هذه الآونة بهذا الزواج.

فأما الذين آمنوا فقد علموا أن وراء هذا التشريع حكمة.

وأما المنافقين فقالوا حرم محمد الولد وقد تزوج إمرأة إبنه.

---

١ – تفسير السعدي – (١ / ٦٦٥)

٢ – الطبقات الكبرى ١٠١ / ٧.

إلى غير ذلك.

وقصة الزواج أشار إليها قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) [الأحزاب : ٣٦ - ٤٠]

قال صاحب الميزان: المراد بهذا الذي أنعم الله عليه.

وأنعم النبي عليه.

زيد بن حارثة.

الذي كان عبدا " للنبي - ﷺ - ثم حرره واتخذه ابنا " له.

وكان تحته زينب بنت جحش.

أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب.

فنهاه النبي - ﷺ - عن الطلاق.

ثم طلقها زيد فتزوجها النبي - ﷺ -.

ونزلت الآيات.

فقوله: (أنعم الله عليه) أي بالهداية إلى الإيمان وتحبيبه إلى النبي - ﷺ -. وقوله: (وأنعمت عليه) أي بالإحسان إليه وتحريره وتخصيصه بنفسك، وقوله: (أمسك عليك زوجك واتق الله) كناية عن الكف عن تطليقها.

ولا تخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها وقوله: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) أي مظهره (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ذيل الآيات.

أعني قوله: (الذين يبلغون رسالات الله ولا يخشون أحدا " إلا الله) دليل على أن خشيته ـ ﷺ ـ. الناس.

لم تكن خشية على نفسه، بل كانت خشية في الله، فأخفى في نفسه ما أخفاه.

استشعارا " منه أنه لو أظهره، عابه الناس وطعن فيه بعض من في قلبه مرض، فأثر ذلك أثرا " سيئا " في إيمان العامة، وهذا الخوف -كما ترى -ليس خوفا " مذموما ".

بل خوف في الله.

وهو في الحقيقة خوف من الله سبحانه.

فقوله: (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) الظاهر في نوع من العتاب.

ردع عن نوع من خشية الله.

وهي خشية عن طريق الناس وهداية إلى نوع آخر من خشيته تعالى، وأنه كان من الحري أن يخشى الله دون الناس.

ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه.

وهذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذي كان تبناه، ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج الأدعياء.

وهو ـ ﷺ ـ. كان يخفيه في نفسه إلى حين.

مخافة سوء أثره في الناس، فأمنه الله ذلك بعتابه عليه.

نظير ما تقدم في قوله تعالى: (يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك -إلى قوله - والله يعصمك من الناس) الآية.

فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله: (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) مسوق لإنتصاره.وتأييد أمره.

قبال طعن الطاغين ممن في قلوبهم مرض.

نظير ما تقدم في قوله:﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾[التوبة: ٤٣] ومن الدليل على أنه إنتصار وتأييد في صورة العتاب قوله تعالى بعد:﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾[الأحزاب: ٣٧] حيث أخبر عن تزويجه إياها.

كأنه أمر خارج عن إرادة النبي ـ ﷺ ـ. واختياره ثم قوله:﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[الأحزاب: ٣٧]

في نفسه ولم يبده، لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال في إمرأة في بيت رجل أنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين.

وخشي ـ ﷺ ـ قول المنافقين.

قال تعالى:﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا ﴾[الأحزاب: ٣٧] يعني في نفسك الحديث.

وروي ما يقرب منه في المجمع في قوله:﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾[الأحزاب: ٣٧] قيل: إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه.

وأن زيدا " سيطلقها.

فلما جاء زيد وقال له: أريد أن أطلق زينب.

قال له: أمسك عليك زوجك.

فقال الله سبحانه لرسوله ـ ﷺ ـ: لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك.

مناقبها: في الروايات.

ما أولم رسول الله ـ ﷺ ـ على إمرأة من نسائه ما أولم على زينب.

ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم.

وفي الروايات أنها كانت تفتخر على سائر النساء بثلاث: أن جدها وجد النبي ـ ﷺ ـ واحد.

فإنها كانت بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ـ ﷺ ـ ، وأن الذي زوجها منه هو الله سبحانه وتعالى، وأن السفير جبريل عليه السلام.

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال: لما أخبرت زينب بتزويج رسول الله ـ ﷺ ـ لها. سجدت وقال المسعودي: وكان تزويجه ـ ﷺ ـ من زينب بنت جحش سنة خمس من الهجرة.

وروي عن أم سلمة أن زينب كان بينها وبين عائشة ما يكون قالت زينب: إني والله ما أنا كأحد من نساء رسول الله ـ ﷺ ـ..

إنهن زوجهن بالمهور وزوجهن الأولياء، وزوجني الله رسوله وأنزل في الكتاب يقرأ به المسلمون لا يبدل ولا يغير﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾[الأحزاب: ٣٧] الآية

وقالت أم سلمة: وكانت لرسول الله معجبة وكان يستكثر منها.

وكانت امرأة صالحة صوامة قوامة صنعا.

تتصدق بذلك كله على المساكين (١).

وروي عن عاصم الأحول.

أن رجلا " من بني أسد فاخر رجلا ".

فقال الأسدي: هل منكم امرأة زوجها الله من فوق سبع سماوات؟ يعني زينب بنت جحش (٢).

وأخرج ابن سعد عن عائشة قالت: قال النبي ـ ﷺ ـ لأزواجه "يتبعني أطولكن يدا ".

قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد النبي ـ ﷺ ـ..نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش.

وكانت امرأة قصيرة.

ولم تكن أطولنا فعرفنا حينئذ أن النبي ـ ﷺ ـ..

---

١ – المصدر السابق ١٠٣ / ٧.

٢ – المصدر السابق ١٠٣ / ٧.

إنما أراد بطول اليد الصدقة.

قالت: وكانت زينب امرأة صناع اليد.

فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله (١).

وأخرج ابن سعد عن عمر بن عثمان عن أبيه: ما تركت زينب بنت جحش درهما " ولا دينارا ".

كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه.

وكانت مأوى المساكين.

وتركت منزلها فباعوه من الوليد بن عبد الملك حين هدم المسجد بخمسين ألف (٢).

وروي عن محمد بن كعب قال: كان عطاء

زينب بنت جحش إثني عشر ألفا " لم تأخذه إلا عاما " واحدا " فجعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال من قابل.

فإنه فتنة ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة (٣).

وفاتها رضي الله عنها: توفيت زينب بنت جحش في خلافة عمر بن الخطاب سنة عشرين وهي بنت خمسين. (٤)

دروس وعبر وأحكام

يقول الفقيه الزحيلى – رحمه الله في الدنيا والآخرة –فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

١-يحظر ويمنع على أي مؤمن أو مؤمنة إذا قضى الرسول ـ ﷺ ـ بأمر أن يختار غيره لأن لفظة ما كان، وما ينبغي معناها هنا الحظر والمنع، فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا، كقوله تعالى: {ما كانَ لَكُمْ

---

١ – المصدر السابق ١٠٨ / ٧، رواه الشيخان بإختصار.

٢ – المصدر السابق ١١٤ / ٧.

٣ – الإصابة ٣١٤ / ٤، الطبقات ١١٠ / ٧.

٤ – زوجات النبي – (١ / ٧١/٦٥)

أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَه} [النمل ٢٧/ ٦٠] . وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى: {ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ }[آل عمران ٣/ ٧٩] وقوله تعالى:{ وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ }[الشورى ٤٢/ ٥١] . وربما كان في المندوبات كما تقول: «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

٢-في هذه الآية دليل للمالكية على أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان، خلافا للجمهور لأن الموالي تزوجت في قريش، تزوج زيد زينب بنت جحش، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير، وزوّج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد أراد اللّه امتحان زينب بزواج زيد لهدم مبدأ العصبية الجاهلية والامتياز الطبقي أو العنصري، وجعل أساس التمايز هو الإسلام والتقوى.

٣-يجب إتباع أمر اللّه ورسوله لأن اللّه أخبر أن من يعصي اللّه ورسوله فقد ضل طريق الهدى. قال القرطبي: وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين، من أن صيغة «افعل» للوجوب في أصل وضعها لأن اللّه تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله -ﷺ- ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم علّق على المعصية بذلك الضلال، فلزم حمل الأمر على الوجوب «[١]» .

٤-أراد اللّه تعالى من عتاب نبيه بآية: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} .. إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية، وأن يكون ظاهرهم وباطنهم سواء لأن اللّه تعالى أعلم نبيه بأن زيدا سيطلّق زينب وينكحها هو، فما الداعي لوعظه وقوله له: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}؟.

وقد أخفى النبي -ﷺ- ما أخبره اللّه به من طلاق زينب وزواجه، لا أنه أخفى استحسانها وحبّه لها والحرص على طلاق زيد إياها، كما يقول قتادة وابن زيد وجماعة من

[١] - تفسير القرطبي: ١٤/ ١٨٨

المفسرين، منهم الطبري وغيره، فهذا لا يليق بمنصب النبوة، ولا يتفق مع الواقع، فإنه كان بإمكانه أن يتزوجها وهي بكر، وهو يعرفها لأنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت هي ترغب بذلك، بدليل أنه ـ ﷺ ـ لما خطبها لزيد، ظنت أنه خطبها لنفسه، والخلاصة: أن قائل ذلك -إن تعمد- جاهل بعصمة النبي ـ ﷺ ـ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته.

وأشد قبحا ما قال مقاتل: زوّج النبي ـ ﷺ ـ زينب بنت جحش من زيد، فمكثت عنده حينا، ثم إنه ـ ﷺ ـ أتى زيدا يوما يطلبه، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهويها وقال: «سبحان مقلّب القلوب» فسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن زيد، فقال:

يا رسول اللّه، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبرا، تعظم علي وتؤذيني بلسانها، فقال ـ ﷺ ـ: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}.

وأحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري الفقيه المالكي الذي ولي قضاء العراق، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم: هو ما

روي عن علي بن الحسين: أن النبي ـ ﷺ ـ كان قد أوحى اللّه تعالى إليه أن زيدا يطلّق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج اللّه إياها، فلما تشكّى زيد للنبي ـ ﷺ ـ خلق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول اللّه ـ ﷺ ـ على جهة الأدب والوصية: «اتق اللّه في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها وخشي رسول اللّه ـ ﷺ ـ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه اللّه تعالى على هذا القدر من خشيته الناس في شيء قد أباحه اللّه له، بأن قال: «أمسك» مع علمه بأنه يطلّق، وأعلمه أن اللّه أحق بالخشية، أي في كل حال.

ويدل تحرج النبي ـ ﷺ ـ من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيرا كبيرا في المجتمعات والسلوك.

٥-اقترنت واقعة زواج النبي -ﷺ- بزينب في السيرة بأحكام شرعية، منها: استخارة اللّه في الأمور، فعند ما جاء زيد يخطبها للنبي -ﷺ- فرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن.

ومنها: ندب وليمة الزواج، قال أنس بن مالك فيما يرويه مسلم:

«ما رأيت رسول اللّه -ﷺ- أولم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب، فإنه ذبح شاة.

ومنها: أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطب علي فلانة، وهو زوجها المطلقة منه، ولا حرج في ذلك، كما

قال النبي -ﷺ- لزيد في رواية: «اذكرها علي» أي اخطبها.

٦-اختصاص النبي -ﷺ- بتزويج اللّه تعالى له، فلما وكّلت زينب أمرها إلى اللّه، وصح تفويضها إليه، تولى اللّه إنكاحها، ولما أعلمه اللّه بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطا في عقود زواجنا، ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي -ﷺ- ، وتقول: «زوجكن آباؤكن، وزوّجني اللّه تعالى» . أخرج النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تفخر على نساء النبي -ﷺ- تقول: إن اللّه عز وجل أنكحني من السماء، وفيها نزلت آية الحجاب.

٧-المنعم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة إذ أعتقه النبي -ﷺ- عند ما اختار البقاء عنده، مفضلا إياه على أبيه وعمه، و

قال الرسول -ﷺ-: «اشهدوا أني وارث وموروث» فلم يزل يقال: زيد بن محمد، إلى أن نزل قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ }ونزل: {ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ}.

٨-قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السّهيلي رحمه اللّه تعالى: كان يقال:

زيد بن محمد، حتى نزل:{ ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ} فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم اللّه وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدا من أصحاب النبي -ﷺ- ، وهي أنه سماه في القرآن فقال تعالى: فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً يعني من زينب. ومن ذكره اللّه تعالى باسمه في

الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد ـ ﷺ ـ له.

فهو لا يزال مترددا على ألسنة المؤمنين، ومذكورا على الخصوص عند رب العالمين إذ القرآن كلام اللّه القديم، وهو باق لا يبيد فاسم زيد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السّفرة الكرام البررة.

وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضا من اللّه تعالى له مما نزع عنه.

وزاد في الآية أن قال: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} أي بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة، علم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى.

٩- قوله تعالى: {زَوَّجْناكَها} دليل على ثبوت الولي في النكاح.

١٠-أعلم اللّه جميع الأمة أنه سنّ لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم التوسعة عليه في النكاح سنّة الأنبياء الماضية، كداود وسليمان، فكان لداود مائة امرأة، وثلاث مائة سرّية، ولسليمان ثلاث مائة امرأة وسبع مائة سرّية.

١١-دلت آية {ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ} على أن محمدا ـ ﷺ ـ ليس بأب شرعي لزيد، وليس زيد ابنا له، حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أمّته في التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب اللّه بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، واعتراضهم بقولهم: تزوج النبي امرأة ابنه وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة.

ولم يقصد بهذه الآية أن النبي ـ ﷺ ـ لم يكن له ولد، فقد ولد له ذكور كما تقدم: إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهّر، ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا. وأما الحسن والحسين فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له.

١٢-الحقيقة أن محمدا ـ ﷺ ـ كان رسول اللّه، وخاتم النبيين، وقوله خاتَمَ بفتح التاء، بمعنى أنهم به ختموا، فهو كالخاتم والطابع لهم، وبكسر التاء: بمعنى أنه ختمهم، أي جاء آخرهم.

وهذا دليل قاطع على أنه لا نبي ولا رسول بعده ـ ﷺ ـ ، وفيه وردت الأحاديث المتواترة عن رسول اللّه ـ ﷺ ـ من حديث جماعة من الصحابة رضي اللّه عنهم، منها ما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن جابر قال: قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها، ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللّبنة، فأنا موضع اللّبنة حيث جئت، فختمت الأنبياء» ونحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: «فأنا اللّبنة وأنا خاتم النبيين» .

ومنها ما أخرجه الصحيحان عن جبير بن مطعم رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ـ ﷺ ـ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللّه تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» .)([1])

موقف جلوس النبي ـ ﷺ ـ و شربه العسل عند زينب – رضي الله عنها

و قد كان النبي ـ ﷺ ـ يحب الجلوس عند زينب – رضي الله عنها و في يوم من الأيام شرب عندها خير الأنام ـ ﷺ ـ عسلا ثم خرج فحدث ما خبر الله تعالى عنه في قوله {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (٤)عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً (٥)}

[1] – التفسير المنير للزحيلي – (ج٢٢ / ٣٣/٣٦)

عن عبيد بن عمير يقول: سمعت عائشة تزعم أن النبي ـ ﷺ ـ كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلا.

فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها، فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير ! أكلت مغافير ! فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك.

قال: بل شربت عسلا عند زينب، ولن أعودله.

فنزل: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}...إلى قوله: (إِنْ تَتُوبا) – يعني: حفصة، وعائشة.)[1]

قال ابن العربي: إنما الصحيح أن التحريم كان في العسل، وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، وجرى ما جرى، فحلف ألا يشربه، وأسرّ ذلك، ونزلت الآية في الجميع.

{يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي يا أيها الرسول النبي، لماذا تمنع نفسك من بعض ما أباح اللّه لك، قاصدا إرضاء أزواجك، واللّه غفور لما فرط منك من تحريم ما أحل اللّه لك، وما تقدم من الزلّة، رحيم بك، فلا يعاقبك على ذنب تبت منه، ولم يؤاخذك به.

وهذا عتاب بطريق التلطف، مثل قوله تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة ١٠/ ٤٣] ، وسمي الامتناع عن الحلال ذنبا، وهو مباح لغيره، تعظيما لقدره الشريف، وإشارة إلى أن ترك الأولى بالنسبة إليه كالذنب، وإن لم يكن ذنبا في الواقع. والمراد بالتحريم: الامتناع من تناول العسل أو الاستمتاع ببعض الزوجات، وليس المراد اعتقاد كونه حراما بعد ما أحله اللّه، لأن تحريم الحلال كفر.

قال القرطبي: والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، وأنه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة. وتحريم الحلال يراه أبو حنيفة يمينا في كل شيء، حسبما ينوي، فإذا حرّم طعاما فقد حلف على أكله، وإذا حرّم ملبسا أو شرابا أو شيئا مباحا، فهو بمنزلة اليمين، وإذا حرم

[1] – صحيح البخاري برقم (٤٩١٢).

امرأة فقد حلف يمين الإيلاء منها إذا لم يكن له نية، وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وإن نوى عددا معينا في الطلاق كاثنتين أو ثلاث فعلى ما نوى.

ولا يراه الشافعي يمينا، ولكن سببا في الكفارة في النساء وحدهن، وإن نوى الطلاق فهو رجعي. فإن حلف ألا يأكل شيئا فخالف، حنث ويبرّ بالكفارة.

{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ، وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} أي شرع اللّه لكم تحليل أيمانكم بأداء الكفارة المقررة في سورة المائدة [الآية ٨٩] وهي: {وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ.}

وبيّن لكم ذلك، وليس لأحد أن يحرّم ما أحل اللّه، فالتحليل والتحريم إلى اللّه سبحانه، فإن فعل الإنسان شيئا من ذلك لا ينعقد ولا يلزم صاحبه، واللّه متولي أموركم وناصركم على الأعداء، وهو العليم بما فيه صلاحكم وفلاحكم، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير أموركم.

وسبب إيراد آية التحليل هذه أن التحريم الذي كان من النبي ـ ﷺ ـ كان في الظاهر مقترنا بيمين، لظاهر الآية: { قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ } فهو دليل على أن هناك يمينا تحتاج إلى التحلة، وأيد ذلك بعض الروايات، فتكون هذه الآية مناسبة لما قبلها باعتبار كون تحريم المرأة أو العسل يمينا، وهو يمين إيلاء من المرأة.

وهل كفّر النبي ـ ﷺ ـ عن يمينه هذه؟ اختلف العلماء في ذلك، فقال الحسن البصري: إنه لم يكفّر، لأنه كان مغفورا له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين. وفي هذا نظر، لأن الأحكام الشرعية عامة، ولم يقم دليل عليالتخصيص، لذا قال مقاتل: إنه- أي النبي- أعتق رقبة في تحريم مارية، ونقل عن الإمام مالك في المدونة أنه أعطى الكفارة.

أما تحريم الرجل لزوجته كأن يقول لها: أنت علي حرام أو الحلال علي حرام دون استثناء شيء، ففيه كما ذكر ابن العربي خمسة عشر قولا ، منها ما ذكرناه سابقا أن أبا حنيفة يقول: إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى، وإلا كانت يمينا، وكان الرجل موليا من امرأته.

وذهب الشافعي ومالك إلى أن ذلك ليس بيمين، لكن إن حرم الزوجة ونوى بالتحريم الطلاق، يقع الطلاق الرجعي.

وذهب مالك إلى أنه طلاق بائن يقع به ثلاثة تطليقات.

وقال أبو بكر الصديق وعائشة والأوزاعي: إنه يمين تكفر.

ثم ذكر الدليل على إحاطة علم اللّه بكل شيء، فقال: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثًا، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} أي واذكر حين أسرّ النّبي -ﷺ- لزوجته حفصة حديثا هو تحريم العسل أو مارية، أو أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتيه على أمته من بعده، فلما أخبرت به غيرها، وأطلع اللّه نبيه على ما وقع منها من إخبار غيرها، عرّف حفصة بعض ما أخبرت به، وأعرض عن تعريف بعض ذلك.

{فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ: مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ } أي فحينما أخبرها بما أفشت من الحديث، قالت: من أخبرك به؟ قال: أخبرني به اللّه الذي لا تخفى عليه خافية، فهو العليم بالسر، الخبير بكل شيء في السماء والأرض.

ثم وجّه اللّه تعالى زوجتي النبي -ﷺ-: حفصة وعائشة إلى التوبة وعاتبهما قائلا: {إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ، فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما} أي إن تتوبا إلى اللّه، فتكتما السر، وتحبّا ما أحبه رسول اللّه -ﷺ- ، وتكرها ما كرهه، قبلت توبتكما من الذنب وكان خيرا لكما، فقد عدلت قلوبكما ومالت عن الحق والخير، وهو حق تعظيم الرسول -ﷺ- وصون سره وتكريمه. (١)

عن ابن عباس قال: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي -ﷺ- اللتين قال الله تعالى: { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } حتى حج عمر

---

١ – التفسير المنير للزحيلي – (٢٨ / ٣٠٦)

وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدَل عمر وعدلت معه بالإداوة. فتبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي -ﷺ-. ، اللتان قال الله تعالى: { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } ؟

فقال عمر: واعجبا لك يا ابن عباس -قال الزهري: كره-والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال: هي حفصة وعائشة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا مَعشَر قريش قومًا نَغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تَغلِبُهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار بنى أمية بن زيد بالعَوَالي. قال: فغضَبت يومًا على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تُرَاجِعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟

فوالله إن أزواج النبي-ﷺ- ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله -ﷺ- ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخَسر، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئًا، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسمُ وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك -يريد عائشة-قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يومًا وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غَسَّان تُنعِل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يومًا ثم أتى عشاء، فضرب بابي ثم ناداني، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم! فقلت: وما ذاك؟ أجاءت غسان؟

قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول! طلَّق رسول الله -ﷺ- نساءه، فقلت: قد خابت حفصةُ وخَسِرت، قد كنت أظن هذا كائنا. حتى إذا صليتُ الصبح شددتُ عليَّ ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله -ﷺ-. فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشرَبة فأتيت غلامًا له أسودَ فقلت: استأذن لعمر. فدخل الغلام ثم خرج إليَ فقال: ذكرتك له فصمت. فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط

جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلا ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمرَ. فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرتك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له فصمتَ. فوليت مدبرًا فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، قد أذن لك. فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ. فإذا هو متكئ على رُمَال حَصِير.

قال الإمام أحمد: وحدثناه يعقوب في حديث صالح: رُمَال حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلَّقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: "لا". فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يوما، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ـ ﷺ ـ. ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت. فتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ. فقلت: يا رسول الله، فَدخَلت على حفصة فقلت: لا يغُرنَّك أن كانت جارتُكِ هي أوسمُ -أو: أحب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ. منك. فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله. قال: "نعم". فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئًا يرد البصر إلا أَهَبَةٌ ثلاثة (فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسَّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالسًا وقال: "أفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا". فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرًا؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله، عز وجل (١) .

دروس وعبر وأحكام

يقول الزحيلي – حفظه الله -فقه الحياة أو الأحكام:

---

١ – صحيح البخاري برقم (٥١٩١، ٢٤٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذي برقم (٣٣١٨) وسنن النسائي (١٣٧/٤).

دلت الآيات على ما يأتي:

١-عاتب الله تعالى نبيه -ﷺ- على الامتناع من تناول ما أحل اللّه، فلا ينبغي لأحد تحريم المباح: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ }[المائدة ٥/ ٧٨] .

قال الشعبي: كان مع الحرام يمين، فعوتب في الحرام، وإنما يكفر اليمين فذلك قوله تعالى: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ}. وهذا العتاب دليل قاطع بأن القرآن من عند اللّه، إذ لا يعقل ولا يؤلف أن يعاتب الإنسان نفسه، أو يخبر عن نزاع خاص في بيته يظل خبرا متلوا دائما.

٢-إن مجرد الامتاع من تناول الشيء المأكول أو المشروب من غير حلف ليس يمينا، ولا يحرّم قول الرجل: «هذا علي حرام» إلا الزوجة، فيكون إيلاء منها. وهذا رأي الجمهور.

وقال أبو حنيفة: إن تحريم المأكول والمشروب والملبوس والشيء المباح يكون يمينا توجب الكفارة. وإذا حرم امرأة، فقد حلف يمين الإيلاء منها، كما تقدم.

والحقيقة: ليس في الموضوع نص يعتمد عليه، فمن تمسك بالبراءة الأصلية قال: لا حكم، فلا يلزم بها شيء، ومن قال: إنها يمين، قال: سماها اللّه يمينا.

ومن قال: تجب فيها كفارة وليست بيمين، اعتمد على أحد أمرين: أحدهما-أنه ظن أن اللّه تعالى أوجب الكفارة فيها، وإن لم تكن يمينا، والثاني- أن معنى اليمين عنده التحريم، فوجبت الكفارة على المعنى.

ومن قال: إنها طلقة رجعية، فإنه حمل اللفظ على أقل وجوهه، والرجعية محرّمة الوطء.

ومن قال: إنها ثلاث، حمل اللفظ على أكبر معناه وهو الطلاق الثلاث. ومن قال: إنه ظهار، فلأنه أقل درجات التحريم، فإنه تحريم لا يرفع

النكاح. ومن قال: إنه طلقة بائنة، فاعتمد على أن الطلاق الرجعي لا يحرّم المطلّقة، وأن الطلاق البائن يحرّمها «[١]» .

٣-تحليل اليمين كفارتها، والظاهر أن النبي -ﷺ- حلف، مع الامتناع عن تناول العسل، وأنه في الأصح كفّر عن يمينه. والكفارات تجبر الخلل الحاصل.

---

[١] - تفسير القرطبي: ١٨/ ١٨٣

وإن حرم الرجل أمته أو زوجته، فكفارة يمين، لما أحج مسلم في صحيحة عن ابن عباس قال: «إذا حرّم الرجل عليه امرأته، فهي يمين يكفّرها» وقال: {لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب ٣٣/ ٢١].

٤-للنساء بسبب الغيرة الفطرية الشديدة التأثير مواقف غريبة وعجيبة من بعضهن بعضا.

٥-يصعب على النساء كتمان السر، فقد أسر النبي -ﷺ- لزوجته حفصة تحريم العسل أو مارية على نفسه، أو أمر الخلافة من بعده لأبي بكر وعمر، واستكتمها السر، فأباحت به لعائشة.

٦-يغفل الإنسان غالبا عن أن اللّه عالم خبير به وبأحواله، فيتصرف تصرفات الغافل غير الواعي ولا المدرك لما يفعل، ولا يحسب الحساب اللازم لمن يراه ويحاسبه على أعماله. وهذا ما كان من حفصة التي فاجأها النبي صلى اللّه عليه وسلم بما فعلت، وأعلمها بأن اللّه أخبره بذلك.

٧-القرآن تهذيب وتربية وتعليم، لذا حث اللّه سبحانه حفصة وعائشة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى مخالفة محبة رسول اللّه -ﷺ- ، وتعظيم شأنه وإعلاء قدره وصون سره. فقد زاغت ومالت قلوبهما عن الحق، وهو أنهما أحبّتا ما كره النبي -ﷺ- من اجتناب جاريته، واجتناب العسل، وكان صلى اللّه عليه وسلم يحب العسل والنساء، محبة فيها اعتدال وإعزاز وإكرام للنساء.

٨-هدد اللّه حفصة وعائشة بأنهما إن تتظاهرا وتتعاونا على النبي -ﷺ- بالمعصية والإيذاء، فهناك حملة صون وحفظ وعصمة وحراسة له من اللّه والملائكة وجبريل والمؤمنين الصالحين، كأبي بكر وعمر أبوي عائشة وحفصة.

٩-وهددهما بتهديد آخر أشد ألما ووقعا على النفس، وهو إن طلقهما وطلّق زوجاته، أبدله اللّه زوجات خيرا وأفضل منهن في الدنيا والآخرة. وهذا وعد من اللّه تعالى لرسوله -ﷺ- ، وإخبار عن القدرة الإلهية وتخويف لهم، مع علمه تعالى بأنه لا يطلقهن.

وأوصاف النساء اللاتي يبدله اللّه بدلا عن زوجاته الحاليات في غاية الكمال، وهي كونهن مسلمات لأمر اللّه تعالى وأمر رسوله ـ ﷺ ـ ، مصدقات بما أمرن به ونهين عنه، مطيعات، تائبات من ذنوبهن، كثيرات العبادة للّه تعالى، صائمات أو مهاجرات، ثيّبات وأبكارا، أي منهن ثيّب، ومنهن بكر.

١٠-حينما أفشت حفصة السر لعائشة، آلى رسول اللّه ـ ﷺ ـ لا يدخل على نسائه شهرا، فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة، فأنزل اللّه عز وجل: لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ الآية، وهذا ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر أن النبي ـ ﷺ ـ حرّم على نفسه مارية.

وروى مسلم في صحيحة قصة طويلة مفادها: لما اعتزل نبي اللّه ـ ﷺ ـ نساءه، وقال الناس في المسجد: طلّق رسول اللّه ـ ﷺ ـ نساءه، وذلك قبل الأمر بالحجاب، دخل عمر على كل من عائشة وحفصة يعاتبهما على إيذائهما رسول اللّه ـ ﷺ ـ .

ثم دخل على رسول اللّه ـ ﷺ ـ وهو مضطجع على حصير، فجلس، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فقال عمر: فنظرت ببصري في خزانة رسول اللّه ـ ﷺ ـ ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلّق، قال: فابتدرت عيناي، قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟

قلت: يا نبي اللّه، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول اللّه وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟! قلت: بلى.)(١)

١ – التفسير المنير للزحيلي – (٢٨ / ٣١١)

نسيبة بنت كعب الأنصارية-رضي الله عنها -

ترجمتها (١) نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول .

أمها: الرباب بنت عبد الله بن حبيب بن زيد بن ثعلبة بن زيد ، .... بن جشم بن الخزرج .

أول مقاتلة في الإسلام ورافقت النبي ـ ﷺ ـ في الجنة .

زوجها زيد بن عاصم بن كعب، والد حبيب الذي قتله مسيلمة الكذاب، وتزوجت بعد زيد بن عاصم غزية بن عمرو بن عطية ، بن خناس المازني ، وهو ممن شهد العقبة وأحدا .

أولادها من غزية بن عمرو: تميم وخولة (٢)

شهدت ليلة العقبة، وشهدت أحداً، والحديبية، ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت وقطعت يدها في الجهاد.

جرحت أم عمارة بأحد اثني عشر جرحـًا.

وجرحت يوم اليمامة أحد عشر جرحـًا سوى قطع يدها.

وأخوها عبد الله بن كعب المازني من البدرين.

وأخوها عبد الرحمن من البكائين.

موقفها يوم أحد

---

١ – طبقات ابن سعد: ٨ / ٤١٠٤١٢، طبقات خليفة: ٣٣٩، الاستبصار: ٨٢، الاستيعاب: ٤ / ١٩٤٨، أسد الغابة: ٧ / ٢٨٠، تهذيب الكمال: ١٧٠٣، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٧٤، الاصابة: ١٣ / ١٥١، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩٩، كنز العمال: ١٣ / ٦٢٥.

٢- الطبقات الكبرى (٣٠٣/٨) ، والإصابة (٤٤١/٨)

عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه عن أمه قال: شهدت أحداً مع رسول الله ـ ﷺ ـ فلما تفرق الناس عنه دنوت أنا وأمي ندب عنه، فقال:" ابن أم عمارة "؟ قلت: نعم قال :" ارم" ، فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأصبت عين الفرس ، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة حتى نضدت عليه منها وقراً ، والنبي ـ ﷺ ـ ينظر يبتسم ونظر جرح أمي على عاتقها .

فقال:" أمك أمك ، أعصب جرحها : بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان ، وفلان ، رحمكم الله أهل البيت ، ومقام ربيبك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل البيت ".

قالت: ادع الله أن نرافقك في الجنة فقال:" اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة ".

فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا. (١)

عن ضمرة بن سعيد المازني يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحدا، قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: " لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ".

وكانت تراها يومئذ تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا ؛ و [كانت تقول]: إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها. وكان أعظم جراحها، فداوته سنة.

ثم نادى منادي رسول الله ـ ﷺ ـ: إلى حمراء الأسد فشدت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم. رضي الله عنها ورحمها . (٢).

عن عمارة بن غزية قال: قالت أم عمارة: رأيتني، وانكشف الناس عن رسول الله ـ ﷺ ـ، فما بقي إلا في نفير ما يتمون عشرة ؛ وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يمرون به منهزمين، ورآني ولا ترس معي، فرأى رجلا موليا ومعه ترس، فقال: ألق ترسك إلى من يقاتل.

١- (أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٤١٥، ٤١٤

٢ –ابن سعد ٨ / ٤١٣.

فألقاه، فأخذته.

فجعلت أترس به عن رسول الله.

وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ؛ لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم، إن شاء الله.

فيقبل رجل على فرس، فيضربني، وترست له، فلم يصنع شيئا، وولي ؛ فأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره.

فجعل النبي ـ ﷺ ـ يصيح: يا ابن أم عمارة، أمك ! أمك! قالت: فعاونني عليه، حتى أوردته شعوب (١).

عبد الله بن زيد، قال: جرحت يومئذ جرحا، وجعل الدم لا يرقأ.

فقال النبي ـ ﷺ ـ: " اعصب جرحك ".

فتقبل أمي إلي، ومعها عصائب في حقوها ؛ فربطت جرحي، والنبي ـ ﷺ ـ واقف، فقال: انهض بني، فضارب القوم! وجعل يقول: " من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة " ! فأقبل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله: هذا ضارب ابنك.

قالت: فأعترض له، فأضرب ساقه، فبرك.

فرأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يبتسم، حتى رأيت نواجذه، وقال: " استقدت يا أم عمارة " ! ثم أقبلنا نعله بالسلاح، حتى أتينا على نفسه.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " الحمد لله الذي ظفرك " (٢).

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة، عن الحارث بن عبد الله: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: شهدت أحدا، فلما تفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دنوت منه أنا وأمي، نذب عنه.

فقال: " ابن أم عمارة؟ " قلت: نعم.

قال: " ارم " فرميت بين يديه رجلا بحجر وهو على فرس فأصبت عين الفرس.

---

١ –شعوب: من أسماء المنية، والخبر في " الطبقات " ٨ / ٤١٣، ٤١٤

٢ – ابن سعد ٨ / ٤١٤.

فاضطرب الفرس، فوقع هو وصاحبه ؛ وجعلت أعلوه بالحجارة، والنبي صلى الله عليه وسلم يبتسم.

ونظر إلى جرح أمي على عاتقها، فقال: " أمك أمك ! اعصب جرحها ! اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة ".

قلت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا (١).

وعن موسى بن ضمرة بن سعيد، عن أبيه، قال: أتي عمر بن الخطاب بمروط فيها مرط جيد ؛ فبعث به إلى أم عمارة (٢).

شعبة، عن حبيب بن زيد الانصاري، عن امرأة، عن أم عمارة، قالت: أتانا رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقربنا إليه طعاما، وكان بعض من عنده صائما، فقال النبي ـ ﷺ ـ: " إذا أكل عند الصائم الطعام، صلت عليه الملائكة " (٣).

وعن محمد بن يحيى بن حبان، قال: جرحت أم عمارة [بأحد اثني عشر جرحا]، وقطعت يدها يوم اليمامة ؛ [وجرحت يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحا].

فقدمت المدينة وبها الجراحة، فلقد رئي أبو بكر رضي الله عنه، وهو خليفة، يأتيها يسأل عنها (٤).

وابنها حبيب بن زيد بن عاصم هو الذي قطعه مسلمة.)(٥)

دروس وعبر

أخي المسلم: نرى من خلال تلك المواقف لتلك الأسرة المجاهدة التي نزلت كلها إلى أرض الجهاد لترفع راية التوحيد وتنصر النبي ـ ﷺ ـ الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور نرى بصدق وإخلاص كيف كانت دور المرأة في الحياة العسكرية فها هي نسيبة –

---

١ – ابن سعد ٨ / ٤١٤، ٤١٥.

٢ – ابن سعد ٨ / ٤١٥

٣ – رجاله ثقات عدا المرأة التي روت عن مولاتها أم عمارة واسمها ليلى لم يوثقها غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل. والحديث أخرجه ابن سعد ٨ / ٤١٥، ٤١٦، وأحمد ٦ / ٤٣٩، والترمذي (٧٨٥)، وابن ماجة (١٧٤٨) والدارمي ٢ / ١٧، وابن حبان (٩٥٣).

٤ – ابن سعد ٨ / ٤١٦.

٥ – سير أعلام النبلاء – (٢ / ٢٨٠/٢٨٤)

رضي الله عنها-تخوض غمار المعركة بل لما فر الكماة من الميدان وقفت هي كالأسد الهصور التي يدافع عن عرينه ببسالة و شجاعة ... إنها روح الإيمان التي لا تفرق بين مؤمن و لا مؤمن

فلو أن النساء كمن ذكرن لفضلت النساء على الرجال

إلى دعاة تحرير المرأة إلى أذناب العلمانيين ها ي المرأة في الإسلام صانعة الانتصارات رافعة الرايات لم يحرمها الإسلام من إن تنزل إلى الميدان و لكن نزولها كان فق مراد الله ومراد رسوله ـ ﷺ ـ خرجت محتشمة غير مبتذلة عفتها و حجابها أجمل ما تتزين به حالهن حياء أحب إلي من ولدي.

سمية بنت خياط –رضي الله عنها–

أول شهيدة

في الإسلام

ترجمتها: سمية بنت خياط، وقيل: ضباط، أم عمار بن ياسر، من كبار الصحابيات، وهي أول امرأة ظهرت إسلامها، وكانت سابعة سبعة في الإسلام.

زوجها: هو ياسر بن عامر الذي قدم مكة هو وأخوه الحارث ومالك من اليمن يطلبون أخًا لهم، فرجع أخواه ، وأقام ياسر ، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانت سمية أمة لأبي حذيفة وزوجها ياسر بن عامر ، فولدت له عماراً ، فأعتقه أبو حذيفة ثم مات أبو حذيفة ، فلما جاء الله بالإسلام أسلم عمار وأبواه وأخوه عبد الله ، وتزوج بسمية بعد ياسر الأزرق الرومي غلام الحارث بن كلدة الثقفي ، وله صحبة ، وهو والد سلمة بن الأزرق .(١)

ابنها عمار صحابي جليل ، وهو أول من بنى مسجدا يصلى فيه .

قال عنه رسول الله ـ ﷺ ـ: "ابن سمية ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما" .(٢)

قال المناوي في فيض القدير : في الحديث منقبة عظيمة لعمار بن ياسر الصحابي الجليل رضي الله عنه ، و أنه موفق لاختيار الأرشد من الأمور .

سمية رضي الله عنها

ومن خديجة إلى مقام الإيمان والتوحيد والصبر على الإيمان بالحميد المجيد، إلى سمية وهي تُكاد على الإيمان بالله، وتهان من أجل لا إله إلا الله، إلى تلك المرأة التي آمنت

---

١ –الطبقات الكبرى (٣/٢٤٦) .

٢ – أخرجه أحمد والحاكم عن ابن مسعود ، صحيح الجامع حديث رقم (٤٨) .

بربها، وصَدَّقت بوحدانية خالقها فقيدت إلى العذاب الذي يفضي بها إلى رحمة رب الأرباب، قيدت إلى العذاب الذي فيه مهانة الدنيا، ولكن مآله كرامة الآخرة، إنها سمية أول شهيدة في الإسلام، التي رضيت أن تنال العذاب، وأن ترى ما ترى من صنوف البلاء والمهانة في الله ولله، وكل ذلك من أجل أن يرضى عنها الله، فما وهنت في طاعته، وما ضعفت في سبيله، فيا له من قلب موحد لله! قلب سكن التوحيدُ بشعابه، ونزل إلى أعماق جذوره، فاهتدت بهدي ربها فلم تبتغ عن سبيله تحويلاً، ولا له بديلاً.

إنها سمية الأمس التي صبرت على طاعة الله ومحبته، وأوذيت في الله، وعايشت ما عايشت من البلاء والضنك في سبيل طاعة الله ومرضاته.

وأشباه سمية في عصرنا الحاضر كثير، وما زال الخير في الأمة، فكما أن الخير في الرجال فإن الخير موجود في النساء، فما زالت سمية في الأمة باقية إنها سمية التي تعيش بهدايتها وحيدة بين أسرة كاملة إنها سمية التي تعيش بإيمانها وطاعتها لربها وعفافها بين أخواتٍ وزميلاتٍ بعيدات عن الله إنها سمية اليوم التي تؤذى في لباسها فتصبر وتحتسب، وتؤذى في حيائها فتصبر وتحتسب، وتؤذى في شيمتها وعفتها فتصبر لوجه الله وتحتسب.

إنها سمية اليوم الصادقة مع ربها، الموقنة بلقاء خالقها إنها سمية اليوم التي لم تلتفت إلى مفاتن الأزياء، ولم يغرها ما غر غيرها من النساء إنها سمية التي أوذيت باللسان، فسمعت من الكلام ما كرهت ولكن رضيت بالله، ورضيت البقاء على طاعة الله ومحبته؛ فطوبى لها وحسن مآب!

موقفها وثباتها على الدين

سمية بنت خياط أول شهيدة في الإسلام.

مع كبر سنها وضعفها، كانت ممن يعذب في الله عز وجل أشد العذاب، ويؤذي في الله جل ثناؤه، أشد الإيذاء ، فما ضعفت وما وهنت وما استكانت ، وكانت من الصابرات ، أجبروها على الكفر فأبت ،وأجبروها على سب الرسول – صلى الله عليه و سلم –

فرفضت ، فساموها أشد العذاب ، وهي العجوز الكبيرة الضعيفة فما صدها هذا عن دين الله .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ مر بعمار وأمه وأبيه وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة فقال : " صبراً آل ياسر موعدكم الجنة ".(١)

قال ابن حجر: أخرج ابن سعد بسندٍ صحيح، عن مجاهد، قال: أول شهيدة في الإسلام: سمية والدة عمار بن ياسر، وكانت عجوزاً كبيرة ضعيفة اهـ.(٢)

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: سمية بنت خياط رضي الله عنها مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، وهي أم عمار بن ياسر ، أسلمت بمكة قديما ، وكانت ممن يعذب في الله عز وجل لترجع عن دينها فلم تفعل ، فمر بها يوما أبو جهل فطعنها في قبلها فماتت ، وكانت عجوزا كبيرة فهي أول شهيدة في الإسلام رحمها الله .(٣)

وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ماتقدمه امرأة في سبيل الله؛ لتبقى كل امرأة مسلمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنوا إليها، ويهفو قلبها في الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله بعد أن جادت سمية بنت خُياط بدمها في سبيل الله(٤).

---

١ –رواه الحاكم برقم (٣/ ٣٣٨)، وصححه، ووافقه الذهبي.

٢ –" الإصابة" (٧/٧١٣).

- ٣ صفوة الصفوة (٢/٥٩).

٤ – التربية القيادية (١/٢١٧).

خولة بنت ثعلبة-رضي الله عنها-

المرأة التي سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات

ترجمتها: خولة بنت ثعلبة ويقال خويلة. وخولة أكثر وقيل خولة بنت حكيم وقيل خولة بنت مالك بن ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف. وأما عروة ومحمد بن كعب وعكرمة فقالوا: خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت فظاهر منها وفيها نزلت: " قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله " .(١)

موقفها الذي سجله القران

وهي التي جاءت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تشتكي زوجها وتجادله فيه ، بعد أن قال لها زوجها أوس بن الصامت عندما غضب منها : أنت علي كظهر أمي ، ثم عاد لها مرة أخرى يريدها عن نفسها فأبت ، وقالت كلا والذي نفس خولة بيده ، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه .

فجلست بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرت له ما لقين من زوجها ، وهي بذلك تريد أن تستفتيه وتجادله في الأمر ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يقول : "ما أمرنا في أمرك بشيء ، ما أعلمك قد حرمت عليه" ، وهي لشدة إيمانها تعيد الكلام على رسول الله ـ ﷺ ـ وتبين له ما قد يصيبها وابنها إذا افترقت عن زوجها ، وفي كل مرة يقول لها رسول الله ـ ﷺ ـ: "ما أعلمك قد حرمت عليه" .

ثم رفعت يديها إلى السماء وقالت: اللهم إني أشكو إليك ما نزل بي.

وما كادت أن تفرغ من دعائها حتى نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ـ ﷺ ـ وتغشاه الوحي ، ثم سري عنه ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: "يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك

---

١ – الإستيعاب في معرفة الأصحاب –(٢ / ٩١).

قرآنـًا ثم قرأ عليها : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .(المجادلة ١)

قالت عائشة رضي الله عنها : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمعُ كلامَ خولة بنت ثَعلبة ويخفى على بعضُهُ وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهي تقول : يا رسول الله أكَلَ شبابي ونثرتُ له بطني حتى إذا كَبُرتْ سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك فما برحتْ حتى نزل جبريلُ بهؤلاء الآيات :﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّه﴾ .(١)

دروس وعبر وأحكام

يقول الزحيلي: يفهم من الآيات ما يأتي:

١-الشكوى إلى اللّه من الهم والحزن والضيق أنجع طريق، فقد أجاب اللّه شكوى خولة بنت ثعلبة وقبل استغاثتها، وحقق ما توقعته من ربها، لثقتها بفضل اللّه وإحسانها.

والإجابة والقبول هو المقصود من قوله سبحانه: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ.

والسماع في الأصل إدراك المسموعات، والسمع والبصر صفتان للّه كالعلم والقدرة والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات، لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفا بهما.

والسميع: المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن، لأن الأصوات لا تخفى عليه.

٢-الظهار معصية وحرام ومنكر شرعا من القول وزور (كذب) وليست النساء بأمهات، فما أمهاتهم إلا الوالدات. وأصل الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فمن قال ذلك فهو مظاهر بالإجماع، كما أن من قال لها: أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم، فهو مظاهر.

والظهار نوعان: صريح وكناية، فالصريح: أنت علي كظهر أمي، وأنت عندي، وأنت مني، وأنت معي كظهر أمي، أو أنت علي حرام كظهر أمي، وكذا: أنت علي كبطن أمي أو

---

١ -. قصة المجادلة أخرجها الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد (١٦٨/٦

كرأسها أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علي كظهر أمي، ففي ذلك كله يكون مظاهرا.

والكناية: أن يقول: أنت علي كأمي أو مثل أمي، فإنه يعتبر فيه النية، فإن أراد الظهار كان ظهارا، وإن لم يرد الظهار، لم يكن مظاهرا عند أئمة المذاهب الأربعة، لأنه أطلق تشبيه امرأته بأمه، فكان ظهارا.

والظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها، على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه.

ويلزم عند مالك الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها، ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة، لقوله تعالى: مِنْ نِسائِهِمْ وهذه ليست من نسائه.

والذميّ لا يلزم ظهاره عند أبي حنيفة ومالك، لقوله تعالى: مِنْكُمْ يعني من المسلمين، وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب. ويلزم ظهاره عند الشافعي وأحمد، لعموم قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ} ...

ولا ظهار للمرأة من الرجل في قول الجمهور، لأن اللّه تعالى قال: {الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ} ولم يقل: اللائي يظاهرن منكن من أزواجهم، إنما الظهار على الرجال. وقال الأوزاعي وإسحاق وأبو يوسف: إذا قالت المرأة لزوجها: أنت علي كظهر أمي فلانة، فهي يمين تكفّرها. وقال أحمد: يجب عليها كفارة الظهار، لأنها أتت بالمنكر من القول والزور.

وظهار السكران صحيح كطلاقه، ويلزمه حكم الظهار والطلاق إذا عقل، بالاتفاق، ولا يصح ظهار المكره عند الجمهور غير الحنفية. وكذا يلزم الغضبان حكم الظهار. ومن كان به لمم، أي إلمام بالنساء وشدة حرص وتوقان إليهن، كأوس بن الصامت الذي ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة، لزمه ظهاره.

وليس معنى اللمم: الجنون والخبل كما قال الخطابي، إذ لو كان به ذلك، ثم ظاهر في تلك الحالة، لم يكن يلزمه شيء.

ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ بها بشيء حتى يكفّر في رأي الجمهور، ورأى الشافعي أن المباشرة ليلا لا تقطع الصوم ولا تحرم.

ومن وطئ قبل أن يكفّر: عليه كفارة واحدة في رأي الجمهور، وقال بعضهم (مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن مهدي) : عليه كفارتان، ودليل الجمهور: أن الآية دلت على أنه يجب على المظاهر كفارة قبل العود، وهنا فاتت صفة القبلية، فيبقى أصل وجوب الكفارة، وليس في الآية دلالة على أن ترك التقديم يوجب كفارة أخرى.

وإذا كظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة، كقوله: أنتن علي كظهر أمي، كان مظاهرا من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطئ إحداهن، وأجزأته كفارة واحدة في قول الجمهور، وقال الشافعي في الأظهر: تلزمه أربع كفارات.

وإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكن فأنتن علي كظهر أمي، فتزوج إحداهن، لم يقربها حتى يكفّر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن.

وإن قال لامرأته: أنت علي كظهر أمي وأنت طالق البتة ، لزمه الطلاق والظهار معا، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر، ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر. والمبتوتة عند المالكية لا يلحقها طلاق ولا ظهار.

٣-كفارة الظهار واجبة على الترتيب: الإعتاق، ثم الصيام شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكينا، وذلك قبل التّماس، أي الجماع ومقدماته عند الحنفية، والجماع فقط عند الشافعية، فإن جامع قبل أن يكفر، لم يجب عليه إلا كفارة واحدة في قول أكثر العلماء كما تقدم.

٤-العود لما قال المظاهر في الظهار: معناه عند الحنفية والمالكية: العزم على الوطء أو إرادة الوطء، والوطء في الفرج عند الحنابلة، وإمساك الزوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق في مذهب الشافعية.

والأظهر أنه لا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفّر، فإن تهاون بالتكفير حال الإمام بينه وبينها، ويجبره على التكفير.

٥-يجزئ عند الحنفية إعتاق الرقبة الكافرة ومن فيها شائبة رق كالمكاتبة وغيرها، ولا يجزئ إعتاق غير الرقبة المؤمنة عند بقية المذاهب، ولا يجزئ عند الشافعي-رحمه اللّه - إعتاق المكاتب.

ومن لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئا سواه، فله أن يصوم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة:

لا يصوم وعليه عتق، ولو كان محتاجا إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم، لزمه العتق، فإن عجز عن الرقبة، صام شهرين متتابعين.

٦-تتابع الصيام شرط، وينقطع تتابع صوم الشهرين إن أفطر بغير عذر، ويستأنف. فإن أفطر بعذر من سفر أو مرض، بنى وأكمل عند المالكية والحنابلة، واستأنف أو ابتدأ الصيام من جديد عند الحنفية والشافعية، لفوات التتابع، ولكن لا ينقطع عند هؤلاء بحيض أو نفاس أو جنون.

وينقطع التتابع بالوطء ليلا أو نهارا عند الجمهور، لقوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} ولا يبطل التتابع عند الشافعية بالوطء ليلا، لأنه ليس محلا للصوم.

٧-لا يجزئ عند مالك والشافعي وأحمد أن يطعم أقل من ستين مسكينا، وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكينا واحدا كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد، أجزأه.

٨-إن كفارة الظهار إيمان باللّه سبحانه وتعالى، لقوله: {ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي لتكونوا مطيعين للّه سبحانه، واقفين عند حدود الكفارة لا تتعدّوها، فسمى التكفير طاعة، ومراعاة الحد إيمانا. وتلك حدود اللّه تعالى بين معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة، ولمن لم يصدق بأحكام اللّه تعالى عذاب جهنم.

وهذا دليل على أن العمل داخل في مسمى الإيمان، لأن اللّه أمر بهذه الأعمال، وبيّن أنه أمرهم بها ليصيروا بعملها مؤمنين، فدلت الآية على أن العمل من الإيمان.

وأنكر بعضهم ذلك وقال: إنه تعالى لم يقل: {ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ} بعمل هذه الأشياء، ورد الرازي عليهم بأن المعنى: ذلك لتؤمنوا باللّه بالإقرار بهذه الأحكام.

ودل قوله: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ} على أنه لا بد لهم من الطاعة، وأن العذاب لمن جحد هذا وكذب به.(١)

موفقها مع عمر – رضي الله عنهما

عن قتادة قال: خرج عمر من المسجد ومعه الجارود العبدي فإذا بامرأة برزت على ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام وقالت هيهات يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد. ومن خاف الموت خشي عليه الفوت.

فقال الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين. فقال عمر: دعها أما تعرفها فهذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات فعمر والله أحق أن يسمع لها. (٢)

دروس وعبر

أولا: وها هي خولة – رضي الله عنها تقو بالحسبة وتذكر عمر –رضي الله عنه –بما مر من أطوار ومال من كرامة ومكانة

ثانيا: الأمر بالمعروف فريضة على كل مسلم ومسلمة على قدر استطاعته عن طارق بن شهاب قال: خطب مروان قبل الصلاة في يوم العيد فقام رجل فقال إنما كانت الصلاة قبل الخطبة فقال ترك ذلك يا أبا فلان فقام أبو سعيد الخدري فقال أما هذا فقد قضى ما عليه

---

١ – التفسير المنير للزحيلي – (٢٨ / ٢٠/٢٤)

٢ – الإستيعاب في معرفة الأصحاب – (٢ / ٩١) نور الأبصار ص ٥٨ ط مصر عام ١٣١٢، شذرات الذهب: ١ / ١٩ ط مصر، الفتوحات الإسلامية ٢ / ٤٢٢ – ٤٢٣، تاريخ المدينة المنورة: ٢ / ٧٧٤. ورواه الدرامي في الرد على الجهمية (ص ٢٦) من طريق أبي يزيد، عن عمر بن الخطاب به. قال الذهبي في العلو (ص ١١٣): "هذا إسناد صالح فيه انقطاع، أبو يزيد لم يلحق عمر".

سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان (١)

ثالثا: تواضع عمر – رضي الله عنه – ووقوفه لها ليسمع كلامها و يصغي إلى حديثها

١ – أخرجه أحمد ح ١١١٦٦ ومسلم ح ٤٩

أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-

ذات النطاقين

ترجمتها: أسماء بنت أبي بكر [1] عبد الله بن أبي قحافة عثمان.

أم عبد الله القرشية التيمية، المكية، ثم المدنية.

والدة الخليفة عبد الله بن الزبير، وأخت أم المؤمنين عائشة، وآخر المهاجرات وفاة.

روت عدة أحاديث.

وعمرت دهرا.

وتعرف بذات النطاقين.

أبوها صحابي، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عبد الله بن أبي قحافة، وجدها صحابي، وهو أبو عتيق، وأخوها صحابي، وهو عبد الرحمن، وأختها صحابية وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وزوجها صحابي وهو الزبير بن العوام حواري رسول الله ـ ﷺ ـ، وابنها صحابي وهو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه .

موقفها في هجرة النبي ـ ﷺ ـ

نعيش مع المرأة المجاهدة الزكية الفطنة التي كان لها دورا فعالا في نجاح هجرة النبي ـ ﷺ ـ في الهجرة النبوية: قالت السيدة عائشة في حديث طويل منه: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبى بكر، عند الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله متقنعًا[2] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر..إلى أن قالت:.. فجهزناهما أحث الجهاز (من الحثّ وهو الإسراع) ووضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما قطعة من نطاقها، فربطت

---

[1] – طبقات ابن سعد: ٨ / ٢٥٥ ٢٤٩، طبقات خليفة: ٣٣٣، تاريخ خليفة: ٢٦٩، المعارف: ١٧٢، ١٧٣، ٢٠٠، ٢٢١، تاريخ الفسوي: ١ / ٢٢٤، المستدرك: ٤ / ٦٥ ٦٤، الاستيعاب: ٤ / ١٧٨١، ابن عساكر: ١٩ / ١٩٠ / ١، جامع الأصول: ٩ / ١٤٥، أسد الغابة ٧ / ٩، تهذيب الكمال: ١٦٧٦، تذهيب التهذيب: ٤ / ٢ / ٢٥٦، تاريخ الإسلام: ٣ / ١٣٣، العبر: ١ / ٨٢، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٦٠، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٣٩٨، الإصابة: ١٢ / ١١٤، خلاصة تذهيب الكمال، ٤٨٨، كنز العمال: ١٣ / ٦٢٧، شذرات الذهب: ١ / ٤٤ و ٨٠.

[2] – متقنعًا: مغطيًا رأسه.

به على فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين(١). فقد أسهمت السيدة أسماء رضي الله عنها في تموين الرسول ـ ﷺ ـ وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: لما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ، وأبو بكر – رضي الله عنه – أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبى قالت: فرفع أبو جهل يده – وكان فاحشًا – فلطم خديّ لطمة، طرح منها قرطي، قالت: ثم انصرفوا(٢)، فهذا درس من أسماء والدة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، تعلّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفى أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم، وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد

ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله ونفسه. قالت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، قالت: فأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة في البيت كان أبى يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده فقلت: ضع يديك على هذا المال، قالت: ووضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئًا ولكني أردت أن أسكن

الشيخ بذلك(٣).

وبهذه الفطنة، والحكمة، سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التي كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقينًا، وثقة بلا حد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي

---

١ – البخاري رقم ٣٩٠٥، السيرة النبوية للصّلاّبي (١/ ٤٦٣).

٢ – تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٩، ٣٨٠)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٣١، ١٣٢).

٣ – السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٢)، إسناده صحيح.

الأمور ولا تلتفت إلى سفاسفها [1]، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر، وقلَّ أن يوجد نظيره، لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هن في أمس الحاجة إلى الاقتداء به والنسج على منواله[2].

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم!

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة لا تشكو ضيقًا، ولا تظهر حاجة، حتى بعث ـ ﷺ ـ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسوده بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة، المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان [3].

صلة أسماء لأمها المشركة: عن أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ، فاستفتيت رسول الله ـ ﷺ ـ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك»([4]).

قال ابن حجر: وفي قولها: وهي راغبة أقوال، والذي عليه الجمهور من هذه الأقوال أنها قدمت طالبة من بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة. وفي هذا الحديث من الفوائد ما ذكره الخطابي: إن الرحم الكافرة توصل بالمال ونحوه كما توصل المسلمة. [5].

وقد قال تعالى: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ صدق الله العظيم إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن

---

[1] – السفساف: الردئ الحقير من كل شيء، والجمع: سفاسف.

[2] – الهجرة النبوية المباركة ص١٢٨.

[3] – انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٨.

[4] – البخاري رقم ٢٦٢٠.

[5] – فتح الباري (٥/ ٢٧٧).

تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [الممتحنة: ٨، ٩]}. وهاتان الآيتان رخصة في الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة (١)..

موقفها يوم اليرموك

شجاعتها وجهادها في اليرموك مع زوجها: وأما شجاعتها وجراءتها وجهادها في سبيل الله، فأمر يفوق الخيال؛ فمن ذلك خروجها مع الجيش يوم اليرموك، فلقد شهدت اليرموك مع زوجها الزبير وابنها عبد الله ((٢)..

ومن شجاعتها استعدادُها التام لمواجهة اللصوص الذين كثروا في يوم من الأيام بالمدينة، عن فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبى بكر اتخذت خنجرًا للصوص زمن سعيد بن العاص - أي في زمن إمارته المدينة - وكانوا قد كثروا في المدينة، فكانت تجعله تحت رأسها (٣).

موقفها من الحجاج

عن أبي نوفل : رأيت عبد الله بن الزبير على عقبة المدينة قال : فجعلت قريش تمر عليه ، حتى مر عليه عبد الله بن عمر ، فوقف عليه فقال : السلام عليك أبا خبيب ، السلام عليك أبا خبيب ، السلام عليك أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله إن كنت ما علمت صواماً قواماً ، وصولاً للرحم ، أما والله لأمة أنت أشرها لأمة خير ، ثم نفذ عبد الله بن عمر ، فبلغ الحجاج موقف عبد الله وقوله ، فأرسل إليه ، فأنزل عن جذعه فألقي في قبور اليهود ، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر ، فأبت أن تأتيه ، فأعاد عليها الرسول لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك ، قال : فأبت ، وقالت : والله لا آتيك حتى تبعث إلي من يسحبني بقروني . قال : فقال : أروني سبتي ، فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذف ، حتى دخل

---

١ –) شرح منظومة الآداب (١/ ٢٩٧)، بر الوالدين، أم حفص عبير بنت محمد ص ٣٦.

٢ – طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٣)، أسماء بنت أبى بكر، للصّباغ ص ٣٣.

٣ – طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٣)، أسماء بنت أبى بكر، للصّباغ ص ٣٣.

عليها فقال : كيف رأيتني صنعت بعدو الله ؟ قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك ، بلغني أنك تقول له يا ابن ذات النطاقين ، أنا والله ذات النطاقين ، أما أحدهما فكنت أرفع بع طعام رسول الله ـ ﷺ ـ وطعام أبي بكر من الدواب ، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه ، أما إن رسول الله – صلى الله عليه و سلم – حدثنا : أن في ثقيف كذابًا ومبيراً ، فأما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه . قال : فقام عنها ولم يراجعها .(١)

****

(١) رواه مسلم في كتاب "فضائل الصحابة" باب ذكر كذا ثقيف ومبيرها .

كبشة بنت رافع -رضي الله عنها-

أم الأبطال

ترجمتها: (١) كبشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن الأبجر، وهو خدرة، وأمها أم الربيع بنت مالك بن عامر بن فهيرة بن بياضة. تزوج كبشة معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل فولدت له سعد بن معاذ وعمرو بن معاذ وإياسا وأوسا وعقرب وأم حزام بني معاذ بن النعمان. وأسلمت كبشة وبايعت رسول الله، ـ ﷺ ـ، وماتت بعد ابنها سعد بن معاذ.

لها مواقف تدل على إيمانها وجهادها وصبرها ، فقد خرجت في غزوة أحد مع من خرجن من النساء تطمئن على سلامة رسول الله – ـ ﷺ ـ – ، وقد وصلها خبر استشهاد ولدها عمرو بن معاذ رضي الله عنها ، ومعها هذا فقد كانت تريد الاطمئنان على سلامة رسول الله ـ ﷺ ـ.

وعندما وصلت أرض المعركة وعلمت بسلامة رسول الله ـ ﷺ ـ حمدت الله تعالى واعتبرت مصيبتها هينة .

وكان ابنها عمرو بن معاذ ـ ﷺ ـ يقاتل في المعركة، حتى لقيه ضرار بن الخطاب فقتله، وكان يومئذٍ ما يزال على شركه.

ومن مواقفها الإيمانية رضي الله عنها التي تدل على صبرها وجهادها وشجاعتها أيضاً.

حين كانت مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في غزوة الخندق في حصن بني حارثة ، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق قد رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم .

قالت عائشة رضي الله عنها: كنت في حصن بني حارثة وأم سعد بن معاذ معي، فمر سعد بن معاذ ، وهو يقول :

---

١ – الإستيعاب في معرفة الأصحاب – (٢ / ١١٧) الطبقات الكبرى لابن سعد – (٨ / ٣٧٠ أسد الغابة – (٣ / ٤٠٧) المنتظم – (١ / ٣٥٣) الإصابة في معرفة الصحابة – (٤ / ٥١) الوافي بالوفيات – (٧ / ٢٧١

لبث قليلاً يلحق الهيجا حَمَل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه رضي الله عنها: الحق يا بني فقد تأخرت،

فقلت: يا أم سعد لوددت أن درع سعد أسبغ مما هي،

قال: فأصابه السهم حيث خافت عليه،

وقال الذي رماه: خذها وأنا بن العرقة،

فقال: عرق الله وجهك في النار.

وابن العرقة، اسمه حبان بن عبد مناف من بني عامر بن لؤي.

والعرقة، أمه ، وقيل إن الذي أصاب سعد أبو أمامة الجشمي.(١)

انظر كم هي شجاعتها رضي الله عنها، وأرضاها وأكرمها في جنات الخلد مثواها .

يا حبذا لو تسلك نسائنا وبناتنا طريق هؤلاء الصحابيات الجليلات، وأن يقتدن بهن.

أم حرام بنت ملحان-رضي الله عنها

شهيدة البحر

ترجمتها (٢) أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار.

الأنصارية النجارية المدنية.

أخت أم سليم.

وخالة أنس بن مالك.

أسلمت وبايعت النبي – صلى الله عليه و سلم – وهاجرت، وروت عن رسول الله – ﷺ -.

---

(١) الإصابة (٣/ ٨٥) .

٢ – سير أعلام النبلاء – (٢ / ٣١٦)، طبقات ابن سعد: ٨ / ٤٣٤ – ٤٣٦، التاريخ لابن معين: ٧٤١، تاريخ خليفة: ١٦٠، الجرح والتعديل: ٩ / ٤٦١، الاستبصار: ٤٠، ٤١، ٤٢، الاستيعاب: ٤ / ١٩٣١، ابن عساكر: ١٩ / ٢٩٦ / ١، جامع الأصول: ٩ / ١٤٧، أسد الغابة: ٧ / ٣١٧، تهذيب الكمال: ١٧٠٠، تاريخ الإسلام: ٢ / ٧٨، العبر: ١ / ٢٩، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٦٣، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٦٢، الإصابة: ١٣ / ١٩٣، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩٧، شذرات الذهب: ١ / ٣٦.

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يزورها ويكرمها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنها – قال:كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدخل على أمَّ حرام بنت ملحان فتُطعمه.(١)

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أنها كانت محرما له ـ ﷺ ـ واختلفوا في كيفية ذلك.

فقال ابن عبد البر وغيره : كانت إحدى خالاته من الرضاعة ، وقال آخرون : بل كانت خالة لأبيه .(٢)

موقفها مع رسول اله ـ ﷺ ـ

وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ فأطعمته وجعلت تَفْلي رأسه فنام رسول الله ـ ﷺ ـ ثم استيقظ وهو يُضحك قالت: فقلت: وما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال :" ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاه في سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكًا على السرة أو مثل الملوك على السرة ".

قالت: فقلتُ يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها رسول الله ـ ﷺ ـ ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقلت: وما يضحكك يا رسول الله ؟

قال:" ناس من أمتي عُرضوا عليَّ في سبيل الله " كما قال في الأول ،

قالت: فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ،

قال:" أنت من الأولين "،

قال أنس بن مالك رضي الله عنه :فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت ، فلما جاز البحر ، ركبت دابة فصرعتها فقتلتها ، وكانت تلك الغزوة غزوة قبرس ، فدفنت فيها ، وكان أمير الجيش معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان رضي الله عنهم جميعًا .(٣)

١– رواه مسلم في صحيحه.

٢– شرح النووي على صحيح مسلم (٥٧/١٣).

٣– رواه البخاري برقم (٢٨٧٨)، ومسلم برقم (١٩١٢).

وكان ذلك في سنة سبع وعشرين .(١)

عن هشام بن الغاز قال: قبر أم حرام بنت ملحان بقبرص، وهم يقولون: هذا قبر المرأة الصالحة. (٢)

الربيع بنت معوّذ-رضي الله عنها-

بايعت تحت الشجرة

ترجمتها (٣)الربيع بنت معوذ ابن عقراء الأنصارية من بني النجار.

لها صحبة ورواية، وقد زارها النبي ـ ﷺ ـ صبيحة عرسها صلة لرحمها.

وزوجها هو الصحابي الجليل إياس بن بكير الليثي ، وهو أحد كبار المهاجرين .

ولها رضي الله عنها مناقب جمة ، منها زيارة رسول الله ـ ﷺ ـ لها في يوم عرسها.

قالت الربيع بنت معوذ رضي الله عنها : دخل علي النبي ـ ﷺ ـ في يوم عرسي ، فقعد على موضع فراشي كمجلسك مني ، وجويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر ، حتى قالت جارية :

وفينا نبي يعلم ما في غد .

فقال النبي ـ ﷺ ـ "لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين".(٤)

إنكار النبي ـ ﷺ ـ لهذه الجارية لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وليس لأحد من المخلوقين يعلم الغيب ، قال الله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ .(٥)

عزتها و شجاعتها

---

١ –الإصابة (٢٢٣/٨).

٢–رواه الطبراني في الكبير (١٣٠/٢٥).

٣ – طبقات ابن سعد ٨ / ٤٤٧، طبقات خليفة: ت ٣٢٩٤، المحبر: ٤٣٠، الاستيعاب: ١٨٣٧، أسد الغابة ٥ / ٤٥١، تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢ / ٣٤٣، تهذيب الكمال: ١٦٨٢، تاريخ الإسلام ٣ / ١٥٤، تذهيب التهذيب ٤ / ٢٦٠ ب، الإصابة ٤ / ٣٠٠، تهذيب التهذيب ١٢ / ٤١٨، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٢٣.

٤ –أخرجه البخاري في كتاب النكاح برقم (٣٧٧٩).

٥ –سورة الجن الآية (٢٦–٢٧).

ولها رضي الله عنها مواقف شجاعة تدل على اعتصامها بحبل الله تعالى وحبها للإسلام وأهله، ولا تخاف في الله لومة لائم، ولا تخشى أي أحد يخالف شرع الله تعالى.

عن الربيع قالت: أخذت طيبا من أسماء بنت مخربة أم أبي جهل، فقالت: اكتبي لي عليك، فقلت: نعم أكتب على ربيع بنت معوذ، فقالت: حلقي وإنك لابنة قاتل سيده، قلت: بل ابنة قاتل عبده، قالت والله لا أبيعك شيئا أبدا.

والربيع هي والدة محمد بن إياس بن البكير. (١)

وكان عدد من الصحابة والتابعين يأتونها فيسألونها عما تعرفه من أحكام، ومن مرويات.

عن الربيع بنت معوذ قالت: أرسل النبي ـ ﷺ ـ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: من أصبح مفطرا فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائما فليصم.

قالت: فكنا نصومه بعد ونصوم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العِهْن – الصوف –فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار". (٢)

إكرامه ـ ﷺ ـ للربيع بنت معوذ ولأم سنبلة

وأخرج الطبراني عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضي الله عنهما قالت بعثني معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه أجر من قثاء زغب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان النبي ـ ﷺ ـ يحب القثاء وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملأ يده منها فأعطانيها وفي رواية فأعطاني ملء كفي حليًا أو ذهبًا ، ورواه أحمد بنحوه وزاد ، فقال : تحلي بهذا ،

قال الهيثمي : وإسنادهما حسن ،

وأخرجه الترمذي عن الربيع مختصراً

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سنبلة رضي الله عنها أنها أتت النبي ـ ﷺ ـ بهدية فأبى أزواجه أن يقبلنها فقلن إنا لن نأخذ فأمرهن النبي ـ ﷺ ـ فأخذنها ثم أقطعها واديًا فاشتراه عبد الله بن جحش من حسن بن علي رضي الله عنهم

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٩٦٠) ، ومسلم برقم (٧٩٩/٢) .

قال الهيثمي وفيه عمرو بن قيظي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات

وقد تقدمت قص سخائه ـ ﷺ ـ في إنفاق الأموال .(١)

توفيت رضي الله عنها في أيام معاوية-رضي الله عنه -سنة ٤٥ هـ .

توفيت رضي الله عنها وأرضاها في خلافة عبد الملك بن مروان، سنة بضع وسبعين

الخنساء-رضي الله عنها-

ترجمتها هي: تماضر بنت عمرو ، بن الحارث ، بن الشريد ، بن ثعلبة بن عصية بن خفاف بن امرئ آلاف بن بهثة بن سليم السلمية .

قال ابن حجر: الشاعرة المشهورة عدا تماضر بمثناة فوقانية أوله وضاد معجمة، وفي ذلك يقول دريد بن الصمة حين رآها تهنأ إبلا لها ثم تجردت واغتسلت فأعجبته، فخطبها فأبت، فقال فيها:

حيوا تماضر واربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالي أينق جرب

متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب

أخناس قد هام الفؤاد بكم واعتاده داء من الحب

فبلغتها خطبته، فقالت: لا أدع بني عمي الطوال مثل عوالي الرماح وأتزوج شيخا، فلما بلغه ذلك قال من أبيات:

وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالي ونفسي

وقالت إنه شيخ كبير وهل خبرتها أني بن أمس

وقد علم المراضع في جمادي إذا استعجلن عن حز بنهس

موقفها يوم القادسية

(١) سير الصحابة من كتاب حياة الصحابة (٥٣٧/١) .

وفي معركة القادسية كانت الخنساء بنت عمرو السلمية ومعها بنوها أربعة رجال ، فذكر موعظتها لهم وتحريضهم على القتال وعدم الفرار ، وفيها : إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين وإنكم لبنوا أب واحد وأم واحدة ما هجنت آباءكم ولا فضحت أخوالكم ، فلما أصبحوا باشروا القتال واحدا بعد واحد حتى قتلوا ، وكان منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزا فأنشد الأول :

يا إخوتي إن العجوز الناصحه قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه

بمقالة ذات بيان واضحه وإنما تلقون ثم الصائحه

من آل ساسان كلابا نابحه .

وأنشد الثاني:

إن العجوز ذات حزم وجلد قد أمرتنا بالسداد والرشد

نصيحة منها وبرا بالولد فباكروا الحرب حماة في العدد

وأنشد الثالث:

والله لا نعصي العجوز حرفا نصحا وبرا صادقا ولطفا

فبادروا الحرب الضروس زحفا حتى تلفوا آل كسرى لفا

وأنشد الرابع:

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم

إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خضم حضرمي

ثم تقدم فقاتل حتى قتل:

قال: فبلغها الخبر، فقالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد مائتا درهم، حتى قبض. (١)

وتوفيت الخنساء بالبادية في أول خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٤هـ. (٢)

أسماء بنت يزيد بن السكن -رضي الله عنها-

خطيبة النساء

ترجمتها: هي: أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع، بن امرئ القيس، بن عبد الأشهل، بن الحارث، الأنصارية، الأوسية الأشهلية.

هي من المبايعات وهي ابنه عمة معاذ بن جبل.

كنيتها: أم عامر، وأم سلمة. محدثة فاضلة، ومجاهدة جليلة من ذوات العقل والدين والخطابة حتى لقبوها بخطيبة النساء.

أسماء خطيبة النساء

مع خطيبة النساء التي وقفت بين يدي النبي ـ ﷺ ـ لتطالب بالأجر و الثواب من الكريم الوهاب فهي تبين للنبي ـ ﷺ ـ ما حازه الرجال من شرف من أن الله تعالى قد خص الرجال بخصائص و رتب على تلك الخصائص من الأجر العظيم و الثواب الكريم فما لنا معشر النساء هيا لنرى عذوبة الحوار و كيف كان رد النبي المختار ـ ﷺ ـ

روي عنها : أنها أتت النبي ـ ﷺ ـ ، فقالت : إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين ، كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي : إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا بالجمعات وشهود الجنائز والجهاد وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ، فالتفت رسول الله ـ ﷺ ـ بوجهه إلى أصحابه ، فقال : "هل سمعتم مقالة

---

(١) أسد الغابة (٢٦٨/٥) ، الأعلام (٨٦/٢) .

(٢) الإصابة (٧/ ٦١٦) .

امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه" ، فقالوا : بلى والله يا رسول الله ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : "انصرفي يا أسماء وأعلمي من ورائك من النساء أن حسن تبعل(١) إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال" ، فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله ـ ﷺ ـ.(٢)

قال ابن حجر في الفتح: كان يقال لأسماء بنت يزيد خطيبة النساء. (٣)

هي واحدة من النسوة الطاهرات اللاتي ضربن أروع الأمثلة في الإيمان والعلم والصبر.

أسلمت في السابقين من الأنصار على يد مصعب بن عمير، وكانت أسماء بنت يزيد من النساء اللاتي يسألن رسول الله ـ ﷺ ـ عن أمور دينهن ـ لتصل إلى طريق الصواب، وتسلك جانب الخير، ولذلك وصفت بأنها كانت من ذوات العقل والدين.

وهي بنت عمة معاذ بن جبل الصحابي الجليل رضي الله عنه. ويلتقي نسبها بنسب سعد بن معاذ –رضي الله عنه –في جدهما امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل .

وفدت على النبي ـ ﷺ ـ في السنة الأولى من الهجرة ، وبايعته على الإسلام ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يبايع النساء بالآية الواردة في سورة الممتحنة وهي قوله :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .(٤)

جهادها: قتلت بعمود خبائها يوم اليرموك تسعة من الروم. (٥)

---

١ –أي حسن المصاحبة في الحياة الزوجية والمعاشرة.

٢ –الاستيعاب (١٧٨٧/٤) برقم (٣٢٣٣). و كشف الاستار ح ١٤٧٤و قال الالباني في ضعيف الترغيب والترهيب – (٢ / ٥)ح ١٢١٣ :ضعيف

٣ –الإصابة (٢١/٨).

٤ –الممتحنة الآية (١٢).

٥ – سير أعلام النبلاء –(٢ / ٢٩٧)

صفية عمة النبي -ﷺ-

ترجمتها: هي: صفية بنت عبد المطلب الهاشمية، عمة النبي -ﷺ-.

أمها: هالة بنت وهيب بن مناف بن زهرة بن كلاب، وكانت من المهاجرات الأول، شاعرة الهاشميات.

زوجها: الحارث بن حرب بن أمية – وهو أخو سفيان بن حرب – توفي عنها، فتزوجها العوام بن خويلد الأسدي أخو خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها – فولدت له الزبير، والسائب، وعبد الكعبة ، دعاها النبي -ﷺ- إلى الإسلام فأسلمت .(١)

وقد هاجرت صفية – رضي الله عنها – إلى المدينة مع ابنها الزبير ، وقامت بأهم الأدوار في معارك المسلمين .(٢)

ففي معركة أحد كانت رضي الله عنها في طليعة النسوة اللاتي خرجن لخدمة المجاهدين ، وتحميسهم على الجهاد ، ومداواة الجرحى .

موقفها يوم أحد

عن ابن عباس قال إن الله عز وجل أنزل في ذلك من قول رسول الله -ﷺ- وقول أصحابه ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] إلى آخر السورة فعفا رسول الله -ﷺ- وصبر ونهى عن المثلة (قال ابن إسحاق) وأقبلت فيما بلغني صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة وكان أخاها لابيها وأمها فقال رسول الله -ﷺ- لابنها الزبير بن العوام القها فارجعها لا ترى ما بأخيها فلقيها الزبير فقال لها يا أمه إن رسول الله -ﷺ- يأمرك أن ترجعي فقالت ولم وقد بلغني أنه مثل بأخي وذلك في الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولاصبرن إن شاء الله فلما جاء الزبير رسول الله -ﷺ- فأخبره بذلك قال خل سبيلها فأتته فنظرت إليه

١- سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٠).

٢-انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٠)، والإصابة (٨/٢١٤).

وصلت عليه واسترجعت واستغفرت له ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به فدفن)([1]

وهي أول امرأة قتلت رجلاً.

تحدث هي عن نفسها رضي الله عنها قالت: أنا أول امرأة قتلت رجلاً: كان حسان معنا، فمر بنا يهودي فجعل يطيف بالحصن، فقلت لحسان: إن هذا لا آمنه أن يدل على عورتنا، فقم فقتله.

يغفر الله لكِ! لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، فاحتجزت وأخذت عموداً، ونزلت، فضربته حتى قتلته. ([2])

احتجزت: أي شدت وسطها.

وعن عروة بن الزبير: أن صفية جاءت يوم أحد وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب في وجوههم فقال النبي -ﷺ-: **"يا زبير المرأة"** .([3])

موقفها يوم خيبر

ويوم خيبر خرجت صفية مع ابنها الزبير رضي الله عنهما فخرج ياسر اليهودي فبرز له الزبير – رضي الله عنه –فقالت صفية رضي الله عنها لما خرج إليه الزبير: يا رسول الله يقتل ابني ، فقال رسول الله -ﷺ-: **"بل ابنك يقتله إن شاء الله"** ، فخرج إليه وهو يرتجز ثم التقيا فقتله الزبير .([4])

وتألمت ألماً شديداً بمقتل شقيقها حمزة بن عبد المطلب–رضي الله عنه –، ولكنها استرجعت وصبرت.

ورثته بعد دفنه:

أسائله أصحاب أحد مخافة بنات أبي من أعجم وخيبر

---

[1] – تاريخ الطبري – (٢ / ٢٠٨)

([2]) رواه الحاكم برقم (٥١/٤) وصححه .

([3]) الإصابة (٢١٤/٨) ، والطبقات الكبرى (٣٤/٨) .

([4]) السنن الكبرى للبيهقي (١٣١/٩) .و قال الألباني في فقه السيرة – ص **٣٤٣** : ضعيف

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة إلى جنات الخلد يحيا بها وسرور

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا بكاء وحزنـًا محضري ومسيري

فيا ليت شلوي عند ذاك وأعظمي لدى أضبُع تعتادني ونسو

أم سليم الرميصاء-رضي الله عنها-

ترجمة أم سليم – رضي الله عنها (١)

أم سليم الغميصاء ويقال: الرميصاء، ويقال: سهلة، ويقال: أنيفة، ويقال: رميثة.

بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جند بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ؛ الأنصارية الخزرجية.

أم خادم النبي – -ﷺ-: أنس بن مالك.

دعاء النبي – -ﷺ- لها –رضي الله عنها-

عن أنس: أن النبي -ﷺ-دخل على أم سليم، فأتته بسمن وتمر.

فقال: إني صائم.

ثم قام، فصلى، ودعا لام سليم ولأهل بيتها، فقالت: إن لي خويصة قال: " ما هي " ؟

قالت: خادمك أنس، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به، وبعثت معي بمكتل من رطب إلى رسول الله -ﷺ- (٢).

مات زوجها مالك بن النضر، ثم تزوجها أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري، فولدت له: أبا عمير، وعبد الله.

شهدت: حنينا، واحدا، من أفاضل النساء.

زواجها من أبي طلحة-رضي الله عنهما-

عن إسحاق بن عبد الله، عن جدته أم سليم: أنها آمنت برسول الله -ﷺ-، قالت: فجاء أبو أنس، وكان غائبا، فقال: أصبوت؟

فقالت: ما صبوت، ولكني آمنت! وجعلت تلقن أنسا: قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدا رسول الله ففعل.

---

١ – سير أعلام النبلاء –(ج ٢ / ص ٣٠٤) ، طبقات ابن سعد: ٨ / ٤٢٤، طبقات خليفة: ٣٣٩، المعارف: ٢٧١، ٣٠٨، الجرح والتعديل: ٩ / ٤٦٤، الاستبصار: ٣٦ – ٣٧، الاستيعاب: ٤ / ١٨٤٧، جامع الأصول: ٩ / ١٥١، أسد الغابة ٧ / ٣٤٥، تهذيب الكمال: ١٧٠٣، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٦١، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٧١، الإصابة: ١٢ / ٢٦٥ و ١٣ / ٢٢٦، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩٨.

٢ – أخرجه البخاري (ح: ١٩٨٢)، ومسلم (ح: ٢٤٨٠) و أحمد (ج: ٣ص ١٠٨).

فيقول لها أبوه: لا تفسدي على ابني.

فتقول: إني لا أفسده! فخرج مالك، [فلقيه] عدو له، فقتله.

فقالت: لا جرم، لا أفطم أنسا حتى يدع الثدي ؛ ولا أتزوج حتى يأمرني أنس.

فخطبها أبو طلحة، وهو يومئذ مشرك، فأبت (١).

عن عبد الله بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس، قال: خطب أبو طلحة أم سليم، فقالت: إني قد آمنت ؛ فإن تابعتني تزوجتك، قال: فأنا على مثل ما أنت عليه.

فتزوجته أم سليم، وكان صداقها الإسلام (٢).

عن أنس، قال: خطب أبو طلحة أم سليم، فقالت: إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركا! أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان، وأنكم لو أشعلتم فيها نارا لاحترقت؟ قال: فانصرف وفي قلبه ذلك، ثم أتاها وقال: الذي عرضت علي قد قبلت.

قال: فما كان لها مهر إلا الإسلام (٣).

صبرها واحتسابها-رضي الله عنها-

عن أنس رضي الله عنه قال: كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة. فقبض الصبي. فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟

قالت أم سليم: هو أسكن مما كان. فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها.

فلما فرغت قالت: واروا الصبي. فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله -ﷺ- فأخبره .

فقال:" أعرستم الليلة " قال: نعم ، قال : اللهم بارك لهما " فولدت غلاما

فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي -ﷺ- ، فأتى به النبي -ﷺ- وبعث معه بتمرات فأخذه النبي -ﷺ- فقال :" أمعه شيء ؟"

---

١ -أخرجه ابن سعد ٨ / ٤٢٥، ٤٢٦، وتمامه: فقالت له يوما فيما تقول: أرأيت حجرا تعبده لا يضرك ولا ينفعك أو خشبة تأتي بها النجار، فينجرها لك: هل يضرك؟ هل ينفعك؟ قال: فوقع في قلبه الذي قالت، قال: فأتاها فقال: لقد وقع في قلبي الذي قلت، وآمن. قالت: فإني أتزوجك ولا آخذ منك صداقا غيره.

٢ – أخرجه النسائي ج ٦ص ١١٤ وصححه الألباني في صحيح النسائي

٣ – أخرجه النسائي ج ٦ ص ١١٤ و أبوة نعيم في الحلية ح ١٥١٠ و قال الحافظ في الفتح ح ١٨١٩ سنده صحيح و صححه الألباني في صحيح سنن النسائي سير أعلام النبلاء – (ج ٢ / ص ٣٠٥)

قالوا نعم، تمرات. فأخذها النبي -ﷺ- فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي. ثم حنكه وسماه عبد الله. (١).

مكانتها عند رسول الله -ﷺ-

أنس بن مالك: أن النبي -ﷺ- كان يزور أم سليم، فتتحفه بالشئ تصنعه له، وأخ لي أصغر مني يكنى أبا عمير، فزارنا يوما، فقال: مالي أرى أبا عمير خاثر النفس ؟ قالت: ماتت صعوة [له كان يلعب بها].

فجعل النبي يمسح رأسه، ويقول: " يا أبا عمير، ما فعل النغير؟ " (٢).

همام: حدثنا إسحاق بن عبد الله، عن أنس، قال: لم يكن رسول الله -ﷺ-يدخل بيتا غير بيت أم سليم.

فقيل له.

فقال: " إني أرحمها، قتل أخوها معي " (٣).

أيوب، عن ابن سيرين، عن أم سليم، قالت: كان رسول الله -ﷺ- يقيل في بيتي، وكنت أبسط له نطعا، فيقيل عليه، فيعرق، فكنت آخذ سكا فأعجنه بعرقه.

قال ابن سيرين: فاستوهبت من أم سليم من ذلك السك، فوهبت لي منه.

قال أيوب: فاستوهبت من محمد من ذلك السك، فوهب لي منه ؛ فإنه عندي الآن.

قال: ولما مات محمد حنط بذلك السك (٤).

عن أنس: أن النبي -ﷺ- لما أراد أن يحلق رأسه بمنى، أخذ أبو طلحة شق شعره، فجاء به إلى أم سليم، فكانت تجعله في سكها.

---

١ -أخرجه البخاري (ح: ٥٤٧٠) ومسلم (ح: ٢١٤٤) وابن سعد في الطبقات (ج ٨ ص ٤٣١)

٢ - أخرجه من هذا الوجه ابن سعد في " الطبقات " ٨ / ٤٢٧، وأصله في البخاري (ح: ٦٢٠٣) وابن ماجة (٣٧٢٠) وأحمد ٣ / ١١٩ وأخرجه أبو داود (٤٩٦٩)

٣ - أخرجه البخاري ح ج ٦ ص ٤٢٨ ومسلم ح ٢٤٥٥ وابن سعد ج ٨ / ٤٢٨

٤ -أخرجه البخاري ح ٥٨٠٩و أخرجه مسلم (٢٣٣١) وأحمد ٣ / ١٣٦ وابن سعد " ٨ / ٤٢٨

قالت: وكان يقيل عندي على نطع، وكان معراقا -ﷺ- ، فجعلت أسلت العرق في قارورة.

فاستيقظ، فقال: " ما تجعلين "؟ .

قلت: أريد أن أدوف بعرقك طيبي (١).

جهادها -رضي الله عنها-

قال محمد بن سيرين: كانت أم سليم – رضي الله عنها -مع النبي -ﷺ- يوم أحد، ومعها خنجر (٢).

حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن أم سليم اتخذت خنجرا يوم حنين، فقال أبو طلحة: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر! فقالت: يا رسول الله، إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه (٣)

أم سليم في الجنة عن أنس، قال: قال النبي -ﷺ-: دخلت الجنة، فسمعت خشفة بين يدى ؛ فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان (٤)

---

١ أخرجه أحمد ج ٣ / ٢٨٧و ابن سعد ج " ٨ / ٤٢٨، ٤٢٩،

٢ -أخرجه مسلم ح ١٨٠٩و أحمد ج٣ ص ١٠٩ و البيهقي ج٥ ص ١٠٥

٣ – أخرجه ابن سعد ج ٨ ص ٤٢٥

٤ – أخرجه مسلم ح ٢٤٥٦

أروى بنت عبد المطلب بن هاشم الهاشمية-رضي الله عنها-

ترجمتها: أروى بنت عبد المطلب بن هاشم الهاشمية عمة رسول الله -ﷺ-. قال أبو عمر: كانت تحت عمير بن وهب بن عبد بن قصي فولدت له طليباً ثم خلف عليه كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي فولدت له أروى.

وحكى أبو عمر عن محمد بن إسحاق -أنه لم يسلم من عمات النبي -ﷺ- إلا صفية.

وتعقبه بقصة أروى وذكرها العقيلي في الصحابة وأسند عن الواقدي عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبيه قال: لما أسلم طليب بن عمير دخل على أمه أروى بنت عبد المطلب فقال لها: قد أسلمت وتبعت محمداً فذكر قصة فيها: وما يمنعك أن تسلمي فقد أسلم أخوك حمزة؟

فقالت: أنظر ما يصنع أخواي. قال: قلت: فإني أسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصدقته.

قالت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم كانت بعد تعضد النبي -ﷺ- بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره.

وقال بن سعد: أسلمت وهاجرت إلى المدينة. وأخرج عن الواقدي بسند له إلى برة بنت أبي تجراة قالت: عرض أبو جهل وعدةٌ معه للنبي -ﷺ- فآذوه فعمد طليب بن عمير إلى أبي جهل فضربه فشجه فأخذوه فقام أبو لهب في نصرته وبلغ أروى فقالت: إن خير أيامه يوم نصر ابن خاله فقيل لأبي لهب: إن أروى صبت فدخل عليها يعاتبها فقالت: قم دون ابن أخيك فإنه إن يظهر كنت بالخيار وإلا كنت قد أعذرت في بن أخيك فقال أبو لهب: ولنا طاقة بالعرب قاطبة؟ إنه جاء بدينٍ محدث. قال ابن سعد: ويقال إن أروى قالت:

إن طليباً نصر ابن خاله واساه في ذي دمه وماله

وذكر محمد بن سعد أن أروى هذه رثت النبي -ﷺ- وأنشد لها من أبيات:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا

كأن على قلبي لذكر محمد وما جمعت بعد النبي المجاويا (١)

بين أروى بنت عبد المطلب ومعاوية بن ابي سفيان

روى ابن عائشة عن حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية بن أبي سفيان بالموسم وهي عجوز كبيرة فلما رآها قال مرحبًا بك يا عمة

قالت كيف أنت يا ابن أخي لقد كفرت بعدي بالنعمة وأسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آباءك في الإسلام ولقد كفرتم بما جاء به محمد -ﷺ- فأتعس الله منكم الجدود وأصعر منكم الخدود حتى رد الله الحق إلى أهله وكانت كلمة الله هي العليا ونبينا محمد صلى الله عليه هو المنصور على من ناواه ولو كره المشركون فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظًا ونصيبًا وقدراً حتى قبض الله نبيه -ﷺ- مغفوراً ذنبه مرفوعًا درجته شريفًا عند الله مرضيًا فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى حيث يقول ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠] ولم يجمع بعد رسول الله -ﷺ- لى الله عليه لنا شمل ولم يسهل لنا وعر وغايتنا الجنة وغايتكم النار

قال عمرو بن العاص أيتها العجوز الضالة اقصري من قولك وغضي من طرفك

قالت ومن أنت لا أم لك ؟

قال: عمرو بن العاص قالت يا بن اللخناء النابغة أتكلمني أربع على ظلعك واعن بشأن نفسك فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ولقد ادعاك ستة من قريش وكله يزعم أنه أبوك ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبدٍ عاهر " أي فاجر " فأتم بهم فإنك بهم أشبه

---

١ – الإصابة في معرفة الصحابة – (٣ / ٤٣٣)

فقال مروان بن الحكم أيتها العجوز الضالة ساخ بصرك مع ذهاب عقلك فلا يجوز شهادتك قالت يا بني أتتكلم فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم وإنك لشبهه في زرقة عينيك وحمرة شعرك مع قصر قامته وظاهر دمامته ولقد رأيت الحكم ماد القامة ظاهر الأمة سبط الشعر وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب فاسأل أمك عما ذكرت لك فإنها تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ثم التفتت إلى معاوية

فقالت والله ما عرضني لهؤلاء غيرك وإن أمك للقائلة في يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب يوم الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري

شفيت وحشي غليل صدري شفيت نفسي وقضيت نذري

فشكر وحشي علي عمري حتى تغيب أعظمي في قبري

" فأجبتها "

يا بنت رقاع عظيم الكفر خزيت في بدر وغير بدر

صبحك الله قبيل الفجر بالهاشميين الطوال الزهر

بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي وعلي صقري

إذ رام شبيب وأبوك غدري أعطيت وحشي ضمير الصدر

هتك وحشي حجاب الستر ما للبغايا بعدها من فخر

فقال معاوية لمروان وعمرو ويلكما أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما أكره ثم قال لها يا عمة أقصدي قصد حاجتك ودعي عنك أساطير النساء

قالت تأمر لي بألفي دينار وألفي دينار وألفي دينار قال ما تصنعين يا عمة بألفي دينار قالت أشتري بها عيناً خرخارة في أرض خوارة تكون لولد الحارث بن المطلب

قال نعم الموضع وضعتها فما تصنعين بألفي دينار

قالت أزوج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم

قال نعم الموضع وضعتها

فما تصنعين بألفي دينار

قالت أستعين بها على عسر المدينة وزيارة بيت الله الحرام

قال نعم الموضع وضعتها هي لك نعم وكرامة ثم قال أما والله لو كان علي ما أمر لك بها قالت صدقت، إن علياً أدى الأمانة وعمل بأمر الله وأخذ به وأنت ضيعت أمانتك وخنت الله في ماله فأعطيت مال الله من لا يستحقه وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبيّنها فلم تأخذ بها ودعانا " أي علي " إلى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها وما سألتك من مالك شيئاً فتمن به إنما سألتك من حقنا ولا نرى أخذ شيء غير حقنا أتذكر علياً فض الله فاك وأجهد بلاءك ثم علا بكاؤها وقالت:

ألا يا عين ويحك أسعدينا ألا وأبكي أمير المؤمنينا

رزينا خير من ركب المطايا وفارسها ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال أو احتذاها ومن قرأ المثاني والمئينا

إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راع الناظرينا

ولا والله لا أنسى علياً وحسن صلاته في الراكعينا

أفي الشهر الحرام فجعتمونا بخير الناس طرا أجمعينا

قال فأمر لها بستة آلاف دينار وقال لها يا عمة أنفقي هذه فيما تحبين فإذا احتجت فاكتبي إلى ابن أخيك يحسن صفدك ومعونتك إن شاء الله.(١)

١ – بلاغات النساء – (١ / ١٣) نثر الدر – (١ / ٢٧٠)

أم أيمن-رضي الله عنها

أم أيمن [1] الحبشية، مولاة رسول الله – ﷺ –، وحاضنته.

ورثها من أبيه، ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة.

وكانت من المهاجرات الاول.

اسمها: بركة.

وقد تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن.

ولايمن هجرة وجهاد، استشهد يوم حنين.

ثم تزوجها زيد بن حارثة ليالي بعث النبي –ﷺ– ، فولدت له أسامة بن زيد، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم.)[2]

هجرتها وما نالت من كرامة

جرير بن حازم: حدثنا عثمان بن القاسم، قال: لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء، فعطشت [وليس معها ماء] وهي صائمة، وجهدت، فدلي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض، فشربت، وكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت [3].

موقفه وبكائها يوم أن مات رسول الله – ﷺ –

---

[1] – طبقات ابن سعد: ٨ / ٢٢٣ – ٢٢٧، طبقات خليفة: ٣٣١، المعارف: ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ١٦٤، ٢٣٩، الجرح والتعديل: ٩ / ٤٦١، المستدرك: ٤ / ٦٣، ٦٤، الاستيعاب: ٤ / ١٧٩٣، أسد الغابة: ٧ / ٣٧، تهذيب الكمال: ١٦٧٨، العبر: / ١٣، ٥٩، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٥٨، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٥٩ – ٤٦٠، الاصابة: ١٣ / ١٧٧، خلاصة تدهيب الكمال: ٤٩٧، شذرات الذهب: ١ / ١٥. سير أعلام النبلاء – (٢ / ٢٢٣)

[2] – سير أعلام النبلاء – (٢ / ٢٢٤)

[3] – أخرجه ابن سعد ٨ / ٢٢٤ وعنه الحافظ في " الإصابة " ١٣ / ١٧٨، ورجاله ثقات لكنه منقطع.

وأخرج بن سعد بسندٍ صحيح عن طارق بن شهاب قال: لما قبض النبي – ﷺ –بكت أم أيمن فقيل لها: " ما يبكيك؟ قالت: أبكي على خبر السماء...

وفيه: لما قتل عمر بكت أم أيمن فقيل لها. فقالت: اليوم وهي الإسلام. وقال: حدثنا عفان وقال أحمد: حدثنا عبد الصمد قالا: حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن أم أيمن بكت حين مات النبي – ﷺ –فقيل لها. فقالت: أني والله لقد علمت أن رسول الله – ﷺ –يموت ولكني إنما أبكي على الوحي إذا انقطع عنا من السماء.(١)

---

١ –إسناده صحيح وهو في " طبقات ابن سعد " ٨ / ٢٢٦.

مسند أحمد: ٦ / ٢٨٣، طبقات ابن سعد: ٨ / ٨١ – ٨٦، طبقات خليفة: ٣٣٤، تاريخ خليفة: ٦٦، المعارف: ١٣٥، ١٥٨، ١٨٤، ٥٥٠، المستدرك: ٤ / ١٤ – ١٥، الاستيعاب: ٤ / ١٨١١، أسد الغابة: ٧ / ٦٥، تهذيب الكمال: ١٦٨٠، تاريخ الإسلام: ٢ / ٢٢٠، العبر: ١ / ٥، ٥٠، مجمع الزوائد: ٩ / ٢٤٤، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤١١ – ٤١٢، الإصابة: ١٢ / ١٩٧، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٩٠، كنز العمال: ١٣ / ٦٩٧، شذرات الذهب: ١ / ١٠ و ١٦.

بريرة مولاة عائشة-رضي الله عنهما-

بريرة مولاة أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها

بريرة مولاة عائشة بنت أبي بكر الصديق، كانت مولاة لبعض بني هلال فكاتبوها ثم باعوها من عائشة وجاء الحديث في شأنها بأن الولاء لمن أعتق. وعتقت تحت زوج، فخيرها رسول الله – ﷺ –فكانت سنة. واختلف في زوجها هل كان عبداً أو حراً ففي نقل أهل المدينة أنه كان عبداً يسمى مغيثًا وفي نقل أهل العراق أنه كان حراً وقد أوضحنا ذلك في كتاب التمهيد.)(١)

وصيتها لعبد الملك بن مروان-رضي الله عنها-

روى عبد الخالق بن زيد بن واقد قال: حدثني أبي أن عبد الملك بن مروان حدثه قال: كنت أجالس بريرة بالمدينة قبل أن ألي هذا الأمر فكانت تقول لي: يا عبد الملك إني أرى فيك خصالاً وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر فاحذر الدماء فإني سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: " إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق " ._ (٢)

الولاء لمن أعتق

عبد الواحد بن أيمن: حدثنا أبي، قال: دخلت على عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، إني كنت لعتبة بن أبي لهب، وإن بنيه وامرأته باعوني، واشترطوا الولاء، فمولى من أنا ؟ فقالت: يا بني، دخلت علي بريرة وهي مكاتبة، فقالت: اشتريني.

قلت: نعم.

---

١ – الإستيعاب في معرفة الأصحاب – (٢ / ٧٩)

٢ – الإصابة في معرفة الصحابة – (٣ / ٤٥٠) تاريخ دمشق – (٣٧ / ١١٢) أسد الغابة – (٣ / ٣٢١)

فقالت: إنهم لا يبيعونني حتى يشترطوا ولائي.

فقلت: لا حاجة لي فيك.

فسمع ذلك رسول الله – ﷺ –، أو بلغه، فقال: " ما بال بريرة " ؟ فأخبرته.

فقال: " اشتريها فأعتقيها، ودعيهم فيشترطون ما شاؤوا " فاشتريتها فأعتقتها، فقال ك " الولاء لمن أعتق، ولو اشترطوا مئة مرة " (١).

موقفها من زوجها-رضي الله عنها-

عن ابن عباس: أن زوج بريرة كان عبدا أسود، يسمى: مغيثا ؛ فقضى النبي صلى الله عليه وسلم فيها أربع قضيات: أن مواليها اشترطوا الولاء، فقضى أن الولاء لمن أعتق ؛ وخيرت فاختارت نفسها، فأمر النبي أن تعتد.

فكنت أراه يتبعها في سكك المدينة، يعصر عينيه عليها.

قال: وتصدق عليها بصدقة، فأهدت منها إلى عائشة، فذكر ذلك للنبي – ﷺ –، فقال: " هو عليها صدقة ولنا هدية " (٢).

عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له: مغيث كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي – ﷺ –لعباس: " يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا، فقال النبي – ﷺ –: " لو راجعته " قالت: يا رسول الله تأمرني ؟ قال: " إنما أنا أشفع " قالت: فلا حاجة لي فيه.(٣).

---

١ – إسناده صحيح، أخرجه ابن سعد في " الطبقات " ٨ / ٢٥٦، ٢٥٧، وأخرجه البخاري في " صحيحه " ٥ / ١٤٤ في العتق: باب إذا قال المكاتب اشترني وأعتقني فاشتراه لذلك.

٢ – إسناده صحيح، وهو في " الطبقات " ٨ / ٢٧٥، ٢٥٨، و " المسند " ١ / ٢٨١ و ٣٦١، سنن أبي داود (٢٢٣٢).

٣ – أخرجه البخاري ٩ / ٣٥٩

فاطمة بنت الخطاب-رضي الله عنها

ترجمتها: فاطمة بنت الخطاب بن نفيل القرشية: صحابية، من السابقات إلى الاسلام.

أسلمت قبل أخيها عمر، وأخفت إسلامها عنه، فدخل عليها فسمعها تتلو آيات من القرآن، فضربها وشجها.

والخبر معروف في إسلام عمر.

وكانت زوجة لسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل (١).

موقفها من أخيها عمر – رضي الله عنهما-

عن أنس بن مالك قال خرج عمر متقلدا السيف فلقيه رجل من بني زهرة فقال له أين تعمد يا عمر قال أريد أن أقتل محمدا قال فكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدا قال فقال له عمر ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه قال أفلا أدلك على العجب زاد الهيثم يا عمر فقالا إن ختنك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه قال فمشى عمر ذامرا يعني غضبانا حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب قال فلما سمع خباب بحس عمر توارى في البيت فدخل عليهما عمر فقال ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم قال وكانوا يقرأون " طه " فقالا ما عدا حديثا تحدثناه بيننا قال فلعلكما قد صبوتما ،فقال له ختنه يا عمر إن كان الحق في غير دينك قال فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئا شديدا قال فجاءت أخته لتدفعه وفي حديث الهيثم فدفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمي وجهها فقالت وهي غضبى وإن كان الحق في غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قال عمر أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه قال وكان عمر يقرأ الكتب فقالت له أخته إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو

---

١ – ابن سعد ٨: ١٩٥ والسيرة النبوية ١: ٢٧١ و ٣٦٧. و ٣٦٨ واسمها في جمهرة الأنساب ١٤٢ " أميمة " وفي الإصابة، باب النساء، ت ٨٣٧ " كان اسمها فاطمة ولقبها أميمة، وكنيتها أم جميل ".

توضأ قال فقام عمر فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ " طه " حتى انتهى إلى قوله " إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " فقال عمر دلوني على محمد - ﷺ - قال فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله - ﷺ -لك ليلة الخميس اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام وكان رسول الله - ﷺ -في الدار التي في أصل الصفا قال فانطلق عمر حتى أتى الدار وعلى باب الدار حمزة وطلحة وأناس من أصحاب النبي - ﷺ -فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة فهذا عمر فإن يرد الله بعمر خيرا أسلم وتبع وقال الفراوي يسلم فيتبع النبي - ﷺ -وإن يرد غير ذلك يكون قتله علينا هينا قال والنبي - ﷺ -داخل يوحى إليه قال فخرج رسول الله - ﷺ -حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف وقال ما أنت منته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة هذا عمر بن الخطاب اللهم أعز الدين وقال الفراوي الإسلام والدين بعمر بن الخطاب قال فقال عمر أشهد أنك رسول الله - ﷺ -وفي حديث الفراوي فقال عمر أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وقالا وقال (١)

[1] -رواه بطوله في سيرة ابن إسحاق ص ١٦٠ وما بعدها رقم ٢٢٣ ، وابن هشام في السيرة ١ / ٣٦٧ وما بعدها **فضائل الصحابة للإمام أحمد (٣٤٤/١). تاريخ دمشق - (٤٤ / ٣٤)**

أم كلثوم بنت علي-رضي الله عنها

أم كلثوم [1] بنت علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، الهاشمية، شقيقة الحسن والحسين.

ولدت في حدود سنة ست من الهجرة، ورأت النبي – ﷺ –، ولم ترو عنه شيئا.

خطبها عمر بن الخطاب وهي صغيرة، فقيل له: ما تريد إليها؟ قال: إني سمعت رسول الله – ﷺ –يقول: " كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي " [2].

موقفها لما قتل الحسين – رضي الله عنها

روي عن بعضهم قال: رأيت أم كلثوم بنت علي بالكوفة، ولم أر خفرة والله أنطق منها، كأنما تنطق وتقرع عن لسان أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقد أومأت إلى الناس وهم يبكون على الحسين – رضي الله عنه – أن اسكتوا فلما سكنت فورتهم، وهدأت الأجراس. قالت: أبدأ بحمد الله والصلاة على أبيه. أما بعد، يا أهل الكوفة يا أهل الختر والخدل؛ ألا فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي " نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم " ألا وهل فيكم إلا الصلف والشنف، ملق

---

[1] – سير أعلام النبلاء – (٣ / ٥٠٠) طبقات ابن سعد ٨ / ٤٦٣، نسب قريش: ٣٤٩، المحبر: ٥٣، ١٠١، ٤٣٧، التاريخ الصغير ١ / ١٠٢، جمهرة أنساب العرب: انظر الفهرس، الاستيعاب: ١٩٥٤، أسد الغابة ٧ / ٣٨٧، تهذيب الاسماء واللغات ١ / ٢ / ٣٦٥، تاريخ الاسلام ٢ / ٢٥٤، الاصابة ٤ / ٤٩٢.

[2] – حديث صحيح، أخرجه الحاكم ٣ / ١٤٢ من طريق السري بن خزيمة، عن معلى ابن راشد، حدثنا وهيب بن خالد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين، أن عمر بن الخطاب...وقال: هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في " المختصر " فقال: منقطع، وأخرجه ابن سعد في " الطبقات " ٨ / ٤٦٣ من طريق أنس بن عياض الليثي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن عمر...، وأورده السيوطي في " الدر المنثور " ٥ / ١٥، وزاد نسبته للبزار، والطبراني، والبيهقي، والضياء المقدسي في " المختارة " وأورده الهيثمي في " المجمع " ٩ / ١٧٣ وقال: رواه الطبراني في " الاوسط " و " الكبير "، ورجالهما رجال الصحيح غير الحسن بن سهل وهو ثقة.

وفي الباب عن المسور بن مخرمة عند أحمد ٤ / ٣٢٢ بلفظ: " إن الانساب يوم القيامة تنقطع، غير نسبي وسبي وصهري " وسنده حسن في الشواهد، وعن ابن عمر عند ابن عساكر.

الإماء وغمر الأعداء وهل أنتم إلا كمرعى على دمنة، وكفضة على ملحودة. ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون.

أتبكون؟ إي والله، فابكوا؛ فإنكم والله أحرياء بالبكاء، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد فزتم بعارها، وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب الجنة، ومنار محجتكم، ومدرة حجتكم، ومفزع نازلتكم؟ فتعساً ونكساً! لقد خاب السعي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة. " لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا " .

ما تدرون أي كبد لرسول الله – ﷺ –فريتم، وأي كريم له أبرزتم، وأي دم له سفكتم. لقد جئتم بها شوهاء خرقاء طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً، "

ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون " فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا تحفزه المبادرة، ولا يخاف عليه فوت الثأر كلا إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد.

ثم ولت عنهم. قال: فرأيت الناس حيارى وقد ردوا أيديهم إلى أفواههم ورأيت شيخاً كبيراً من بني جعفي وقد اخضلت لحيته من دموع عينيه، وهو يقول:

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا نسل ل يبور ولا يخزي

زينب بنت على-رضي الله عنها

ترجمتها : زينب بِنْت علي بن أبي طالب، واسمه عَبْد مناف بن عَبْد المُطَّلِب بن هاشم القُرَشِيَّة الهاشميّة. وأمها فاطِمَة بِنْت رسول الله – ﷺ –.

أدركت النَّبِيّ – ﷺ –، وولدت له في حياته، ولم تلد فاطِمَة بِنْت رسول الله – ﷺ –بعد وفاته شيئًا. وكانت زينب امْرَأَة عاقلة لبيبة جَزْلَةً زوّجها أبوها علي رضي الله عنهما من عَبْد الله بن أخيه جعفر، فولدت له عليًّا، وعونًا الأكبر، وعبّاسًا، ومُحَمَّداً، وأم كُلْثُوم. وكانت مع أخيها الحُسَيْن رضي الله عنه لما قتل، وحُمِلت إلى دمشق، وحضرت عند يزيد بن مُعاوِيَة، وكلامها ليزيد حين طلب الشامي أختها فاطِمَة بِنْت علي من يزيد، مشهور مذكور في التواريخ، وهو يدل على عقل وقوة جَنان.(١)

موقفها من قتلة الحسين – رضي الله عنها:

قال أبو الضحاك عن على بن الحسين ابن على قال إني جالس في تلك العشية التى قتل أبى صبيحتها وعمتي زينب عندي تمرضني إذ اعتزل أبى بأصحابه في خباء له وعنده حوى مولى أبى ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبى يقول:

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والاصيل

من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الامر إلى الجليل وكل حى سالك السبيل

قال فأعادها مرتين أو ثلاثا حتى فهمتها فعرفت ما أراد فخنقتنى عبرتي فرددت دمعى ولزمت السكون فعلمت أن البلاء قد نزل فأما عمتى فإنها سمعت ما سمعت وهى امرأة وفى النساء الرقة والجزع فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وإنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت :واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمي وعلى أبى وحسن

---

١ – أسد الغابة – (١ / ١٣٦٠)

أخى يا خليفة الماضي وثمال الباقي قال فنظر إليها الحسين عليه السلام فقال يا أخية لا يذهبن حلمك الشيطان قالت بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله استقتلت نفسي فداك فرد غصته وترقوقت عيناه وقال لو ترك القطا ليلا لنام قالت يا ويلتى أفتغصب نفسك اغتصابا فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها وشقته وخرت مغشيا عليها فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء وقال لها يا أخية اتقى الله وتعزى بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده أبى خير منى وأمي خير منى وأخي خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة

قال فعزاها بهذا ونحوه

وقال لها يا أخية إنى أقسم عليك فأبرى قسمي لا تشقى على جيبا ولا تخمشى على وجها ولا تدعى على بالويل والثبور إذا أنا هلكت

قال ثم جاء بها حتى أجلسها عندي وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الاطناب بعضها في بعض وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوهم)([1])

* عن حميد بن مسلم قال دعاني عمر بن سعد فسرحني إلى أهله لا بشرهم بفتح الله عليه وبعافيته فأقبلت حتى أتيت أهله فأعلمتهم ذلك ثم أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس وأجد الوفد قد قدموا عليه فأدخلهم وأذن للناس فدخلت فيمن دخل فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله – ﷺ –على هاتين الشفتين يقبلهما ثم انفضخ الشيخ يبكى فقال له ابن زياد أبكى الله عينيك فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك

[1] – تاريخ الرسل والملوك – (٣ / ٢٧٠ تاريخ الطبري – (٣ / ٣١٦))الكامل في التاريخ – (٢ / ١٦٩) تاريخ اليعقوبي – (١ / ٢٠٦)البداية والنهاية – (٨ / ١٩٢)

لضربت عنقك قال فنهض فخرج فلما خرج سمعت الناس يقولون والله لقد قال زيد بن أرقم قولا لو سمعه ابن زياد لقتله قال فقلت ما قال قالوا مر بنا وهو يقول ملك عبد عبدا فاتخذهم تلدا أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم فرضيتم بالذل فبعدا لمن رضى بالذل قال فلما دخل برأس حسين وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها وتنكرت وحف بها إماؤها فلما دخلت جلست فقال عبيد الله ابن زياد من هذه الجالسة فلم تكلمه فقال ذلك ثلاثا كل ذلك لا تكلمه فقال بعض إمائها هذه زينب ابنة فاطمة قال فقال لها عبيد الله الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم فقالت الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد - ﷺ -وطهرنا تطهيرا لا كما تقول أنت إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر قال فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك قالت كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتخاصمون عنده قال فغضب ابن زياد واستشاط

قال فقال له عمرو بن حريث أصلح الله الأمير إنما هي امرأة وهل تؤاخذ المرأة بشئ من منطقها انها لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطل فقال لها ابن زياد قد أشفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك قال فبكت ثم قالت لعمري لقد قتلت كهلى وأبرت أهلى وقطعت فرعى واجتثت أصلى فان يشفك هذا فقد اشتفيت فقال لها عبيد الله هذه الشجاعة قد لعمري كان أبوك شاعرا شجاعا قالت ما للمرأة والشجاعة إن لي عن الشجاعة لشغلا ولكني نفثى ما أقول) (١)

١ - تاريخ الطبري - (٤ / ٣١٨/٣١٩) تاريخ الرسل والملوك - (٣ / ٢٨٨)

فاطمة بنت علي-رضي الله عنها

ترجمتها : فاطمة بنت علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمها أم ولد تزوجها محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب فولدت له حميدة بنت محمد ثم خلف عليها سعيد بن الأسود بن أبي البحتري بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي فولدت له برزة وخالدا ابني سعيد ثم خلف عليها المنذر بن عبيدة بن الزبير بن العوام فولدت له عثمان وكبرة ابني المنذر (١)

عن الحارث بن كعب عن فاطمة بنت على قالت لما أجلسنا بين يدى يزيد ابن معاوية رق لنا وأمر لنا بشئ وألطفنا قالت ثم إن رجلا من أهل الشأم أحمر قام إلى يزيد فقال يا أمير المؤمنين هب لى هذه يعنينى وكنت جارية وضيئة فأرعدت وفرقت وظننت أن ذلك جائز لهم وأخذت بثياب أختى زينب قالت وكانت أختي زينب أكبر منى وأعقل وكانت تعلم أن ذلك لا يكون فقالت كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك وله فغضب يزيد فقال كذبت والله إن ذلك لى ولو شئت أن أفعله لفعلت قالت كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا قالت فغضب يزيد واستطار ثم قال إياى تستقبلين بهذا إنما خرج من الدين أبوك وأخوك فقالت زينب بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك

وجدك قال كذبت يا عدوة الله قالت أنت أمير مسلط تشتم ظالما وتقهر بسلطانك قالت فوالله لكأنه استحيا فسكت ثم عاد الشامي فقال يا أمير المؤمنين هب لى هذه الجارية قال أعزب وهب الله لك حتفا قاضيا قالت ثم قال يزيد بن معاوية يا نعمان بن بشير جهزهم بما يصلحهم وابعث معهم رجلا من أهل الشأم أمينا صالحا وابعث معه خيلا وأعوانا فيسير بهم إلى المدينة ثم أمر بالنسوة أن ينزلن في دار على حدة معهن ما يصلحهن

---

١ – الطبقات الكبرى – (٨ / ٤٦٥)و تاريخ الطبري – (٣ / ٣٣٩) تاريخ الرسل والملوك – (٣ / ٢٩٠) البداية والنهاية – (٨ / ٢١٢)

وأخوهن معهن على بن الحسين في الدار التى هن فيها قال فخرجن حتى دخلن دار يزيد فلم تبق من آل معاوية امرأة الا استقبلتهن تبكى وتنوح على الحسين فأقاموا عليه المناحة ثلاثا وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا على بن الحسين إليه قال فدعاه ذات يوم ودعا عمرو بن الحسن بن على وهو غلام صغير فقال لعمرو بن الحسن أتقاتل هذا الفتى يعنى خالدا ابنه قال لا ولكن أعطني سكينا وأعطه سكينا ثم أقاتله فقال له يزيد وأخذه فضمه إليه ثم قال شنشنة أعرفها من أخزم هل تلد الحية إلا حية قال ولما أرادوا أن يخرجوا دعا يزيد على بن الحسين ثم قال لعن الله ابن مرجانة أما والله لو أنى صاحبه ما سألني خصلة أبدا الا أعطيتها إياه ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ولكن الله قضى ما رأيت كاتبني وأنه كل حاجة تكون لك قال وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول قال فخرج بهم وكان يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم وينزل منهم بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءا أو قضاء حاجة لم يحتشم فلم يزل ينازلهم في الطريق هكذا ويسألهم عن حوائجهم ويلطفهم حتى دخلوا المدينة وقال الحارث ابن كعب فقالت لى فاطمة بنت على قلت لاختى زينب يا أخية لقد أحسن هذا الرجل الشأمى إلينا في صحبتنا فهل لك أن نصله فقالت والله ما معنا شئ نصله به

إلا حلينا قالت لها فنعطيه حلينا قالت فأخذت سوارى ودملجى وأخذت أختى سوارها ودملجها فبعثنا بذلك إليه واعتذرنا إليه وقلنا له هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحسن من الفعل قال فقال لو كان الذى صنعت إنما هو للدنيا كان في حليكن ما يرضينى ودونه ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال هشام) وأما عوانة بن الحكم الكلبى فإنه قال لما قتل الحسين وجئ بالأثقال والاسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عبيد الله فبينا القوم محتبسون إذ وقع حجر في السجن معه كتاب مربوط وفى الكتاب خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية وهو سائر كذا وكذا يوما وراجع في كذا وكذا فان سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل وإن لم تسمعوا

تكبيرا فهو الأمان إن شاء الله قال فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة إذا حجر قد ألقى في السجن ومعه كتاب مربوط وموسى وفى الكتاب أوصوا واعهدوا فإنما ينتظر البريد يوم كذا وكذا فجاء البريد ولا يسمع الكتبير وجاء كتاب بأن سرح الاسارى إلى أن قال فدعا عبيد الله بن زياد محفز بن ثعلبة وشمر بن ذى الجوشن فقال انطلقوا بالثقل والرأس إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قال فخرجوا حتى قدموا على يزيد فقام محفز بن ثعلبة فنادى بأعلى صوته جئنا برأس أحمق الناس وألامهم فقال يزيد ما ولدت أم محفز ألام وأحمق ولكنه قاطع ظالم قال فلما نظر يزيد إلى رأس الحسين قال

يفلقن هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم قال أتدرون من أين أتى هذا قال أبى على خير من أبيه وأمي فاطمة خير من أمه وجدي رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر منه فأما قوله أبوه خير من أبى فقد حاج أبى أباه وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمي خير من أمه فلعمري فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من أمي وأما قوله جدي خير جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ولكنه إنما أنى من قبل فقهه ولم يقرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] ثم أدخل نساء الحسين على يزيد فصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن ثم إنهن أدخلن على يزيد فقالت فاطمة بنت الحسين وكانت أكبر من سكينة أبنات رسول الله سبايا يا يزيد فقال يزيد يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكره قالت والله ما ترك لنا خرص قال يا ابنة أخي ما آتى إليك أعظم مما أخذ منك ثم أخرجن فأدخلن دار يزيد بن معاوية فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم وأرسل يزيد إلى كل امرأة ماذا أخذ لك وليس منهن امرأة تدعى شيئا بالغا ما بلغ إلا قد أضعفه لها فكانت سكينة تقول ما رأيت رجلا كافرا بالله خيرا من يزيد بن معاوية ثم أدخل الاسارى إليه وفيهم على بن الحسين فقال له يزيد إيه يا على فقال على {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن

نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور } فقال يزيد ما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ثم جهزه وأعطاه مالا وسرحه إلى المدينة(١)

١ – تاريخ الطبري – (٤ / ٣٥٣)

أم الدرداءرضي الله عنها

ترجمتها: أم الدرداء السيدة العالمة الفقيهة، هجيمة، وقيل: جهيمة الاوصابية الحميرية الدمشقية، وهي أم الدرداء الصغرى.

روت علما جما عن زوجها أبي الدرداء، وعن سلمان الفارسي، وكعب ابن عاصم الاشعري، وعائشة، وأبي هريرة، وطائفة.

وعرضت القرآن وهي صغيرة على أبي الدرداء.

وطال عمرها، واشتهرت بالعلم والعمل والزهد.(١)

وقال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عثمان بن حيان مولى أم الدرداء: سمعت أم الدرداء تقول: ما بال أحدكم يقول اللهم ارزقني وقد علم أن الله لا يمطر عليه من السماء دينارا ولا درهما، وإنما يرزق بعضهم من بعض، فمن أعطي شيئا فليقبله فإن كان عنه غنيا فليضعه في ذي الحاجة من إخوانه، وإن كان فقيرا فليستعن به على حاجته، ولا يرد على الله رزقه الذي رزقه.(٢)

موقفها من عبد الملك بن مروان كان عبد الملك بن مروان جالسا في صخرة بيت المقدس، وأم الدرداء معه جالسة، حتى إذا نودي للمغرب قام وقامت تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد، فتجلس مع النساء، ويمضي عبد الملك إلى المقام يصلي بالناس.)(٣)

على زيد بن أسلم أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء فكانت عنده فلما كانت ذات ليلة قام عبد الملك من الليل فدعا خادمه وكأنه أبطأ عنه فلعنه فلما أصبح قالت له أم

---

١ – سير أعلام النبلاء –(٤ / ٢٧٧) المعرفة والتاريخ ٢ / ٣٢٧، الجرح والتعديل القسم الثاني من المجلد الرابع ٤٦٣، اللباب ١ / ٧٦، تهذيب الكمال ص ١٧٠٩ تذكرة الحفاظ ١ / ٥٠، تاريخ الاسلام ٣ / ٣١٦، البعر ١ / ٩٣، تذهيب التهذيب ٤ / ٢٧٧ آ، البداية والنهاية ٩ / ٤٧، غاية النهاية ت ٣٧٨٣، تهذيب التهذيب١٢ / ٤٦٥، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ١٧، خلاصة تذهيب التهذيب ٤٩٨

٢ – تهذيب الكمال – (٣٥ / ٣٥٦)

٣ – سير أعلام النبلاء –(٤ / ٢٧٩)

الدرداء قد سمعتك الليلة لعنت خادما قال إنه قد أبطأ عني قالت سمعت أبا الدرداء يقول قال رسول الله -ﷺ- لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة رواه مسلم)[1]

هند بنت عتبة-رضي الله عنها-

ترجمتها: هِنْد بِنْت عتبة بن ربيعة بن عَبْد شمس بن عَبْد مناف القُرَشِيَّة الهاشمية، امْرَأَة أبي سُفْيان بن حرب، وهي أم مُعاوِيَة.

أسلمت في الفتح بعد إسلام زوجها أبي سُفْيان، وأقرها رسول الله -ﷺ- على نكاحها، كان بينهما في الإسلام ليلة واحدة، وكانت امْرَأَة لها نفسٌ وأَنَفَة، ورأي وعقل.

وشهدت أُحد كافرة، وهي القائلة يومئذٍ:

نحن بناتُ طارقْ نَمشي على النَّمارِقْ

أنْ تُقبِلوا نُعانِقْ أو تُدْبِروا نُفارِقْ

فِراقَ غيرَ وأمقْ فلما قُتل حمزة مثّلت به وشقت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها، فلم تطق إساغتها، فبلغ ذلك النَّبِيّ -ﷺ- فقال: " لو أساغتها لم تمسها النار " . وقيل: إن الذي مثّل بحمزة مُعاوِيَة بن المغيرة بن أبي العاص بن أميَّة، جد عَبْد الملك بن مروان لامه، وقتله النَّبِيّ -ﷺ- صبراً مُنْصَرَفه من أُحد.

ثم إن هِنْداً أسلمت يوم الفتح وحسُن إسلامها، فلما بايعن رسول الله -ﷺ- النساء وفي البيعة: " ولا يسرِقْنَ ولا يزنيْنَ " ، قالت هِنْد: وهل تزني الحرة وتسرق؟

فلما قال: " ولا يقتُلْنَ أولادَهُنّ "

، قالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً؟

وشكت إلى رسول الله -ﷺ- زوجها أبا سُفْيان وقالت: إنه شحيح لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وولدها، فقال لها رسول الله -ﷺ-: " خُذي من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدك " .

موقفها يوم الفتح

---

[1] – تاريخ دمشق –(٤٧ / ٩٤)

عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة مولى الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها وأتين رسول الله وهو بالأبطح فبايعنه، فتكلمت هند فقالت: يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه لتنفعني رحمك، يا محمد إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله. ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة. فقال رسول الله: مرحبا بك. فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يذلوا من خبائك ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يعزوا من خبائك. فقال رسول الله: وزيادة. وقرأ عليهن القرآن وبايعهن فقالت هند من بينهن: يا رسول الله نماسحك؟ فقال: إني لا أصافح النساء، إنقولي لمائة امرأة مثل قولي لامرأة واحدة. قال محمد بن عمر: لما أسلمت هند جعلت تضرب صنما في بيتها بالقدوم حتى فلذته فلذة فلذة وهي تقول: كنا منك في غرور.

أخبرنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: جاءت هند إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني إلا ما أخذت من ماله وهو لا يعلم. فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف.

سمعت الشعبي يذكر أن النساء جئن يبايعن فقال: النبي، ـ ﷺ ـ: تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئا. فقالت هند: إنا لقائلوها. قال: فلا تسرقن. فقالت هند: كنت أصيب من مال أبي سفيان. قال أبو سفيان: فما أصبت من مالي فهو حلال لك. قال: ولا تزنين. فقالت هند: وهل تزني الحرة؟ قال: ولا تقتلن أولادكن. قالت هند: أنت قتلتهم.)[1]

فراستها في معاوية-رضي الله عنهما-

عن العتبي عن أبيه قال : كانت هند امرأة عاقلة جزلة فلما ولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من الشام خرج إليه معاوية فقال أبو سفيان لهند كيف ترين صار ابنك تابعا لابني فقالت إن اضطرب حبل العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني فمات

[1] – الطبقات الكبرى لابن سعد – (٨ / ٢٣٦) تاريخ دمشق – (٧٠ / ١٧٩) تاريخ الرسل والملوك – (٢ / ٥٥)

يزيد بالشام فولى عمر معاوية موضعه فقالت هند لمعاوية والله يا بني إنه لقل ما ولدت حرة مثلك وقد استنهضك هذا الرجل فاعمل بموافقته أحببت ذلك أم كرهت وقال له أبو سفيان يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا فصاروا قادة وصرنا أتباعا وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم فإنك تجري إلى أمد فنافس (١)

عاتكة بنت زيد-رضي الله عنها

ترجمتها: عاتكة بنت زيد، أخت سعيد بن عمرو بن نفيل؛ كانت عند عبد الله ابن أبي بكر، فأعجب بها واشتدت محبته لها فشغلته حتى عن صلاة الجمعة، فقال له أبوه: طلقها فإنها قد فتنتك، فقال عبد الله في ذلك:

يقولون طلقها وأصبح مكانها مقيمـًا تمنني النفس أحلام نائم

وإن فراقي أهل بيت أحبهم وما لهم ذنب لإحدى العظائم

فلم يزل أبوه حتى طلقها، فلم يصبر عنها واتبعا نفسه، فهجم عليه أبوه يومـًا فسمعه يقول:

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير ذنب تطلق

لها خلق جزل ورأي ومنصب وحلم وعقل في الأمور ومصدق

فرق له فراجعها، ولم تزل عنده حتى أصابه سهم في الطائف فمات، فرثته بقولها:

وآليت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فلله عينا من رأى مثله فتى أعف وأكفى في الأمور وأصبرا

إذا أشرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك أحمرا

ثم تزوجها عمر بن الخطاب وأولم عليها، ودعا الصحابة، فلما اجتمعوا قال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي أن أميل رأسي إلى خدر عاتكة وأكلمها؟ قال: نعم، فأمال علي رأسه وقال لها: يا عدية نفسها:

فآليت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

---

١ – تاريخ دمشق – (٧٠ / ١٨٦)

فبكت " ، فقال عمر: يا أبا الحسن ما دعاك إلى كل هذا؟ كل النساء يفعلن ذلك؛ ثم إن عر قتل عنها، فرثته أيضـًا بشعر منه:

وفجعني فيروز لا در دره بتالي الكتاب في الظلام منيب

ثم تزوجها بعد ذلك الزبير، فقتل عنها، فرثته بقولها:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير معرد

يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشـًا رعش الجنان ولا اليد

كم غمرة قد خاضها لم يثنه عنها طرادك يا ابن فقع الغرقد

ثكلتك أمك إن ظفرت بمثله فيما مضى ممن يروح ويغتدي

والله ربك إن قتلت لمسلمـًا حلت عليك عقوبة المتعمد

موقفها من صلاة الجماعة في المسجد

فلما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام فتزوجها فلما ملكها قال: يا عاتكة لا تخرجي إلى المسجد وكانت امرأة عجزاء بادنة.. فقالت: يابن العوام أتريد أن أدع لغيرتك مصلى صليت مع رسول الله -ﷺ- وأبي بكر وعمر فيه قال: فإني لا أمنعك فلما سمع النداء لصلاة الصبح توضأ وخرج فقام لها في سقيفة بني ساعدة فلما مرت به ضرب بيده على عجيزتها فقالت: مالك قطع الله يدك! ورجعت فلما رجع من المسجد قال: يا عاتكة ما لي لم أرك في مصلاك قالت: يرحمك الله أبا عبد الله فسد الناس بعدك الصلاة اليوم في القيطون أفضل منها في البيت وفي البيت أفضل منها في الحجرة. فلما قتل عنها الزبير بوادي السباع رثته فقالت:

يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشـًا رعش اللسان ولا اليد

هبلتك أمك إن قتلت لمسلمـًا حلت عليك عقوبة المتعمد((١)

---

١ – الوافي بالوفيات – (٥ / ٣١٥)

****

أم معبد الخزاعية-رضي الله عنها

ترجمتها : أم معبد: عاتكة بنت خالد بن خليد [١]الخزاعية، وكانت برزة [٢]، جلدة [٣]، تحتبي بفناء القبة [٤]، ثم تسقي وتطعم من يمر بها، وكان القوم مرملين [٥]مسنتين [٦]، فسألوها: هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى [٧].

فنظر رسول الله -ﷺ- إلى شاة في كسر الخيمة [٨]خلّفها الجهد [٩] عن الغنم، فسألها رسول الله ﷺ: «هل بها من لبن» ؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها [١٠]؟ فقالت: نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت حلبا [١١](فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها [١٢]، ومسح ضرعها- وفي رواية وظهرها- وسمّى الله- وفي رواية: ودعا لها في شائها- فتفاجّت [١٣]، ودرّت، ودعا بإناء يربض [١٤]الرهط، فحلب فيه ثجا [١]، وسقى

---

١ – على صيغة المصغر كما صرّح به ابن الأثير في الجامع، وقيل: ابن خنيف مصغرا، وقيل ابن منقذ، وهي صحابية خرّج لها ابن السكن.

٢ – كضخمة عفيفة مسنة فلم تتخدر لسنها، وخرجت من حد المحجوبات.

٣ – قوية.

٤ – الفناء: المكان الواسع أمام البيت أو القبة وهي الخيمة.

٥ – نفدت أزوادهم.

٦ – أصابتهم سنة أي جدب

٧ – القرى: إكرام الضيف أي ما منعناه عنكم.

٨ – بكسر الكاف وفتحها: جانب الخيمة.

٩ – بضم الجيم وفتحها: المشقة والهزال.

١٠ – بضم اللام وكسرها.

١١ – أي لبنا في الضرع.

١٢ – وضع رجلها بين ساقه وفخذه.

١٣ – فتحت ما بين رجليها كما هو شأن الغنم إذا حلبت.

١٤ – أي يشبع الجماعة ويرويهم حتى يربضوا: أي يناموا ويمتدوا على الأرض

القوم حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم شرب اخرهم وقال: «ساقي القوم اخرهم شربا» ثم حلب فيه مرة أخرى فشربوا عللا بعد نهل [٢]، ثم حلب فيه اخرا، وغادره عندها. وفي رواية أنه قال لها أن «ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك» – ثم ركبوا، وذهبوا.

فقلما لبث أن جاء أبو معبد [٣]زوجها يسوق أعنزا عجافا [٤]، يتساوكن هزل [٥]لا نقي بهن [٦]، فلما رأى اللبن أبو معبد عجب، وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنّى لك هذا؟! والشاء عازب، حيال [٧]ولا حلوب [٨]بالبيت، فقالت: لا- والله- إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك فمن حاله كذا، وكذا [٩]، فقال: صفيه يا أم معبد، فقالت:رأيت رجلا ظاهر الوضاءة [١٠]((٢٦) ، مبلج الوجه [١١]، حسن الخلق [١٢]، لم تعبه ثجلة [١٣]، ولم تزر به صعلة [١٤]وسيم قسيم، في عينيه دعج [١٥](، وفي أشفاره وطف [١٦](، وفي صوته صحل [١](،

---

[١] – أي حلبا كثيرا.

[٢] – النهل: الشربة الأولى، والعلل: الشربة الثانية.

[٣] – قال السهيلي: لا يعرف اسمه، وله رواية عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وتوفي في حياته، وقال العسكري: اسمه أكثم بن أبي الجون، وقال الذهبي: قيل اسمه حبيش بضم الحاء، وفتح المواحدة، وسكون الياء، اخره شين معجمة على الأصح، وقيل بمعجمة مضمومة ونون مفتوحة، وقيل: أكثم قديم الوفاة.

[٤] – جمع عجفاء أي هزالا.

[٥] – يتمايلن في مشيتهن من الهزال.

[٦] – النقي: مخ العظام أي مخهن قليل.

[٧] – العازب: بعيدة المرعى، الحيال: بكسر الحاء المهملة جمع حائل وهي التي ليس بها حمل.

[٨] – ذات لبن.

[٩] – كناية عن القصة التي حدثت بها.

[١٠] – الحسن والبهجة.

[١١]– مشرقه.

[١٢] – بفتح الخاء وسكون اللام، أو بضم الخاء واللام، وعرفت ذلك من تواضعه وحسن معاملته لرفقته.

[١٣] – بفتح الثاء وسكون الجيم عظم البطن.

[١٤] – صغر الرأس.

[١٥] – شدة سواد العينين.

[١٦] – أشفاره: رموش عينيه، وطف: طول وغزارة.

، أحور) [٢](، أكحل) [٣](، أزج [٤]، أقرن [٥]، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح [٦]، وفي لحيته كثاثة [٧]، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن [٨]، حلو المنطق، فصل [٩]، لا نزر [١٠]، ولا هذر [١١]، أجهر الناس [١٢]()، وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب [١٣]، ربعة لا تشنؤه [١٤](من طول، ولا تقتحمه [١٥] عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفّون به [١٦]، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره[١٧]محفود محشود[١٨] ، لا عابس، ولا مفنّد[١٩] (.فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتّبعته، ولأجهدنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلا [٢٠].

---

[١] – بفتح الصاد والحاء بحة خفيفة فليس في صوته غلظ.

[٢] – الحور بفتح الحاء والواو: شدة بياض العينين، وشدة سواد سوادهما.

[٣] – الكحل بفتح الكاف والحاء: سواد في أجفان العينين خلقة، والرجل أكحل وكحيل، والمرأة كحلاء.

[٤] – دقيق الحاجبين في طول.

[٥] – مقرون الحاجبين.

[٦] – ارتفاع وطول.

[٧] – غزارة من غير دقة.

[٨] – أي كلام متناسق، ومتصل بعضه ببعض، فأشبه في تناسقه الدرر، وفي تواليه الخرزات إذا تتابعت

[٩] – بسكون الصاد: أي كلام بيّن يفصل الحق من الباطل، أو تفسيره ما بعده.

[١٠] – قليل الكلام.

[١١] – كثير الكلام فهو وسط بين هذا وذاك، والفضيلة وسط بين رذيلتين

[١٢] – أرفعهم صوتا من غير إفراط مع الوضوح.

[١٣] – أفرد الضمير حملا على لفظ الناس أو لإرادة الجنس.

[١٤] – لا يبغض لفرط طوله.

[١٥] – لا تتجاوزه إلى غيره ازدراء له وإعراضا.

[١٦] – يحيطون به.

[١٧] – تسابقوا إلى امتثاله.

[١٨] – محفود: مخدوم، ومن ذلك ما ورد في دعاء القنوت: «وإليك نسعى ونحفد» ، محشود: عنده حشد وهم الجماعة.

[١٩] – عابس: مقطب الوجه، والمفنّد بكسر النون مع التشديد اسم فاعل الذي يكثر من اللوم.

[٢٠] – شرح المواهب ج ١ ص ٤١٠– ٤١٦؛ البداية والنهاية ج ٣ ص ١٩٢– ١٩٣.

الذي ذكر لنا أمره ما ذكر بمكة ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فأصبح صوت بمكة عليـًا يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقي قالا خيمتي أم معبد

هما نزلاهما بالهدى واهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فعال لاتجارى وسؤدد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلبت عليه صريحا ضرة الشاة مزبد

فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها في مصدر ثم مورد

فلما أن سمع حسان بن ثابت بذلك شبب يجيب الهاتف وهو يقول:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقدس من يسري إليهم ويغتدي

ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدهم من يتبع الحق يرشد

وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا عمايتهم هاد به كل مهتد

وقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد

وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد يسعد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد(١)

١ – الوافي بالوفيات – (٥ / ٣١٢)

الحولاء بنت تويت-رضي الله عنها

ترجمتها: الحولاء بنت تويت ابن حبيب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية، هاجرت إلى رسول الله -ﷺ- وكانت من المجتهدات في العبادة)[1]

أخبرنا أبو بكر البرقاني قال: قرأت على أبي العباس بن حمدان، حدثكم أبو الفضل أحمد بن سلمة بن عبد الله، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام بن عروة، أخبرني أبي عن عائشة: أن النبي -ﷺ- دخل عليها فرأى عندها امرأة، فقال: " من هذه؟ " فقالت: هذه فلانة. من حالها: لا تنام! فقال: " مه! عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه أدومه " .

هذه المرأة: الحولاء بنت تويت بن حبيب بن عبد العزي.

الحجة في ذلك: عن عروة عن عائشة: أن الحولاء بنت تويت مرت بها وعندها رسول الله -ﷺ- فقالت: هذه الحولاء، ويزعمون أنها لا تنام الليل! فقال رسول الله -ﷺ-: " خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله تعالى لا يسأم حتى تسأموا " .

[1] – الإستيعاب في معرفة الأصحاب – (٢ / ٨٦) الإصابة في معرفة الصحابة – (٣ / ٤٦٩) الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة – (١ / ١٥ الطبقات الكبرى لابن سعد – (٨ / ٢٤٤) المحبر – (١ / ٤٠٨) أسد الغابة – (٣ / ٣٣٥) بغية الطلب في تاريخ حلب – (٢ / ١٨٥)

أم عوف زوجة ابي الاسود الدؤلي

عن أبي جعدبة قال كان أبو الأسود الدؤلي من أبر الناس عند معاوية وأقربهم منه مجلسا فبينا هو ذات يوم عنده وعنده الأشراف ووجوه الناس إذ أقبلت امرأة أبي الأسود حتى حادت بمعاوية فقالت : سلام عليك يا أمير المؤمنين إن الله قد جعلك خليفة في البلاد ورقيبا على العباد فأكف بك الأهواء وأنس بك الخائف ووزع بك الخائف فاسئلك النعمة في غير تغيير والعافية في غير تعذير فقد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق علي فيه المنهج وتفاقم علي فيه المخرج كرهت بوائقه وأثقلتني عواتقه وقدحتني علائقه فلينصفني أمير المؤمنين من خصمي فإني أعوذ بعقوبة من العار الوبيل والشين الجليل الذي يبهر ذوات العقول قال لها معاوية من بعلك هذا الذي تصفين منه

قالت هو أبو الأسود فالتفت إليه فقال يا أبا الأسود ما تقول هذه المرأة فقال يا أمير المؤمنين إنها لتقول من الحق بعضا أما ما تذكر من طلاقها فهو حق وأنا مخبر أمير المؤمنين عنه بصدق والله يا أمير المؤمنين ما طلقتها عن ريبة ظهرت ولا في هفوة حضرت ولكني كرهت شمائلها فقطعت عني حبائلها فقال معاوية وأي شمائلها كرهت فقال يا أمير المؤمنين إنك مهيجها علي بجواب عتيد ولسان شديد فقال لا بد لك من مجاورتها فاردد عليها قولها عند مراجعتها فقال يا أمير المؤمنين إنها لكثيرة الصخب دائمة الدرب مهينة الأهل مؤدبة البعل مسينة إلى الحاز إن رأت خيرا كتمته وإن رأت شرا أذاعته

فقالت: والله لولا أمير المؤمنين وحضور من حضره من المسلمين لرددت عليك بوادر كلامك بنواقد أفرغ بها كل سهامك وإن كان لا يحمل

بالحرة أن تشتم بعلا ولا تظهر جهلا فقال لها معاوية عزمت عليك إلا أجبتيه فقالت يا أمير المؤمنين هو ما علمته سؤول جهول ملح بخيل إن قال فشر قائل وإن سكت فذو دغائل ليث حيث تأمن ثعلب حين يخاف شحيح حين يضاف إن ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصور شأنه ضيفه جائع وجاره ضائع لا يحفظ جارا ولا يحمي ذمارا ولا يدرك ثارا أكرم الناس عليه من أهانه وأهونهم عليه من أكرمه فقال معاوية سبحان الله ولما تأتي به هذه المرأة يا أبا الأسود فقال أبو الأسود أصلح الله الأمير إنها مطلقة ومن أكثر كلاما من مطلقة

فقال لها معاوية إذا كان الرواح فاحضري حتى أفصل بينك وبينه فلما كان الرواح جاءت وقد احتضنت ابنها فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها فقال له معاوية مه يا أبا الأسود ولا تعجل على المرأة أن تنطق بحجتها فقال يا أمير المؤمنين أنا أحق بابني منها حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه وأنا الأب وإلي ينسب

فقالت صدق حمله خفا وحملته ثقلا ووضعه شهوة ووضعته كرها لم أحمله في غبر ولم أرضعه غيلا فبطني له وعاء وحجري له وقاء

فقال أبو الأسود عند ذلك شعر :

مرحبا بالتي تجور علينا ثم سهلا بالحامل المحمول

أغلقت بابها علي وقالت إن خير النساء لذات البعول

شغلت نفسها علي فراغا هل سمعتم بالفارغ المشغول

* فقالت مجيبة له:

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن حاد عن منار السبيل

كأن ثديي سقاة حين يضحي ثم حجري وقاءه بالأصيل

لست أبغي بواحدي يا ابن حرب بدلا ما علمته والخليل

فقال معاوية مجيبا لهما:

ليس من قد غذاه حينا صغيرا ثم سقاه ثديه بجدول

هي أولى به وأقرب رحما من أبيه وفي قضاء الرسول

أمه ما حنت عليه وقامت هي أولى يحمل هذا الفصيل

فلعنت أبا الأسود وحملت ابنها ومضت(١)

زرقاء بنت عدي بن مرة الهمدانية

ترجمتها: زرقاء بنت عدي بن مرة الهمدانية الكوفية امرأة فصيحة استقدمها معاوية بن أبي سفيان فقدمت عليه وكانت له معها محاورة

عن سعيد بن حذافة الجمحي قال سمر معاوية بن أبي سفيان ذات ليلة فذكر كلاما للزرقاء بنت عدي بن مرة من أهل الكوفة وكانت ممن يعين عليا يوم صفين فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء بنت عدي قال القوم يا أمير المؤمنين كلنا نحفظه قال فما تشيرون علي فيها قالوا نشير بقتلها

قال بئس الذي أشرتم به أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعد أن ملكت وصار الأمر إلي ثم دعا كاتبه في الليل فكتب إلى واليه بالكوفة أن أوفد علي الزرقاء بنت عدي مع ثقة من محرمها وعدة من فرسان قومها ومهد لها وطاء لينا واسترها بستر خصيف فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إياه

فقالت أما أنا فغير زائفة عن طاعة وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلي لم أرم من بلدي هذا وإن كان حتم الأمير فالطاعة له هو أولى بي فحملها في عمارية وجعل غشاها خزاء أدكن مبطنا بقوهي (٢) ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية

قال: لها مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة وكيف كان مسيرك

قالت: خير مسير كأني كنت ربيبة بيت أو طفلا ممهدا له

قال: بذاك أمرتهم هل تعلمين لم بعثت إليك

قالت: سبحان الله وإنى لي بعلم ما لم أعلم وهل يعلم ما في القلوب إلا الذي خلقها

---

١ – تاريخ دمشق – (٢٥ / ٢٠٢).

٢ – القوهي: ضرب من الثياب بيض

قال: بعثت إليك لأسألك هل أنت الراكبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفين توقدين الحرب وتحضين على القتال فما حملك على ذلك

قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر

فقال: لها صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين

قالت: والله ما أحفظه

قال: لكني أحفظه لله أبوك لقد سمعتك تقولين :أيها الناس قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وحادت بكم عن قصد المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء لا يسمع لقائلها ولا ينقاد لسائقها أيها الناس إن المصباح لا يضئ في الشمس ولا الكوكب يبصر في القمر وإن البغل لا يسبق الفرس ألا من استرشدنا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار فكأن قد اندمل شعب الشتات و التأمت كلمة العدل وغلب الحق باطله فلا يعجلن أحد فيقول كيف العدل و أنى ليقضي الله أمرا كان مفعولا ألا إن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير في الأمور عواقب إيها إلى الحرب قدما غير ناكصين وهذا يوم له ما بعده

ثم قال معاوية: يا زرقاء لقد شركت عليا في كل ما فعل

قالت له الزرقاء: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك فمثلك بشر بخير وسر جليسه

فقال لها: وقد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرني قولك فإنى لي بتصديق الفعل

فقال لها معاوية: لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلي من حبكم له في حياته اذكري حاجتك

قالت: يا أمير المؤمنين إني امرأة آليت ألا أسأل أمرا أعنت عليه شيئا فمثلك أعطى عن غير مسألة وجاد عن غير طلب

قال: صدقت فأقطعها ضيعة أغلتها في أول سنة ستة عشر ألف درهم وأحسن صفدها)(١)

---

١ – تاريخ دمشق – (٦٩ / ١٦٥) المحاروة في العقد الفريد ٢ / ١٠٦ وصبح الاعشى ١ / ٢٥٣ وفتوح ابن الاعثم ٣ / ٨٧

زينب بنت حدير

عن الشعبي قال قال لنا شريح يا شعبي عليكم بنساء بني تميم فإنهن النساء قلنا وكيف ذاك يا أبا أمية فقال رجعت يوما من جنازة متطهرا فمررت بخباء فإذا بعجوز معها جارية رؤود فاستسقيت فقالت اللبن أعجب إليك أم ماء أم نبيذ قال قلت اللبن أعجب إلي قالت يا بنية اسقيه لبنا فإني أظنه غريبا فسقتني فلما شربت قلت من هذه الجارية قالت هذه ابنتي زينب بنت حدير إحدى نساء بني تميم ثم من بني حنظلة ثم من بني طهية قلت أتزوجنيها قالت نعم إن كنت كفأ فانصرفت إلى منزلي فامتنعت من القائلة فلما صليت الظهر وجهت إلى إخواني الثقات مسروق بن الأجدع والأسود بن يزيد فصليت العصر ثم رحلت إلى عمها وهو في مسجده فلما رآني تنحى لي عن مجلسه فقلت أنت أحق بمجلسك ونحن طالبوا حاجة فقال مرحبا بك يا أبا أمية ما حاجتك فقلت إني ذكرت زينب بنت أخيك فقال والله ما بها عنك رغبة ولا تك عنها مقصر قال وتكلمت فزوجني ثم انصرفت فما فما وصلت إلى منزلي حتى ندمت فقلت ماذا صنعت بنفسي فهممت أن أرسل إليها بطلاقها ثم قلت لا أجمع حمقتين ولكني أضمها إلي فإن رأيت ما أحب حمدت الله وإن تكن الأخرى طلقتها فأرسلت إليها بصداقها وكرامتها فلما أهديت إلي وقام النساء عنها قلت يا هذه إن من السنة إذا أهديت المرأة إلى زوجها أن تصلي ركعتين خلفه ويسألا الله البركة فقمت أصلي فإذا هي خلفي فلما فرغت رجعت إلى مكانها ومددت يدي فقالت على رسلك فقلت إحداهن ورب الكعبة فقالت الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله أما بعد فإني امرأة غريبة ولا والله ما ركبت مركبا هو أصعب علي من هذا وأنت رجل لا أعرف أخلاقك فخبرني بما تحب أنت وبما تكره أزدجر عنه أقول قولي هذا وأستغفر الله

لي ولك قال فقلت الحمد لله وصلى الله على محمد وآله أما بعد فقد قدمت على أهل دار زوجك سيد رحالهم وأنت إن شاء الله سيدة نسائهم أحب هذا وأكره كذا قالت فحدثني عن أختانك أتحب أن يزوروك قال قلت إني رجل قاض وأكره أن يملوني وأكره أن ينقطعوا عني قال فأقمت معها سنة أنا كل يوم أشتد سرورا مني باليوم الذي مضى فرجعت يوما من مجلس القضاء فإذا عجوز تأمر وتنهي في منزلي فقلت من هذه يا زينب قالت هذه ختنتك هذه أمي قلت كيف حالك يا هذه قالت كيف حالك يا أبا أمية وكيف رأيت أهلك؟

قال: قلت: كل الخير.

قالت: إن المرأة لا تكون أسوأ خلقا منها في حالتين إذا ولدت غلاما وإذا حظيت عند زوجها فإن رابك من أهلك ريب فالسوط.

قلت: أشهد أنها ابنتك قد كفتني الرياضة وأحسنت الأدب فكانت تجيئني في كل حول مرة فتوصي بهذه الوصية ثم تنصرف فأقمت معها عشرين سنة ما غضبت عليها يوما ولا ليلة إلا يوما وكنت لها ظالما وذلك أني ركعت ركعتي الفجر وأبصرت عقربا فعجلت عن قتلها فكفأت عليها الإناء وبادرت إلى الصلاة وقلت يا زينب إياك والإناء فعجلت إليه فحركته فضربتها العقرب ولو رأيتني يا شعبي وأنا أمص إصبعها وأقرأ عليها المعوذتين وكان لي جار يقال له قيس بن جرير لا يزال يقرع مريته فعند ذلك أقول:

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يميني حين أضرب زينبا

وأنا الذي أقول

وإذا زينب زارها أهلها حشدت وأكرمت زوارها

وإن هي زارتهم زرتها وإن لم يكن لي هوى دارها

يا شعبي فعليك بنساء بني تميم فإنهن النساء قال القاضي قد روينا خبر شريح في نكاحه زينب من غير طريق عثرنا على هذا منها فأثبتناه وهو كاف من غيره وفي بعض ما رويناه بيت يلي قوله وهو

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يميني يوم أضرب زينبا

وزينب شمس النساء كواكب إذا طلعت لم يبق منهن كوكبا

قال القاضي وقد أغار شريح في هذا البيت على قول النابغة في مدح النعمان بن المنذر

وهو ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب (١)

أم نهار العدوية

عن عتبة بن صالح الهلالي قال: شهدت أعرابية بالجفر، جفر بني عدي، يقال لها أم نهار العدوية واقفة على قبر رجل ونحن ندفنه. فقالت: أيها الناس إنكم من الله عز وجل في نعمة ستر، ومن الناس بمحل تزكية، فإياكم ومصاداة زخاريف الرخاء فإنها ليست من صفة الألباء فأجلوا شماذير الغفلة عن قلوبكم، وتأملوا أهل هذه العرصات الخرس والربوع الصموت وارجعوها صوراً بوهمكم: تتنسمون روح الحياة فنادوهم يسمعوا واسألوهم يخبروا. فاحيوا بموتهم وتيقظوا لغفلاتهم وخذوا خوفكم من أمنهم، وحذركم من غرورهم، وانظروا بهم إلى أثر البلى في أجسامكم، والخراب في مساكنكم، وكيف حكم فيهم التراب إذ ولي الحكم فيهم، فأبدلهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً.

رحم الله امرءاً أبصر فتدبر، واتعظ فاعتبر، وعمل ليوم الحساب وخشي وقت العقاب. ثم قالت:

الموت يفني ولا يبقي على أحد ما أحسب الموت يبقي جدة الأبد

يا موت كم من كريم قد فجعت به من أقربيه ومن أهل ومن ولد

ثم قالت: تغمدكم الله بالرحمة وبلغ بكم شرف الهمة. (٢)

---

١ – تاريخ دمشق – (٢٣ / ٥١)

٢ – صفة الصفوة – المعرفة (٤/ ٣٨٩)

السيدة نفيسة بنت الأميرحسن بن زيد

نفيسة [1] السيدة المكرمة الصالحة، ابنة أمير المؤمنين الحسن بن زيد بن السيد سبط النبي ـ ﷺ ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما، العلوية الحسنية، صاحبة المشهد الكبير المعمول بين مصر والقاهرة.

ولي أبوها المدينة للمنصور، ثم عزله، وسجنه مدة، فلما ولي المهدي أطلقه، وأكرمه، ورد عليه أمواله، وحج معه، فتوفي بالحاجر (١).

وتحولت هي من المدينة إلى مصر مع زوجها الشريف إسحاق بن جعفر بن محمد الصادق فيما قيل، ثم توفيت بمصر في شهر رمضان سنة ثمان ومئتين.

ولم يبلغنا كبير شئ من أخبارها.

ولجهلة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف، ولا يجوز مما فيه من الشرك، ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرة، وكان ذلك من دسائس دعاة العبيدية [2].

موقفها من ظلم ابن طولون

---

[1] – سير أعلام النبلاء – (١٠ / ١٠٦) وفيات الاعيان ٥ / ٤٢٣، العبر ١ / ٣٥٥، عيون التواريخ ٧ / لوحة ٢٢٦، مرآة الجنان ٢ / ٤٣، البداية والنهاية ١٠ / ٢٦٢، النجوم الزاهرة ٢ / ١٨٥، حسن المحاضرة ١ / ٥١١، طبقات الشعراني ١ / ٥٨، شذرات الذهب ٢ / ٢١، خطط مبارك ٥ / ١٣

[2] – قال ابن كثير في " البداية " ١٠ / ٢٦٢ : وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيرا جدا، ولا سيما عوام مصر، فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك، وألفاظا ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز، وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته، والذي ينبغي أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات، وأصل عبادة الاصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية = القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام، ومن زعم أنها تفك من الخشب، أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك، رحمها الله وأكرمها.

ولما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاثه الناس من ظلمه، توجهوا إلى السيدة نفيسة، فشكوه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟

فقالوا: في غد فكتبت رقعة ووقفت في طريقه، وقالت: يا أحمد بن طولون فلما رآها عرفها وترجل عن فرسه وأخذ الرقعة منها وقرءها، فإذا فيها مكتوب ملكتم فأسرتم، وقدرتم وقهرتم، وخولتم فعسفتم ودرت عليكم الأرزاق فقطعتم، هذا، وقد عملتم أن سهام الأسحار نافذة لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأجساد أعريتموها، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا مستجيرون واظلموا فإنا متظلمون " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " قال: فعدل من وقته وساعته.)([1])

[1] – الكشكول – (١ / ١٥٢)

أم البنين

ترجمتها: عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهي أم البنين زوجة عبد الملك بن مروان، وهي أم الخليفة يزيد بن عبد الملك؛ كان لها من المحارم اثنا عشر خليفة تضع الخمار قدامهم، كل بني أمية إلا عمر بن عبد العزيز ومروان الحمار؛ وبقيت إلى أن قتل ابن ابنها الوليد بن يزيد، وتوفيت في حدود الثلاثين ومائة، وكان لها قصر بظاهر باب الجابية، وإليها تنسب أرض عاتكة، وهناك قبرها. كان أبوها يزيد بن معاوية، وأخوها معاوية بن يزيد بن معاوية، جدها معاوية بن أبي سفيان، زوجها عبد الملك بن مروان، أبو زوجها مروان بن الحكم، ابنها يزيد بن عبد الملك، ابن ابنها الوليد بن يزيد، ابنا ابن زوجها يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد، وبنو زوجها الوليد وسليمان وهشام بنو عبد الملك؛ قال بعضهم مختصراً: جميع خلفاء بني أمية لها محرم سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، وكذلك فاطمة بنت عبد الملك: جميع خلفاء بني أمية لها محرم سوى مروان بن محمد؛)([1])

موقفها من الحجاج

ووفد الحجاج على الوليد بن عبد الملك في خلافته فوجده في بعض نزهه فاستقبله، فلما رآه ترجل له وقبل يده وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية، فقال له الوليد: اركب أبا محمد، فقال: يا أمير المؤمنين دعني أستكثر من الجهاد في خدمتك فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنه، فعزم عليه الوليد حتى ركب. ودخل الوليد داره فتغلل في غلالة ثم أذن للحجاج فدخل في حالة تلك وأطال الجلوس عنده إذ جاءت جارية

[1] – الوافي بالوفيات – (٥ / ٣١٢)

فساررته وانصرفت، فقال الوليد للحجاج: أتدري ما هذا أبا محمد قال: لا والله، قال: بعثت ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول: ما مجالستك هذا الأعرابي المستلئم في السلاح وأنت في غلالة، فأرسل إليها إنه الحجاج، فراعها ذلك وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ولا تطمعهن في غير أنفسهن ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن وإياك ومشاروتهن، وأكثر من ذلك. ثم نهض الحجاج فخرج ودخل الوليد على أم البنين فأخبزها بمقالة الحجاج فقالت: أحب أن تأمره غداً بالتسليم علي، أفعل. فلما غدا الحجاج على الوليد قال له: يا أبا محمد صر إلى أم البنين فسلم عليها، فقال: اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: لابد منه؛ فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً ثم أذنت له وتركته قائماً ولم تأذن له في الجلوس ثم قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خليقته ما ابتلاك برمي الكعبة وقتل ابن ذات النطاقين؛ فأما ابن الأشعث فقد والله وإلى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن فأظلتك رماحهم ولطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك عن غدائرهن وبعنه في الأسواق حتى أخرج في أرزاق البعوث إليك، ولولا ذلك لكنت أذل من البقعة، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع عن بلوغ أوطاره من نسائه فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك، فإن كن يفرجن عن مثلك فما أولاه بالقبول منك؛ ثم قالت لجواريها: أخرجوه عني، فدخل على الوليد من فوره فقال: يا أبا محمد، ما كنت فيه قال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فضحك الوليد حتى فحص برجليه ثم قال: يا أبا محمد أنها ابنة عبد العزيز.))[1]

[1] -/عيون الأخبار - (١ / ٧٢) مروج الذهب - (١ / ٤١٧) وفيات الأعيان - (٢ / ٤٤)

بكارة الهلالية

موقفها وجهادها مع علي :

عن عبد الله بن عمرو قراءة من كتابه عليّ قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن المفضل قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي عن محمد بن إبراهيم عن خالد بن الوليد عمن سمعه من حذافة الجمحي قال دخلت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان بعد أن كبرت سنها ودق عظمها ومعها خادمان لها وهي متكئة عليهما وبيدها عكاز فسلمت على معاوية بالخلافة فأحسن عليها الرد وأذن لها في الجلوس وكان عنده مروان بن الحكم وعمرو بن العاص فابتدأ مروان فقال أما تعرف هذه يا أمير المؤمنين قال ومن هي قال هي التي كانت تعين علينا يوم صفين وهي القائلة:

يا زيد دونك فاستتر من دارنا سيفـًا حسامـًا في التراب دفينـًا

قد كان مذخوراً لكل عظيمة فاليوم أبرزه الزمان مصونـًا

فقال عمرو بن العاص وهي القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكـًا هيهات ذاك وما أراد بعيد

منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقاء وسعيد

فارجع بأنكد طائر بنحوسها لاقت عليـًا أسعد وسعود

فقال سعيد يا أمير المؤمنين وهي القائلة:

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبـًا

فالله أخر مدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا

في كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عائبـًا

ثم سكت القوم فقالت بكارة نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني فقصر محجني وكثر عجبي وعشى بصري وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب فامض لشأنك فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين فقال معاوية أنه لا يضعك شيء فاذكري حاجتك تُقضى فقضى حوائجها وردها إلى بلدها " وحدثني " عيسى بن مروان قال حدثني محمد بن عبد الله الخزاعي عن الشعبي قال استأذنت بكارة الهلالية على معاوية فأذن لها فدخلت وكانت امرأة قد أسنت وعشيَ بصرها وضعفت قوتها فهي ترعش بين خادمين لها فسلمت ثم جلست فقال معاوية كيف أنت يا خالة قال بخير يا أمير المؤمنين قال غيرك الدهر قالت كذلك هو ذو غير من عاش كبر ومن مات قبر ثم ذكر الحديث على ما رواه سعد بن حذافة.

في حديث عبد الله بن عمر ومن قول عمرو وسعيد ومروان ورواية في الحديث قالت ان عشى بصري وقصرت حجتي فأنا قائلة ما قالوا وما خفي عليك أكثر فضحك معاوية وقال ليس بما نعى من برك يا خالة غير عدم مجيئك قالت أمّا الآن فلا.)([1])

[1] – معجم النساء ج ١ ص١٤٨و سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي – (٢ / ٦١) بلاغات النساء – (١ / ١٥) أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبى سفيان – (١ / ٢٣) تراجم شعراء الموسوعة الشعرية – (١ / ١٠٠٤

أم البراء بنت صفوان

أم البراء بنت صفوان بن هلال من النسوة الشواعر الفصيحات

كلام أم البراء بنت صفوان:

عن العباس بن بكار قال حدثني سهيل بن أبي سهيل التميمي عن أبيه عن جعدة بنت هبيرة قالت: استأذنت أم البراء بنت صفوان بن هلال على معاوية فأذن لها فدخلت وعليها ثلاثة دروع تسحبها قد كارت على رأسها كورا كهيئة المنسف فسلمت وجلست فقال لها معاوية كيف حالك؟

قالت: ضعفت بعد قوة وكسلت بعد نشاط.

قال شتان بينك اليوم وحين تقولين:

يا عمرو دونك صارما ذا رونق عضب المهزة ليس بالخوار

اسرج جوادك مسرعا ومشمرا للحرب غير مولي فرار

اجب الامام وذب تحت لوائه وافر العدو بصارم بتار

يا ليتني أصبحت ليس بعورة فاذب عنه عساكر الفجار

قالت: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ومثلك من عفا والله يقول﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال هيهات أما والله لو عاد لعدت ولكن اخترم دونك فكيف قولك حين قتل قالت انسيته؟

فقال بعض جلسائه هي والله حين قتل تقول يا أمير المؤمنين

يا للرجال لعظم هول مصيبة فدحت فليس مصابها بإلهازل

الشمس كاسفة لفقد إمأمنا خير الخلائف وإلامأم العادل

يا خير من ركب المطي ومن مشى فوق التراب لمحتف أو ناعل

حاشا النبي لقد هددت قواءنا فالحق أصبح خاضعا للباطل

فقال معاوية: قاتلك الله يا بنت صفوان ما كان حسان بن ثابت يحسن مثل هذا وما تركت لقائل مقالا اذكري حاجتك.

قالت: بعد هذا والله لا أسألك شيئا ثم نهضت فعثرت فقالت تعس شانئ علي.

فقال معاوية: يا بنت صفوان زعمت أن لا تسألي شيئا.

قالت: هو والله ما علمت فلما كان من الغد بعث إليها بكسوة فاخرة حسنة وقال إذا أنا ضيعت الحلم فمن يحفظه)([1])

[1] – سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي – (٢ / ٦٢)بلاغات النساء – (١ / ٣٦) تاريخ دمشق – (٧٠ / ٢٠٣) أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبى سفيان – (١ / ١٢)

ارذة بنت الحارث

ترجمتها :أزدة بنت الحارث بن كلدة الثقفية زوج عتبة بن غزوان أمير البصرة وكانت صحبته لما قدم البصرة ومصرها وبسببها قدم البصرة إخوتها من أمها: أبو بكرة ونافع وزياد بن عبيد الذي صار بعد ذلك يقال له زياد بن أبي سفيان وأم الجميع سمية مولاة الحارث بن كلدة.)[1]

مكيدتها بالعدو

أحمد بن الحارث عن المدائني قال أجمع أهل ميسان للمسلمين وعليهم الفليكان فلقيهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب فقالت ازده بنت الحارث بن كلدة للنساء إن رجالنا في نحر العدو ونحن خلوف ولا اَمن إن يخالفوا الينا وليس عندنا من يمنعنا وأخرى أخاف أن يكثر العدو على المسلين فيهزمونهم فلو خرجنا لأمنا مما نخاف من مخالفة العدو إلينا ويظن المشركون أنا عدد ومدد أتى المسلمين فيكسرهم ذلك وهي مكيدة فأجبنها إلى ما رأت فاعتقدت لواء من خمارها واتخذت النساء رايات من خمرهن وامضين رأيهن ومضين وهي أمامهن وهي تقول: يا ناصر الإسلام صفـًا بعد صف.

إن تهزموا وتدبروا عنا نخف

أو يغلبوكم يغمزوا فينا القلف

قال فلما رأى العدو الرايات قالوا هذا عدد ومدد أتى العرب فانهزموا منهم)[2]

---

[1] – الإصابة في معرفة الصحابة – (٣ / ٤٣٤)

[2] – بلاغات النساء – (١ / ٦٠)

أم الخير بنت الحريش بن سر اقة البارقية

أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية الكوفية :قدمت على معاوية وحاورها محاورة تدل على فصاحتها وجزالتها

عن عبيد الله بن عمرو الغساني عن الشعبي قال: كتب معاوية بن أبي سفيان إلى واليه بالكوفة أن أوفد علي أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية رحلة محمودة الصحبة غير مذمومة العاقبة واعلم أني مجازيك بقولها فيك بالخير خيرا وبالشر شرا فلما ورد الكتاب عليه ركب إليها فأقرأها إياه قالت أما أنا فغير راغبة عن طاعة ولا معتلة بكذب ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تلجلج مني بمجرى النفس يغلي بها صدري غلي المرجل بحب البلس يوقد بجزل السمر فلما حملها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير إن معاوية ضمن لي أن يجازيني فيك بالخير خيرا وبالشر شرا فانظري كيف تكونين قالت يا هذا لا يطمعك برك بي في نزو معك بالباطل ولا يؤنسك معرفتي أن أقول فيك [غير] الحق فسارت خير مسير فلما قدمت على معاوية أنزلها بيتا مع الحرم ثلاثة أيام ثم أذن لها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين قال وعليك السلام وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم ؟ قالت مه يا هذا [فكل بديهة للسلطان مدحضة لما يجب علمه فقال صدقت كيف حالك وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزل في عافية وسلامة حتى أدتني إلى ملك جزل ذي عطاء بذل فأنا في عيش أنيق و [عند] ملك رقيق فقال معاوية بحسن نيتي والله ظفرت بكم وأعنت عليكم قالت مه يا هذا] والله لك من دحض المقال ما تردى عاقبة قال ليس لهذا أردناك قالت إنما أجري في ميدانك إذا أجريت شيئا أجريته فسل عما بدالك قال كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر قالت

لم أكن والله رأيته قبل ولا رأيته بعد وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة فإن شئت أحدثت لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ثم التفت إلى بعض أصحابه فقال أيكم يحفظ كلام أم الخير فقال رجل من القوم أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي لسورة الحمد قال فهاته قال نعم كأني بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية على جمل أرمك الأرمك الأشقر وقد أحيط حولها وبيدها سوط منتشر الضفر وهي كالفحل يهدر في شقشقته

تقول ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا شعواء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله أفرارا عن أمير المؤمنين أم رغبة عن الإسلام أم ارتدادا عن الحق أما سمعتم الله يقول ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول اللهم إنه قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك اللهم أزمة القلوب فاجمع اللهم الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل إنها إحن بدوية وضغائن أحدية وأحقاد جاهلية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بثارات بني عبد شمس ثم قالت " قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون " صبرا معاشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدري ما يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] حين تحل بهم الندامة فيصلبون الإقالة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ومن لم يكن الجنة نزل النار أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستطالوا مدة الآخرة فسعوا لها والله أيها الناس

لولا أن يبطل الحق ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اختاروا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه إلى اين تريدون رحمكم الله أيها الناس عن ابن عم رسول الله – ﷺ – وزوج ابنته وأبي ابنيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وأعلم بحبه المسلمين وأبان ببغضه المنافقين فلم يزل كذلك حتى أيده الله بمعونته يمضي على سنن استقامة لا يفرح لراحة اللذات بها وهو مفلق الهام مكسر الأصنام صلى والناس مشركون وأطاع والناس مرتابون فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد وهزم الله به الأحزاب وقتل أهل حنين وفرق جمع هوازن فيا لهاأ من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله فقال معاوية والله يا أم الخير ما أردت بهذا القول إلا قتلي ولو قتلتك ما حرجت في ذلك [فقالت] والله ما يسسوؤني أن يجري الله قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه قال : هيهات يا كثيرة الفضول ما تقولين في عثمان بن عفان قالت وما عسى أن أقول فيه استخلفه الناس وهم به راضون وقتلوه وهم له كارهون فقال معاوية : إيها يا أم الخير هذا والله أصلك الذي تبنين عليه قالت لكن الله يشهد بما أنزل أنزله بعلمه والملائكة يشهدون " وكفى بالله شهيدا " وما أردت بعثمان نقصا ولقد كان سباقا إلى الخير وإنه لرفيع الدرجة غدا فما تقولين في طلحة بن عبيد الله قالت وما عسيت أن أقول في طلحة اغتيل من مأمنه وأتي من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله – ﷺ –الجنة قال فما تقولين في الزبير ؟ قالت لا تدعني كرجيع الثوب الصبغ يعرك في المركن (

قال حقا لتقولن) وقد عزمت عليك قالت وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله – ﷺ –وحوارية

وقد شهد له رسول الله – ﷺ –بالجنة ولقد كان سباقا إلى كل مكرمة في الإسلام وإني أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشا تحدث أنك من أحلمها فأنا أسألك أن تسعني من

فضل حلمك وأن تعفيني من هذه المسائل وامض لما شئت من غيرها قال قد فعلت ونعمة عين قد أعفيتك وردها مكرمة(١)

مخة أخت بشر بن الحارث

وكان له أختان غيرها إحداهما مضغة والأخرى زبدة وكان الثلاث أخوات مذكورات بالعبادة والورع وأكبرهن مضغة وهي أكبر من بشر وكانت زبدة تكنى بأم علي وقيل لما ماتت مضغة توجع عليها بشر توجعاً شديداً وبكى بكاءاً شديداً فقيل له في ذلك فقال قرأت في بعض الكتب أن العبد إذا قصر في خدمة ربه سلبه أنيسه وهذه كانت أنيستي من الدنيا.

وقال إبراهيم الحربي إن بشراً قال هذا يوم ماتت أخته مخة.

وقال عبد الله بن أحمد جاءت مخة أخت بشر بن الحارث إلى أبي فقالت له إني امرأة رأس مالي دانقين أشتري القطن فأردنه فأبيعه بنصف درهم فأتقوت بدانق من الجمعة إلى الجمعة فمر ابن طاهر الطائف ومعه مشعل فوقف يكلم أصحاب المصالح فاستغنمت ضوء المشعل فغزلت طاقات ثم غاب عني المشعل فعلمت أن لله في مطالبة فخلصني خلصك الله فقال لها تخرجين الدانقين وتبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيراً.)(٢) عن عبد الله: فقلت لأبي يا أبت لو قلت لها لو أخرجت الذي أدركت فيه الطاقات فقال يا بني سؤالها لا يحتمل التأويل ثم قال من هذه قلت مخة أخت بشر بن الحارث فقال من ههنا أتيت.

---

١ – **تاريخ دمشق – (٧٠ / ٢٣٣/٢٣٥)** (خبرها في صبح الاعشى ١ / ٢٤٨ والعقد الفريد ٢ / ١١٥

٢ – المنتظم – (٣ / ٣٣٨) بحر الدم – (١ / ١٩١) وفيات الأعيان – (١ / ٢٧٦) طبقات الحنابلة – (١ / ١٧١) تاريخ بغداد – (٦ / ٣٦٧)

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل أيضاً كنت مع أبي يوما من الأيام في المنزل فدق داق الباب قال لي أخرج فانظر من بالباب قال فخرجت فإذا امرأة قالت لي استأذن لي على أبي عبد الله يعني أباه قال فاستأذنته فقال أدخلها فدخلت فجلست فسلمت عليه وقالت له يا أبا عبد الله أنا امرأة أغزل بالليل في السراج فربما طفىء السراج فأغزل في القمر فعلى أن أبين غزل القمر من غزل السراج قال فقال لها إن كان عندك بينهما فرق فعليك أن تبيني ذلك قال قالت له يا أبا عبد الله أنين المريض شكوى قال أرجو أن لا يكون شكوى ولكنه اشتكاء إلى الله قال فودعته وخرجت قال فقال لي يا بني ما سمعت قط إنسانا يسأل عن مثل هذا اتبع هذه المرأة فانظر أين تدخل قال فاتبعتها فإذا هي قد دخلت إلى بيت بشر بن الحارث وإذا هي أخته قال فرجعت فقلت له فقال محال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر.

وقال أبو عبد الله القحطبي كانت لبشر أخت صوامة قوامة وقال بشر تعلمت الورع من أختي فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما للمخلوق فيه صنع.

وقالت زبده أخت بشر دخل بشر علي ليلة من الليالي فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج وبقي كذلك يتفكر حتى أصبح فلما أصبح قلت له فيماذا تفكر طول ليلتك فقال تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي ونفسي واسمي بشر فقلت ما الذي سبق منك إليه حتى خصك فتفكرت في تفضله على أن جعلني من خاصته وألبسني لباس أحبابه.(١)

١ – طبقات الحنابلة – (١ / ١٧٢)

تقية أم علي الشاعرة

تقية أم علي بنت أبي الفرج غيث بن علي بن عبد السلام بن محمد بن جعفر السلمي الأرمنازي الصوري؛ وهي أم تاج الدين أبي الحسن علي بن فاضل ينتهي إلى محمد بن صمدون الصوري. كانت فاضلة ولها شعر: قصائد ومقاطيع، وصحبت الحافظ السلفي زماناً بالإسكندرية، وذكرها في بعض تعاليقه وأثنى عليها وقال: عثرت في منزل سكناي فانجرح أخمصي فشقت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعصبته، فأنشدت تقية المذكورة في الحال لنفسها:

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً من خمار تلك الوليده

كيف لي أن أقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميده

ومن شعر تقية:

نأيت وما قلبي على النأي بالراضي فلا تغترر مني بصدى وإعراضي

وإني لمشتاق إليهم متيم وقد طعنوا قلبي بأسمر عراض

إذا ما تذكرت الشآم وأهله بكيت دماً حزناً على الزمن الماضي

ومذ غبت عن وادي دمشق كأنني يقرض قلبي كل يوم بمقراض

أبيت أراعي النجم والنجم راكد وقد حجبوا عن مقلتي طيب إغماضي

فهل طارق منهم يلم بناظري فإن لقاء الطيف أكبر أغراضي

لعل الليالي أن تجرد صارماً على البين أو يقضي لنا حكمه قاض

ولها غير ذلك أشياء حسنة. وحكى لي الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري أن تقية المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين، وكانت القصيدة خمرية، ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر، فلما وقف عليها، قال: الشيخة تعرف هذه الأحوال من صباها فبلغها ذلك، فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف، ثم سيرت إليه تقول: علمي بهذا كعلمي بهذا. وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبت إليه. ومولدها سنة خمس وخمس مائة بدمشق، وتوفيت سنة تسع وسبعين وخمس مائة. رحمها الله تعالى.(١)

زبيدة أم الأمين

ترجمتها (٢) أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هائم، وهي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد؛ كان لها معروف كثير وفعل خير، وقصتها في حجها وما اعتمدته في طريقها مشهورة فلا حاجة إلى شرحها.

قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب " الألقاب " : إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحوت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار، فبلغت النفقة عليه ألف ألف وسبعمائة ألف دينار؛ قال اسماعيل بن جعفر بن سليمان: حجت أم جعفر زبيدة فبلغت نفقتها في ستين يومـًا أربعة وخمسين ألف ألف، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من مصانع وبرك أحدثتها . وإنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من

---

١ – الوافي بالوفيات – (٣ / ٤٥٨) تاريخ الإسلام للذهبي – (٩ / ٧٨) نزهة الجلساء في أشعار النساء – (١ / ٢)

٢ – ترجمة زبيدة أم جعفر في تاريخ بغداد ١٤ : ٤٣٣ وشرح المقامات للشريشي ٢ : ٢٢٥ والنجوم الزاهرة ٢ : ٢١٣ إلى أخبار

قراءة القرآن، وإن اسمها أمة العزيز، ولقبها جدها أبو جعفر المنصور " زبيدة " لبضاضتها ونضارتها.

[قال الطبري في تاريخه: أعرس بها هارون الرشيد في ذي الحجة في سنة ١٦٥ في قصره المعروف بالخلد وحشد الناس من الآفاق وفرق فيهم الأموال ولم ير في الإسلام مثله، وبلغت النفقة في هذا الغرض من بيت مال الخاصة خارجة سوى ما أنفقه هارون من ماله خمسين ألف ألف درهم، وليس في بني هاشم هاشمية ولدت خليفة إلا هي. وحكي أنها أحضرت الأصمعي وقالت له: إن أمير المؤمنين استدعاني وقال: هلمي يا أم نهر، فما معنى ذلك فقال لها: إن جعفراً في اللغة هو النهر الصغير وأنت أم جعفر.

وحضر شاعر بابها، وأنشد:

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لزائرك المثاب

تعطين من رجليك ما تعطي الأكف من الرغاب

فتبادر الخدم إليه ليوقعوا به على سوء أدبه وعبارته فقالت: دعوه فإن من أراد خيراً فأخطأ خير ممن أراد شراً فأصاب، سمع الناس يقولون: شمالك أندى من يمين غيرك، فقدر أن هذا مثل ذلك؛ أعطوه ما أمل وعرفوه ما جهل.

ووقع بين الرشيد وبين زبيدة الشركة المتعهدة فتهاجرا فعمل داود بن رزين مولى عبد القيس شعراً وهو:

زمن طيب ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير

إنما أم جعفر جنة الخل رضاها والسخط منها السعير

أنت عبد لها ومولى لهذا ال خلق طرا وليس في ذا نكير

فاعتذر يا خليفة الله في الأر ض إليها وترك ذاك كبير

فصار إليها عندما وقف على الأبيات وسألت عن سبب مجيئه فعرفت، وأوصلت إلى داود مائة ألف درهم في وقتها وأضعافها بعد ذلك.

ولما ولدت ابنة جعفر محمداً قال مروان بن أبي حفصة:

لله درك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من الندى والسؤدد

إن الخلافة قد تبين نورها للناظرين على جبين محمد

إني لأعلم أنه لخليفة ... إن بيعة عقدت وإن لم تعقد فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة أن يحشى فوه جوهراً، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار.

وقالت زبيدة للمأمون عند دخوله بغداد: أهنيك بخلافة قد هنأت نفسي [بها] عنك قبل أن أراك، وان كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك وثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وامتاعاً بما عوض؛ وقيل إن زبيدة أرسلت إلى أبي العتاهية أن يقول على لسانها أبياتاً يستعطف بها المأمون، فأرسل هذه الأبيات:

ألا إن صرف الدهر يدني ويبعد ويمتع بالألاف طراً ويفقد

أصابت بريب الدهر مني يدي فسلمت للأقدار والله أحمد

وقلت لريب الدهر إن هلكت يد فقد بقيت والحمد لله لي يد

إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ... ولي جعفر لم يفقدا ومحمد فسيرتها له، فلما قرأها المأمون استحسنها وسأل عن قائلها فقيل له أبو العتاهية، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعطف على زبيدة وزاد في تكرمتها والبر بها.

اختلف الرشيد وأم جعفر في اللوزينج والفالوذج أيهما أطيب، فمالت زبيدة إلى تفضيل الفالوذج ومال الرشيد إلى تفضيل اللوزينج، وتخاطرا على مائة دينار، فأحضر أبا يوسف القاضي وقالا له: يا يعقوب قد اختلفنا في كذا على كذا وكذا فاحكم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين ما يحكم على غائب وهو مذهب أبي حنيفة، فأحضر له جامين من المذكورين، فطفق يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة، وتحقق انه إن حكم للرشيد لم يأمن غضب زبيدة، وإن حكم لها لم يأمن غضب الرشيد، فلم يزل في الأكل إلى أن نصف الجامين فقال له الرشيد: أيه ابا يوسف، فقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت خصمين أجدل منهما، كلما أردت

أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجته، وقد حرت بينهما، فضحك الرشيد وأعطاه المائة دينار وانصرف مشكوراً.

ومن عجائب التنجيم أن زبيدة فقدت خاتماً بفص له قيمة، وأنها اتهمت به بعض جواريها، فأحضرت رجلاً من أهل الصناعة فأخذ الطالع على تلك المصانع وقال: ما أخذ هذا الخاتم إلا الله تعالى، وردد القول ولم يرجع عنه، فبعد مدة فتحت زبيدة المصحف فوجدت الخاتم فيه، وكانت قد جعلته علامة للوقف وأنسيته] .

وكانت وفاتها في سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الأولى ببغداد، وتوفي أبوها جعفر بن المنصور في سنة ست وثمانين ومائة.

[ورآها عبد الله بن المبارك الزمن في المنام فقال لها: ما فعل الله بك قالت: غفر لي الله بأول معول ضرب في طريق مكة، قال: قلت ما هذه الصفرة في وجههك قالت: دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسي فزفرت جهنم عليه زفرة فاقشعر لها جسدي، فهذه الصفرة من تلك الزفرة، رحمها الله تعالى] (١) .

١ – وفيات الأعيان – (٢ / ٣١٤)

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

ويقول المقريزي – رحمه الله–الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر كانت تركية الجنس، وقيل بل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحطت عنده بحيث كان لا يفارقها سفراً ولا حضراً. وولدت منه ابنا اسمه خليل، مات وهو صغير. وهذه المرأة شجر الدر، هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك، وذلك أنه لما قتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما تقدم ذكره، اجتمع الأمراء المماليك البحرية، وأعيان الدولة وأهل المشورة، بالدهليز السلطاني، واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب في مملكة مصر، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك الزكماني الصالحي أحد البحرية. وحلفوا على ذلك في عاشر صفر، وخرج عز الدين الرومي من المعسكر إلى قلعة الجبل، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق، فأعجبها، وصارت الأمور كلها معقودة بها، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل، وعلامتها عليها والدة خليل. وخطب لها على منابر مصر والقاهرة، ونقش اسمها على السكة، ومثاله المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين، وكان الخطباء يقولون في الدعاء: اللهم أدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك الخليل، وبعضهم يقول، بعد الدعاء

للخليفة: واحفظ اللهم الجبة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح.(١)

و قال الذهبي- رحمه الله- جارية السّلطان الملك الصّالح ، وأمّ ولده خليل .

كانت بارعةً الجمال ، ذات رأي ودهاء وعقل . ونالت من السّعادة مالم ينلها أحدٌ من نساء زمانها .

وكان الملك الصّالح يحبّها ويعتمد عليها ، ولما توفّي على دِمياط أخفت موته ، وكانت تعلّم بخطّها مثل علامته وتقول : السّلطان ما هو طيّبٌ . وتمنعهم من الدّخول إليه .

وكانت الأمراء والخاصكيّة يحترمونها ويُطيعونها ، وملّكوها عليهم أيّاماً . وتسلطنت وخُطب لها على المنابر إثر قتْل السّلطان المعظَّم بن الصّالح . ثم تزوّج بها المُعزّ ، واستولت عليه ، وأشارت عليه بقتل الفارس أقطايا فقتله . ثم غارت منه لمّا خطب بنت لؤلؤ صاحب الموْصل فقتلتْهُ في الحمّام ، وقتلت وزيرها القاضي الأسعد .

قال شيخنا قطب الدّين ، كان الصّالح يحبّها كثيراً ، وكانت في صُحبته لمّا اعتقل بالكرك ، وولدت له هناك الأمير خليل ، وما صبيّاً . ولمّا قُتل المعظَّم تملّكت الدّيار المصريّة وخُطب لها على المنابر. وكانت تعلّم على المناشير وتكتب: " والدة خليل " . وبقيت على ذلك ثلاثة أشهر ، ثمَّ استقرّت السّلطنة للأشرف. ثمّ تزوّجها المُعزّ ، فكانت مستولية عليه ليس له معها كلام .

وكانت تركيّة ذات شهامة وقوّة نفس.

وقيل إنّ المُعزّ ملّ من احتجارها عليه واستطالِتها، ورُبّما عزم على إهلاكها ، فقتلته . فأخذها مماليكه بعد أن أمّنوها فاعتقلوها في برج ، والملك المنصور ابن المُعزّ التّركمانيّ وأمّه يحرّضان على قتلها . فلمّا كانت بُكْرة يوم السّبت حادي عشر ربيع الآخر ألقيت

---

١ – السلوك لمعرفة دول الملوك – (١ / ١١٨)

تحت قلعة مصر مقتولة مسلوبةً ، ثمّ حُملت إلى تُربتها التي بنتْها لها بقرب تُربة السّيّدة نفيسة)[1].

شغب أم المقتدر

شغب أم المقتدر بالله، لم يكن لامرأة بعد زبيدة بنت جعفر من الخير ما كان لها فإنها كانت مواظبة على صلاح حال الحاج وإنفاذ خزانة الطب والأشربة إلى الحرمين، وإصلاح الطرق والحياض والآبار، وكان يرتفع إليها من ضياعها الخاصة ألف ألف دينار في كل سنة، وتتصدق بأكثرها، ووقفت وقوفاً كثيرة على مكة والمدينة. ولما قتل ولدها المقتدر وأفضت الخلافة إلى القاهر، قبض عليها واخذ أموالها وأمر الشهود أن يشهدوا عليها بحل وقوفها، فأبت وقالت: شيء وقفته لله لا أرجع فيه، خذوا غيره من أموالي، وعذبها عذاباً شديداً، ومرضت فلم يخفف عنها من العذاب، إلى أن هلكت في الاعتقال سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة – وهي بالشين والغين معجمتين مفتوحتين وبعدهما باء موحدة – .

الشفاء)[2]

[1] – تاريخ الإسلام للذهبي – (١١ / ١٠٨)

[2] – الوافي بالوفيات – (٥ / ٢٠٨) المنتظم – (٤ / ١٣٥) تاريخ الإسلام للذهبي – (٥ / ٤٢٩)

زينب محمد الغزالي الجبيلي

التعريف بها:

زينب محمد الغزالي الجبيلي ولدت في ٢ من يناير سنة ١٩١٧م، ونشأت بين والدين ملتزمين بالإسلام ووالدها من أهل القرآن من قرية "ميت يعيش" بالدقهلية مصر وغلب على الأسرة العمل بالتجارة.

تعلمت في المدارس الحكومية، وأخذت علوم الدين والقرآن والحديث والفقه وعلومهما على الشيخ عبد المجيد اللبان وكيل الأزهر الشريف، والشيخ محمد سليمان رئيس قسم الوعظ بالأزهر، والشيخ علي محفوظ وتأثرت بالشهيد حسن البنا والأستاذ الهضيبي في سلوكهما فكانت شجاعة أبية صابرة متفانية محبة لدينها.

زينب الغزالي عملها ومؤلفاتها:

من مؤسسي المركز العام للسيدات المسلمات ومسئولة الأخوات المسلمات في جماعة الإخوان المسلمين وتولت رئاسة المركز سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٦م بهدف نشر الدعوة، وألفت من الكتب: أيام من حياتي، نحو بعث جديد، نظرات في كتاب الله، مشكلات الشباب والفتيات، إلى ابنتي، وتحت الطبع "أسماء الله الحسنى" ولها العديد من المقالات في الصحف والمجلات العربية والإسلامية وقد طافت الكثير من البلدان الإسلامية وشاركت ومثلت المرأة المسلمة في كثير من المؤتمرات والمنتديات.

زينب الغزالي وثورة ١٩٥٢م المصرية:

تعاطفت زينب الغزالي مع الانقلاب والثورة في بدايتها وقت أن كانت القيادة بيد اللواء محمد نجيب كما أيدها – السيدات المسلمات – وكان ذلك لفترة قصيرة تغيرت رؤيتهن بعد ذلك بسبب إحساسهن أن الأمور لا تسير على ما يرام، وأنها ليست الثورة المنتظرة التي تقيم حكم الله، ومرت الأيام وسقط القناع عن وجه الثورة بقيادة عبد الناصر وظهر عداؤه للإسلام في شخوص رجاله وصدور الأحكام البشعة بالإعدام على العلماء الأبرار.

زينب الغزالي ومو اقفها السياسية:

كان أول تكليف لها من الشهيد حسن البنا هو الوساطة بين الإخوان والنحاس باشا وإزالة سوء التفاهم بينهما وكان الوسيط المرشح من قبل النحاس هو الأستاذ أمين خليل.

وقد رفضت طلبًا لعبد الناصر حاكم مصر بمقابلتها، قائلة: "أنا لا أصافح يدًا تلوثت بدماء الشهيد عبد القادر عودة" فكانت بداية العداوة فلاقت من التعذيب والسجن ما لاقت على يد زبانية جمال عبد الناصر، ثم دبروا لاغتيالها في حادث سيارة أسفر عن كسر فخذها ثم حاولوا تجنيدها في الاتحاد الاشتراكي وإغراءها بالمناصب وعرضوا عليها أن تصبح مجلة "السيدات المسلمات" تحت إشراف وتوجيه الاتحاد الاشتراكي وكانت الحاجة زينب صاحبة الامتياز ورئيسة التحرير آنذاك وقدروا مقابل ذلك ثلاثمائة جنيه راتبًا شهريًا لها مع تدعيم المركز والمجلة بعشرين ألف جنيه سنويًا إلا أنها رفضت كل هذا، ثم صدر قرار الحكومة رقم ١٣٢ بتاريخ ٦/ ٩/ ١٩٦٤م بحل المركز، وإيقاف إصدار مجلة "السيدات المسلمات" ولكنها أبت كل التهديدات إلا أن يكون العمل لله وحده.

زينب الغزالي في رحاب السجون:

بعد أن عرفوا أن حركة فكرية يقودها سيد قطب وقدمت المخابرات الأمريكية والروسية والصهيونية التقارير التي توحي بخطر هذه الجماعة على الثورة وأن هذه الحركة ستقضي على كل فكر مغاير للإسلام، وفي أوائل أغسطس ١٩٦٥م بدأت الاعتقالات فاعتقلت

الحاجة زينب الغزالي في ٢٠/ ٨/ ١٩٦٥م وأخذوا كل ما في خزينتها ومكتبتها، ودخلت السجون فلاقت فيها من الصلب والصعق بالكهرباء والتهديد بهتك العرض والتعليق في السقف والضرب بالسياط وإطلاق الكلاب المتوحشة والنوم مع الفئران والحشرات والحرمان من الطعام والشراب وانتهاك الكرامة والإنسانية والآدمية فضلا عن السب بأفحش الألفاظ وإغراق الغرف والزنازين المقيمين فيها بالماء، كل ذلك وهي محتسبة وثابتة وتردد الدعاء "اللهم اصرف عني السوء بما شئت وكيف شئت" فألهمها الله السكينة والصبر على البلاء، ورغم ذلك لم تتخلى عن ولائها لله ودعوته، وكان بإمكانها في هذا الوقت أن تقول نعم مثل الذين قالوا وتؤيد الطاغية لتحظى بنعيم الدنيا الزائل لكنها أبت وباعت نفسها لله لتشتري جنة عرضها السموات والأرض.

زينب الغزالي ومو اقفها الإنسانية:

بعد أحداث ١٩٥٤م البشعة التي صدر فيها أحكام بالإعدام والسجن والتشتيت لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين رفعت الثكالى والأرامل ضحايا الطغيان والظلم الأصوات مستغيثين دون مجيب أو مغيث ينقذ هؤلاء الذين لا عائل لهم، وكان عدد المعتقلين والمسجونين يقرب من مائة ألف لكن هذه المجاهدة انبرت مع مجموعة من السيدات الفضليات المجاهدات وجندن أنفسهن لدعوة الله – سبحانه وتعالى – ورعاية أسر هؤلاء المقهورين بدافع من أنفسهن فلم يبخلن بأي جهد أو وقت في التبرع من مالهن الخاص وجمع التبرعات من القادرين الخيرين مواساة وتخفيفًا عن هؤلاء.

فتحية وحبًا وعرفانًا لهذه المجاهدة الأبية الصامدة ونسأل الله أن يبارك فيها وفي عمرها وأن يتقبل كل أعمالها خالصة لوجهه الكريم.)[١]

[١] – ابن الهاشمي، الداعية زينب الغزالي مسيرة جهاد وحديث من الذكريات من خلال كتاباتها، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٩م.

امرأتان مؤمنتان في رحلة التحرير النسوي الجاد (زينب الغزالي، وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ) شهرزاد العربي.

زينب الغزالي، أيام من حياتي، دار الاعتصام، القاهرة.

شهرزاد العربي: زينب الغزالي من البرنيطة إلى الحجاب، بيت الحكمة، منشية الصدر، القاهرة، مصر، عام ١٩٩٦م.شبوه نت

سعاد جود الله

- أم الشهداء "سعاد جود الله" استشهدت بكمين مسلح ودفنت مبتسمةً رافعةً سبابتها إلى جوار ابنها القسامي.

- لم تكن الشهيدة سعاد تعلم وهي تودع ابنها الشهيد أحمد أن فراقه لن يدوم طويلا وبأن ثلاثة أشهر فقط هي مدة الألم ولوعة الفراق...

- في يوم من أيام الربيع الفلسطيني وبتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٩٥٦ وُلدت الشهيدة سعاد حسن صنوبر في مدينة نابلس لأسرة عرفت بتدينها والتزامها بأخلاق الدين الحنيف.. فتربت تربية إسلامية كان لها الأثر الأكبر في تفكيرها ونمط حياتها فيما بعد.

أنهت شهيدتنا الدراسة الثانوية في القسم العلمي، ومن ثم حصلت على شهادة الدبلوم في المحاسبة وقد اشتهرت بين أفراد عائلتها بذكائها الحاد وفطنتها وألمعيتها.

• الزواج والأسرة:

اقترنت شهيدتنا عام ١٩٧٨ بالسيد محمود خليل جود الله أبو محمد، وكانت مثلاً يحتذى به للزوجة الصالحة والمتفانية في رعاية بيتها وشؤون أسرتها الجديدة، وقد تحملت مع زوجها ظروف المعيشة القاسية وضحت بكل ما تملك من جهد ومال وحلي في سبيل

بناء بيت مستقل لها ولزوجها ولأبنائها بدلاً من البيت الصغير المستأجر لتوفر لأبنائها حياة أفضل ومستقبلا واعدًا.

وقد رزقت الشهيدة بخمسة أبناء هم: محمد وأحمد وعبد الله وأنس وياسر، وحرصت على تربيتهم التربية الصالحة، وأنشأتهم على حب المساجد، وغرست في نفوسهم معاني العزة والكرامة وحب الأوطان، فأنبت جهدها نباتًا حسنًا، وكان ابنها الشهيد أحمد ذلك الشاب المجاهد الذي أذاق العدو صنوفًا من العذاب بعملياته الجريئة والنوعية.

وكانت أم محمد كذلك أمًا لكل الشهداء والمجاهدين من رفقاء درب ابنها الشهيد أحمد، كانت أمًا للشهداء أيمن الحناوي وعلاء مفلح وسامح الشنيك وغيرهم الكثير، إذ لم تتوان عن إعداد الطعام وإرساله لهم مع ابنها أحمد، وتقدم لهم كل رعاية وعناية وتودعهم بالدموع والدعاء والصلاة قبل كل عملية كانوا ينطلقون لتنفيذها ضد الصهاينة المحتلين، ولا يهدأ لها بال حتى يعودوا من مهمتهم بسلام، فاستحقت بذلك لقب أم الشهداء.

• **استشهاد الحبيب الغالي:**

كان أحب أبناء الشهيدة سعاد إلى قلبها ابنها الشهيد أحمد حيث كان يتودد إليها بالرفق والحنان والملاطفة، وكان يقول لها دائمًا بأنه لن يمكث في هذه الدنيا طويلاً، فتجيبه الأم المؤمنة المجاهدة: إني قد وهبتك لله تعالى، وكانت توصيه قائلة: بالله عليك يا أحمد لا تمت إلا ميتة مشرّفة، لا أريد أن أسمع أنك استشهدت أثناء تحضير عبوة ناسفة أو برصاصة طائشة، أريدك أن تموت وأنت تواجه المحتلين، وبالفعل كان الشهيد أحمد قناصًا بارعًا، ومن أبرز عملياته قتل جنديْن صهيونييْن في عمارة عالول و أبو صالحة وسط مدينة نابلس في ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٢، فضلاً عن عشرات العمليات التي شارك فيها وقتل ما مجموعه سبعة صهاينة وإصابة العشرات منهم بجروح.

وكانت عمليات الشهيد أحمد شديدة الوقع على جنود الاحتلال ومستوطنيه فقامت وحدة صهيونية خاصة من جيش الاحتلال بتنفيذ عملية اغتيال مدبرة استهدفته واثنين من رفقاء دربه ، هما الشهيد علاء مفلح وأيمن الحناوي في منطقة رأس العين بالمدينة بتاريخ

٢٧/ ١٠ / ٢٠٠٢، وأسفرت العملية عن استشهاد أحمد وعلاء، فيما تمكن أيمن من الإفلات بعد أن رمى بنفسه في واد قريب وكسر ساعده.

ويروي شهود العيان أنهم شاهدوا أحمد وهو يقاوم أفراد الوحدة الصهيونية إذ أطلق النار باتجاه أحدهم فأصابه إصابة مباشرة في رقبته قبل أن يعاجله باقي أفراد الوحدة بإطلاق النار عليه بشكل كثيف ليرتقي شهيدًا الى عليين.

وتسمع الأم بخبر استشهاد رفيق ابنها علاء في عملية اغتيال مدبرة فتدرك على الفور أن ابنها أحمد لابد أنه أُصيب أو اعتقل، هذا إذا لم يستشهد هو الآخر، وبالفعل وصلت الأخبار تباعًا لتؤكد نبأ استشهاد ابنها أحمد، بكت شهيدتنا بكاء شديدًا على فراق ابنها الحبيب وكانت تقول: لقد ذهب الغالي، وقد اشتد ألمها وحزنها لفراقه وكم كانت متلهفة لرؤيته ولو في المنام ويروي أبناؤها أنها كانت تقول بعد استشهاد أحمد: إن أحمد مشغولٌ عني لا يزورني في المنام.

وكان أثر حزنها باديًا على وجهها بشكل واضح وجلي إلا أنها كانت صابرة محتسبة، ترجو أجرها من الله تعالى على أمل أن تلقى ابنها عن قريب، وكان لها ما تمنت وأكرمها الله تعالى بالشهادة بعد أن قضت حياتها مجاهدة في سبيل الله، وقدمت أعز أبنائها فداء لمسرى نبيه صلى الله عليه وسلم.

• موعد مع الشهادة

وتزداد حرقة الأم على ولدها ويزيد شوقها للقائه، فيكون اللقاء بعد أقل من ثلاثة أشهر حينما كانت الشهيدة سعاد وابنها الآخر عبد الله، والشهيد القسامي أيمن الحناوي رفيق درب الشهيد أحمد هدفًا لكمين نصبته قوات الاحتلال على مدخل نابلس الغربي، ويطلق الجنود النار بكثافة على السيارة التي كانوا يستقلونها فترتقي سعاد شهيدة وكذلك أيمن ويصاب عبد الله بجروح ويقع في قبضة جنود الاحتلال.

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى الشهيدة سعاد بلقاء ابنها الذي أحبته، وكان هذا اللقاء بصحبة الشهيد أيمن صديق ابنها ورفيق دربه في الجهاد والمقاومة، لقد نجا أيمن من

محاولة الاغتيال التي استشهد فيها احمد، ولكنه لحق به بصحبة أمه المجاهدة، وإمعانًا في الحقد الصهيوني المتجذر في نفوس الصهاينة يحتجز جنود الاحتلال جثماني الشهيدين لأكثر من ثماني ساعات متواصلة، ولم يفرج عنهما إلا قبيل ساعات الغروب، الأمر الذي أدى الى تضارب الأنباء حول هوية الشهيدين، وسرت شائعات مفادها بأن الشهيدين هما سعاد وابنها عبد الله مما ضاعف من وقع الحدث على الأهل والأقارب والأحباب، وما أن أفرج عن الجثمانين حتى خرجت مسيرة غاضبة تحمل الشهيدين وتطوف بهما شوارع جبل النار، متحدين ظروف حظر التجول المشدد والمفروض على المدينة منذ أسبوع، وتنطلق الحناجر بالتكبير والهتاف مطالبين القوى المجاهدة بالثأر والانتقام لدماء الشهيدين.

ويسجّى جثمان الأم الى جانب ضريح ابنها الشهيد أحمد لتكون الى جانبه جسدًا والى جانبه روحًا في جنات النعيم، وقد بدت عليها ابتسامة الفرح بلقائه وكانت مفتحة العينين وترفع أصبعها بعلامة التشهد.

• **كتائب القسام تنعي الشهداء :**

نعت كتائب القسام الشهيدة سعاد والشهيد القسامي أيمن الحناوي، وأوضحت بأن الشهيد أيمن كان في مهمة جهادية قرب مستمرة شافي شمرون الصهيونية، وأن الشهيدين وقعا في كمين نصبه لهم جنود الاحتلال، وتوعدت الكتائب الصهاينة برد قاسٍ وسريعٍ على هذه الجريمة البشعة مؤكدة بأن هذه الجريمة لن تمر بدون عقاب، وفي حفل التأبين الذي أقامته حركة حماس في البلدة القديمة، والذي حضره آلاف المواطنين وقف الشيخ ماهر الخراز يحيي الشهيدة سعاد ويستعرض بطولاتها ويعدد تضحياتها، ووصفها بخنساء الشعب الفلسطيني وسلية الصحابيات المجاهدات أمثال نسيبة بنت كعب المازنية وخولة بنت الأزور.

أما محمد نجل الشهيدة الأكبر فقد استذكر مناقب أمه المجاهدة ورثاها أروع رثاء، وتعهد بالسير على خطاها، أما حشود المشاركين فقد وقفت لتردد الأناشيد الحماسية، وحملوا

ذوي الشهيدة على الأكتاف وسط الهتافات المؤيدة لكافة الكتائب المجاهدة والمطالبة باستمرار الانتفاضة والمقاومة حتى النصر والشهادة

خنساء رفح : سأقدم الشهداء حتى النصر

" أدركت أن هذا هو قدر الله، فأخذت أزغرد وأصرخ بصوت عال ، ووقفت أوزع الحلوى بفخر على من جاء يواسيني " ...

هكذا استقبلت الحاجة فاطمة الجزار الملقبة بـ" خنساء رفح " نبأ استشهاد ابنها الرابع محمد الشيخ خليل لينضم لسبعة من أبناء العائلة استشهدوا بنيران الاحتلال هم أشرف وشرف ومحمود أبناء الحاجة فاطمة، واثنان من أحفادها ، وزوج ابنتها ، إضافة إلى أخيها .

ولقبت الحاجة " فاطمة " بخنساء رفح في إشارة إلى الشاعرة العربية المشهورة الخنساء أو تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية التي استشهد أبناؤها الأربعة في معركة القادسية سنة ١٤ هجرية. ولما بلغها الخبر، قالت: " الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته " .

فاطمة الجزار الشهيرة باسم خنساء رفح

وكان لسان حال خنساء رفح حينما زارتها " إسلام أون لاين.نت " اليوم الجمعة ٣٠-٩-٢٠٠٥ في منزل العائلة وسط مخيم يبنا للاجئين بمدينة رفح جنوب قطاع غزة هو : " لا حل إلا بالجهاد والمقاومة ، وسأستمر في تقديم الشهداء حتى يأذن الله بالنصر ... على استعداد أن أقدم باقي أولادي من أجل القدس ، فلن تكسر دبابات الاحتلال إرادتنا ، وسنبقى على العهد ما بقينا " .

وأضافت بصوت قوي: " أولادي الشهداء قدمتهم فداءً للدين وللوطن وللقضية وللمقدسات، الله يرضى عليهم ويجعلهم في مرتبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ولن أندم لحظة على التضحيات ".

وتابعت: " قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ولقد قدمت قبلهم أخي الشهيد خضر الجزار عام ١٩٦٧م وابن بنتي الشهيد حسن أبو زيد وابن بنتي الشهيد خالد غنام وزوج ابنتي الشهيد خالد عواجة ".

وبعد الحمد لله قالت خنساء رفح " أسأل الله أن يجمعني معهم في الجنة، وأحتسبهم عند الله شهداء خالصين لوجهه الكريم " .

وعن لحظات تلقيها نبأ استشهاد ابنها الرابع محمد الشيخ خليل قالت فاطمة : " كنت أجلس في صالون المنزل وعندما توالت الأنباء باستشهاد ابني محمد في قصف جوي حمدت الله وسجدت شكرا لله على استشهاده " .

الحاجة فاطمة الجزار-٦٠ عاما - شردت عائلتها من ديارها عام ١٩٤٨ من قرية (يبنا) ليستقر بها الحال في مخيم يبنا بمدينة رفح وتوالت عليها ابتلاءات الاحتلال وهو ما جعلها " تتمسك بالتضحية بكل نفيس حتى النصر " .

أبناؤها الأربعة

وحسب ما روت خنساء رفح عن أبنائها الشهداء الأربعة فقد ولد الشهيد الأول (اشرف الشيخ خليل) مطلع عام ١٩٦٥، نشأ وترعرع على مائدة القرآن ، وكان أحد أبرز رواد مسجد الهدى في مخيم يبنا ، حافظ على الصلاة في جماعة منذ الصغر ، وحتى يوم استشهاده .

والتحق أشرف بصفوف المقاومة وسافر إلى لبنان واستشهد في اشتباكٍ مسلح مع قوات الاحتلال بتاريخ ١-٧-١٩٩١ في عملية بالاشتراك مع المقاومة الإسلامية في لبنان .

أما الشهيد الثاني " شرف " فكان شعاره دائما " احرص على الموت توهب لك الحياة " .

وقالت إنه " استشهد في اشتباك مسلح في وسط البحر بالقرب من مخيم نهر البارد وكانت عمليته ضمن التصدي لقوات الإنزال البحري الصهيوني بتاريخ ٢-١-١٩٩٢ " .

" محمود " الشهيد الثالث من أبناء الحاجة فاطمة من مواليد عام ١٩٧٥ كان له حضور فاعل في كافة ميادين العمل الجهادي.

وانضم محمود الشيخ خليل ابن العائلة المجاهدة المعروفة في رفح لصفوف حركة الجهاد الإسلامي، وانخرط في عمل دؤوب مع إخوانه المجاهدين . وكان محمود دائماً متقدماً للصفوف في سرايا القدس الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي.

واستشهد محمود وهو قائد ميداني بسرايا القدس برفح عندما أطلقت طائرة استطلاع إسرائيلية صاروخا على منزل العائلة في مخيم يبنا برفح في شهر أكتوبر عام ٢٠٠٤ ، في إطار محاولة فاشلة لشقيقه الشهيد محمد الذي استشهد يوم الأحد ٢٥-٩-٢٠٠٥.

قائد سرايا القدس في جنوب قطاع غزة محمد الشيخ خليل الذي استشهد الأحد

أما آخر شهداء عائلة الشيخ خليل فكان " محمد " من مواليد عام ١٩٧١ بمدينة رفح ، سافر إلى لبنان مطارداً في عام ١٩٨٩ وقرّر العودة إلى موطنه الأصلي بعد اتفاقية " أوسلو " عام ١٩٩٣ ، ولكن تمّ اعتقاله في أثناء عودته وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ونصف .

وقد شغل محمد حتى لحظة استشهاده مسؤولية قيادة سرايا القدس في جنوب قطاع غزة ، وينسب له العديد من العمليات التي قامت بها سرايا القدس خاصة في جنوب القطاع .

وشارك مع مختلف فصائل المقاومة في صد الاجتياحات الإسرائيلية المتكررة لمدينة رفح ، أصيب محمد إصابة بالغة حيث بترت ساقه في شهر نوفمبر لعام ٢٠٠١ خلال خطأ فني وقع مع مجموعته عندما استهدفت مجموعته المستوطنات الإسرائيلية بقذائف الهاون وكان برفقته الشهيد القائد ياسر أبو العيش ومرافقه الشهيد نصر برهوم .

كان محمد الشيخ خليل أحد أهم المطلوبين لقوات الاحتلال ، حيث تعرّض لأربع محاولات اغتيالٍ باءت كلها بالفشل ، كان آخرها محاولة اغتياله بصاروخ أطلقته طائرة استطلاع على بيته في مخيم " يبنا " جنوب رفح في شهر أكتوبر لعام ٢٠٠٤ .

واستشهد محمد في قصف إسرائيلي لسيارته في أثناء مرورها أمام مطعم " شعفوط " في شارع البحر في حي تل الهوى غرب مدينة غزة .

أحفادها شهداء

عائلة الشيخ لم تخلو أيضا من الشهداء صغار السن فقد استشهد اثنان من أحفاد الحاجة فاطمة ، وهما حسن أبو زيد والشهيد البطل خالد غنام ، يوم ٩-٤-٢٠٠٥ .

والشهيدان من مواليد عام ١٩٨٩ وقتلا بنيران الاحتلال بينما كانا يلعبان مع أقرانهما في ساحة تبعد حوالي مائة متر من الشريط الحدودي وتحيطها المنازل الشاهقة، حيث " ظهرت فجأة دبابة صهيونية تقوم بدورية وتقدمت باتجاههما وصوبت نيران أسلحتها عن عمد باتجاههما " كما قالت .يا أختاه ماذا صنعت يد الدهر بك ؟ وما هذا الشقاء الذي تدخره لك الأيام ؟!

"مارجريت ماركوس"

وُلدت "مارجريت ماركوس"- مريم جميلة- في نيويورك عام ١٩٣٤م لأبوين يهوديين، وتلقَّت تعليمها الأوَّلِيَّ في ضاحية (ويستشير) الأكثر ازدحامًا، كان سلوكها ونمط تفكيرها ينبئ منذ البداية بزلزال سيغيِّر حياتها؛ ليخرجها من الظلمات إلى النور، ويجذبها بعيدًا عن مستنقع اليهودية؛ لتنعم هناك على مرفأ الإسلام، فقد انكبت على الكتب وهي ما زالت صبية طريّة العود، وكانت تكره السينما والرقص وموسيقا البوب، ولم تضرب قط موعدًا لمقابلة صديق، ولم تعرف طريقها إلى الحفلات المختلطة واللقاءات الغرامية!

تقول "مريم": "نمت لديَّ الرغبة منذ العاشرة في قراءة كلَّ الكتب التي تتحدَّث عن العرب، فأدركت أنَّ العرب لم يجعلوا الإسلام عظيمًا؛ لكن الإسلام هو الذي حوَّلهم من قبائل في صحراء قاحلة إلى سادة العالم".

بعد نجاحها في الثانوية في صيف ١٩٥٢م، التحقت بقسم الدراسات الأدبية بجامعة نيويورك؛ لكنها مرضت في العام التالي، واضطرت لوقف دراستها لمدة عامين، عكفت

خلالها على دراسة الإسلام، وبعد ما عادت إلى الدراسة وهي محمَّلة بتساؤلات كثيرة وحنين إلى العرب، التقت بشابة يهودية كانت عقدت عزمها على الدخول في الإسلام، وكانت مثلها تحبُّ العرب حبًّا عاطفيًّا، فعرَّفتها على كثير من أصدقائها العرب المسلمين في نيويورك، وكانتا تحضران الدروس التي يلقيها الحاخام اليهودي، والتي كان موضوعها (اليهودية في الإسلام)، وكان الحاخام يحاول أن يثبت لطلبته تحت شعار (مقارنة الأديان) أنَّ كلّ صالح في الإسلام مأخوذ مباشرة من العهد القديم (التلمود)، وهو التفسير اليهودي للتوراة، وكان الكتاب المقرَّر الذي ألَّفه الحاخام به بعض الآيات من القرآن الكريم، ليتبع أصول كلّ آية من مصادرها اليهودية المزعومة.

زيف وتناقض

بالإضافة إلى هذا كانت الصهيونية تبثُّ أفكارها بكلِّ حرية عن طريق الدعايات في الأفلام والمطويات الملوّنة التي كانت تدعو إلى الدولة الصهيونية، وترحِّب بها؛ لكن الأمر كان بالنسبة لها مختلفًا، فقد رسخت هذه الأفعال في ذهنها تفوُّق الإسلام على اليهودية؛ إذ إنَّ الصهيونية حافظت دائمًا على طبيعتها القبلية الضيقة، وفي كتبهم التي تدوِّن تاريخ اليهود أنّ إلههم قبلي، خاص بهم!

ومن المفارقات العجيبة أنَّ رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق "بن جوريون" كان لا يؤمن بإله معلوم له من الصفات الذاتية ما يجعله فوق الطبيعة، ولا يدخل معابد اليهود، ولا يعمل بالشريعة اليهودية، ولا يراعي العادات والتقاليد، ومع هذا فإنَّه معتبر لدى الثقات عند اليهود التقليديين الذين يعتبرونه أحد كبار اليهود في العصر الحاضر، كما أنَّ معظم زعماء اليهود يعتقدون أنَّ الله وكيل للعقارات، يهبهم الأرض ويخصهم بها دون غيرهم!

كلّ هذه المتناقضات جعلتها تكتشف زيف اليهود سريعًا، واكتشفت أيضًا حقد العلماء اليهود على المسلمين وعلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- لذا كانت الهوة تتسع مع مرور الوقت، ويزداد النفور كلما اقتربت وتعمَّقت في أفكارهم.

قرأت "مريم" ترجمة لمعاني القرآن الكريم بالإنجليزية للأستاذ "محمد بيكتول" فوقع في قلبها أنَّ هذا كتاب سماوي من لدن حكيم خبير لم يفرِّط في الكتاب من شيء، وأصبحت تتردد بشكل يومي على مكتبة نيويورك العامة، تنهل العلم من أربعة مجلدات مترجمة لـ(مشكاة المصابيح)، وجدت فيها الإجابات الشافية المقنعة لكلّ الأمور المهمة في الحياة، فزاد شعورها بضحالة التفكير السائد في مجتمعها، الذي يعتبر الحياة الآخرة وما يتعلَّق بها من حساب وثواب وعقاب ضربًا من الموروثات البالية، وازداد اقتناعها بخطر الاستسلام لشهوات النفس، والانغماس في الملذات الذي لا يؤدي إلاّ إلى البؤس وسوء السبيل.

الله أكبر.. ولدت مريم!

وفي يومٍ من أيام عام ١٩٦١م، حسمت "مارجريت" أمرها واتخذت قرارها، فتوجهت إلى مقر البعثة الإسلامية في (بروكلين) بنيويورك، وأعلنت إسلامها على يد الداعية "داود فيصل"، وأصبح اسمها "مريم جميلة".. في العام التالي هاجرت "مريم" إلى باكستان بدعوة من الشيخ "أبي الأعلى المودودي"، ثمَّ تزوجت الداعية الإسلامي "محمد يوسف خان"، وأنجبت منه أربعة أطفال.

قالت "مريم" بعد أن سكنت نفسها واطمأنت روحها ببرد الحقيقة العذبة: "رغم أنَّ باكستان شأنها شأن أيِّ بلد مسلم آخر، تزداد باستمرار تلوثًا بقاذورات أوروبا وأمريكا الكريهة، إلا أنَّها تجعل من الممكن للمرء أن يعيش حياة متفقة مع تعاليم الإسلام.. أعترف أنَّني أحيانًا أفشل في جعل حياتي اليومية تتفق تمامًا مع تعاليم الإسلام؛ ولكني أعترف بالخطأ بمجرّد ارتكابي له، وأحاول قدر استطاعتي تصحيحه.

تفاعلت "جميلة" مع أحداث العالم الإسلامي وتياراته الفكرية، فقالت في رسالة موجهة إلى عموم المسلمين: "اتبعوا هدي القرآن والسنة، ليس كمجموعة من الشعائر فقط؛ بل كمرشد عملي للسلوك في حياتنا اليومية الخاصة والعامة، اتركوا الخلافات جانبًا.. لا

تضيِّعوا وقتكم الثمين في الأشياء غير المجدية، وبمشيئة الله سيتوِّج المولى حياتكم بالفلاح العظيم في الحياة الدنيا، وبالفوز الأعظم في الآخرة".

ولم تنسَ "مريم" موطنها الأصلي، فقد بعثت برسالة إلى والديها في مارس ١٩٨٣م تقول فيها: "لابدَّ أن تعرفا أنَّ المجتمع الذي نشأنا وعشنا فيه كل حياتنا يشهد حالة من التفسخ السريع، وهو الآن على شفا الانهيار، إنَّ أمريكا الآن تكرار لروما القديمة في المراحل الأخيرة من انهيارها، والأمر نفسه يصدق على أوروبا وأيّ مكان تغلب عليه الثقافة الغربية، لقد فشلت العلمانية والمادية أن تكونا أساسًا لنظام اجتماعي ناجح. (١)

الإنتاج العلمي للمؤلف / الشيخ السيد مراد سلامة

القسم الأول. الردود والفرق والمذاهب والاعتقاد

١-تَبصرة الموحدين بخيانات ومخططات الشيعة على الإسلام و المسلمين

٢-التسعون العلية من أسماء الذات الإلهية

٣-طقوس وشعائر و أعياد شيعية في ميزان الشريعة الإسلامية

٤-فتاوى الأئمة الأعلام في بيان حقيقة وعقيدة الرافضة اللئام

٥-فكر المؤامرة عقيدة وحقيقة لا خيال

٦-المباهلة في الإسلام

٧-الشيطان كأنك تراه

القسم الثاني١ . كتب الحديث الشريف والسنّة والآثار :

٨- الإذاعة بذكر أربعين حديثا في السمع و الطاعة

---

١ -* نقلاً عن كتاب (رحلتي إلى الله من الكفر إلى الإيمان) لـ"مريم جميلة" بتصرف.

٩-الأربعون البرزخية

١٠-الأربعون البلدانِية

١١-الأربعون التيسيرية من سنة خير البرية

١٢-الأربعون الرمضانية من أحاديث خير البرية

١٣-الأربعون السماوية من أحاديث صفوة البشرية

١٤-الأربعون الكتابية

١٥-الأربعون النبوية في حرمة الدماء البشرية

١٦-الأربعون النبوية لمغفرة خطايا الإنسانية

١٧-الأربعون النورانية في وصف صفوة البشرية

١٨-البدر الأتم في ذكر أربعين حديثا قال فيها الصحابة الله ورسوله أعلم

١٩-الدر المختار من استفسارات الصحابة عن غريب قول النبي المختار

٢٠-الدر المختار من الأحاديث الواردة في البحار

٢١-فتح الجليل بذكر الأحاديث التي ذكر فيها النخيل

٢٢-فتح الكبير المتعال بالأحاديث الطوال

٢٣-متن الأربعين الشتوية من أحاديث خير البرية

٢٤-متن الأربعين المرادية إياكم واختراق المنهيات

٢٥-متن الأربعين من أهوال يوم الدين

٢٦-الأحاديث الواردة في فضائل سيناء

٢٧-الأحاديث والآثار الواردة في محبة الوطن عند الشعراء

٢٨-الأحاديث النبوية في أحكام الأذان وآدابه

٢٩-الأحاديث والدروس المستفادة من الهجرة النبوية

القسم الثالث: كتب الخطب والمواعظ والدروس المنبرية :

٣٠-إرواء المشتاق من خطب الأخلاق

٣١-الخطب المرادية عن شمائل خير البرية

٣٢-الخطب والمواعظ الباهرة في ذكر الموت و أهوال المقبرة

٣٣-الدرر البهية من المقدمات المنبرية

٣٤-العشريات المرادية من الخطب المنبرية

٣٥-المسك الأذفر للدرس والموعظة والمنبر

٣٦-موسوعة القصص المنبرية -الجزء الأول

٣٧-موسوعة القصص المنبرية -الجزء الثاني

٣٨-النسمات المباركات من مقدمات المناسبات

٣٩-تحفة الواعظ للخطب والمواعظ (ألف قصة وقصة)

القسم الرابع قسم الخطب الأخلاقية والمعاملات

٤٠-كتب ومجالس شهر رمضان المبارك وصلاة التراويح

٤١-إشراق المصابيح لجلسة صلاة التراويح

٤٢-الأماليح لجلسة صلاة التراويح

٤٣-ري الظمآن من دروس العصر في رمضان

٤٤-فيض الرحمن دروس وخواطر شهر رمضان

٤٥-القصص المليح لجلسة صلاة التراويح

٤٦-الكنوز الرمضانية

٤٧-اللآلئ الحسان من أوصاف شهر رمضان

٤٨-مشكاة المصابيح لجلسة صلاة التراويح

٤٩-المواعظ العصرية للدروس الرمضانية

٥٠-نفح الريح لجلسة صلاة التراويح

القسم الخامس : الفتاوى والأحكام الفقهية والشرعية:

٥١-أَرِيجُ العطر في بيان أحكام زكاة الفطر

٥٢-تحفة الأنام بفتاوى شهر رجب الحرام

٥٣-تحفة الملهوف بأحاديث الخسوف والكسوف

٥٤-تشنيف الآذان بما ورد في فضل وآداب وأحكام الأذان

٥٥-الدرر البهية من آداب وأحكام التحية

٥٦-الدرر البهية من الفتاوى الرمضانية

٥٧-الدرر السنية من فتاوى الأضحية (١٣٠ سؤال وجواب)

٥٨-قرة العينين بفتاوى أبي همام بالحرمين

٥٩-المشكاة في بيان آداب وأحكام اصطحاب الأطفال إلى الصلاة

٦٠-رسالة عاجلة إلى من فاته الحج

٦١-مخالفات في الطرق والمواصلات رؤية شرعية

٦٢-أسباب غلاء الأسعار وقلة البركة من منظور الشرع

القسم السادس: السيرة النبوية والشمائل والخصائص

٦٣-تحفة الداعية والإمام بدروس سيرة خير الأنام

٦٤-رد القوي المتين على من سب أو عاب النبي الأمين صلى الله عليه وسلم

٦٥-السراج الوهاج من عبر ودروس الإسراء والمعراج

٦٦-العناية الربانية بصفوة البشرية

٦٧-الفتح الرباني لمنهج الإمام الرمضاني

٦٨-فتح رب البرية من خطب ودروس الهجرة النبوية

٦٩-الكوكب الوهاج من خطب الإسراء و المعراج

٧٠-مؤذنو رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧١-النسوة يسألن والنبي يجيب

القسم السابع موسوعة "حرص السلف وتفريط الخلف"

٧٢-حرص السلف على اغتنام الأوقات وتفريط الخلف

٧٣-حرص السلف على إقامة العدل في الأرض وتفريط الخلف

٧٤-حرص السلف على الاتباع وتفريط الخلف

٧٥-حرص السلف على الزهد في الدنيا وإفراط الخلف في الحرص عليها

٧٦-حرص السلف على الصلاة وتفريط الخلف

٧٧-حرص السلف على العمل والكسب الحلال وتفريط الخلف

٧٨-حرص السلف على الغيرة على دينهم وأعراضهم وتفريط الخلف

٧٩-حرص السلف على القرآن الكريم تلاوة وعملا وتفريط الخلف

٨٠-حرص السلف على المحاسبة وتفريط الخلف

٨١-حرص السلف على النصح لولاة الأمور وتفريط الخلف

٨٢-حرص السلف على بر الوالدين وتفريط الخلف

٨٣-حرص السلف على تقوية روابط الأخوة والحب في الله وتفريط الخلف

٨٤-حرص السلف على طلب العلم وتعليمه و تفريط الخلف

٨٥-حرص السلف على قيام الليل و تفريط الخلف

القسم الثامن: التراجم والسير والتاريخ الإسلامي

٨٦-أنبياء وعلماء وقضاة خلف القضبان

٨٨-تذكرة النبلاء بفضائل سيناء

٨٩-ريب المنون في ذكر من مات بالطاعون من الصحابة والعلماء والقضاة والخلفاء والأمراء والشعراء

٩٠-صور من وصايا الأنبياء والخلفاء والعلماء والآباء والصحابة والتابعين عند موت

٩١-فتح الكريم الوهاب بتراجم العلماء العزاب

٩٢-صور مشرقة من الثبات على الإيمان للعبرة والعظة

٩٣-صور مشرقة من ثبات الصالحين ومواقفهم تاريخياً

القسم التاسع :التربية والأسرة والشباب والتربية الجنسية:

٩٤-أخطاؤنا في تربية الأبناء

٩٥-أي بنيتي تلك هي وصيتي

٩٦-التربية الجنسية في الإسلام

٩٧-الدرر الغراء من وصايا الآباء للأبناء

٩٨-الفتاوى العصرية في المسائل الجنسية

٩٩-صور مشرقة من حياة الأطفال

القسم العاشر: القضايا المعاصرة، الأخلاق، والمجتمع:

١٠١-أخطاء ومخالفات في الطرق والمواصلات رؤية شرعية

١٠٢-أسباب غلاء الأسعار وقلة البركة من منظور الشرع

١٠٣-تذكرة النبلاء بمحبة الوطن عند الشعراء

١٠٣الدر المنضود في الإصلاح والتغيير المنشود

١٠٤-درر الحكم، والأمثال لرسائل الجوال

١٠٥-فيض العزيز الغفار في بيان حقوق وأحكام الجار

١٠٦-اللامبالاة في حياة الفرد والأسرة و المجتمع (المظاهر -الأسباب-الآثار-العلاج)

١٠٧مفاتيح النجاح العشرة

١٠٨-نبع الإيمان بخطب محبة وحقوق الأوطان

١٠٩-القول الجلي في مخالفات شرعية يقع فيها رواد التواصل الإجتماعي

القسم الحادي عشر النوازل، مآسي الأمة، وقضية فلسطين

١١٠-بيت المقدس بين وحشية الغاصبين ورحمة الفاتحين

١١١-مجازر في تاريخ الأمة الإسلامية (دماء وأشلاء .. عويل وبكاء)

١١٢-مجازر في تاريخ غزة

١١٣-مجازر من تاريخ سوريا دماء وأشلاء

١١٤-هزة غزة (هزة إيمان واعتقاد وعزة)

المـراجـــع

كتب التفسير

١ – تفسير الطبري

٢–تفسير الألوسي

٣–تفسير البحر المحيط

٤–تفسير الرازي

٥–تفسير السعدي

٦–تفسير الشعراوي

٧–تفسيرابن كثير

٨–تفسير القرطبي

٩–تفسير القشيري **لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري**

١٠-تفسير المراغي لمصطفي المراغي

١١-التفسير المنير للزحيلي

١٢-التفسير الوسيط للزحيلي

١٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

١٤- زهرة التفاسير لمحمد أأبو زهرة

١٥- **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** للواحدي

١٦- في ظلال القرآن لسيد قطب

١٧- الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور **لحكمت بن بشير بن ياسين**

كتب السنة

٢٧-الموطأ للامام مالك

٢٨-مسند الامام احمد

٢٩-مسند الحميدي

٣٠-مسند عبد ابن حميد

٣١-صحيح البخاري

٣٢-صحيح مسلم

٣٣-سنن ابي داود

٣٤-سنن ابن ماجه

٣٥-سنن النسائي

٣٦-سنن الدارمي

٣٧-معجم الطبراني الكبير

٣٨-معجم الطبراني الاوسط

٣٩-معجم الطبراني الصغير

٤٠-مستدرك الامام الحاكم

٤١-سنن البيهقي الكبرى

٤٢-دلائل النبوة للبيهقي

٤٣-الأدب المفرد للبخاري

٤٤-مجمع الزوائد للهيثمي

٤٥-تحقيق شرح الطحاوية للألباني

٤٦-السلسلة الصحيحة للألباني

٤٧-صحيح الترمذي للألباني

٤٨-صحيح الجامع للألباني

٤٩-صحيح سنن النسائي للألباني

٥٠-صحيح ظلال

٥١-المشكاة المصابيح للألباني

كتب الشروح

٥٢-شرح ابن بطال لصحيح البخاري

٥٣-شرح السنة للبغوي

٥٤-شرح النووي على صحيح مسلم

٥٥-شرح منظومة الآداب

٥٦-عون المعبود محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب

٥٧-فتح الباري لابن حجر

٥٨-شرح سنن أبي داود - عبد المحسن العباد

كتب التاريخ والتراجم :

٥٩-الاستبصار للشيخ عبد الرحمن المعلمي

٦٠-الاستيعاب لابن عبد البر

٦١-أسد الغابة لابن **الأثير**

٦٢-الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة الخطيب البغدادي

٦٣-الاصابة لابن حجر أبو الفضل العسقلاني

٦٤-بحر الدم ليوسف بن المبرد

٦٥- البداية و النهاية لابن كثير

٦٦-تاريخ الاسلام للذهبي

٦٧-تاريخ الرسل والملوك للطبري

٦٨-التاريخ الصغير للبخاري

٦٩-تاريخ الفسوي

٧٠-تاريخ المدينة المنورة لابن شبة

٧١-تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٧٢-التاريخ لابن معين

٧٣-تذكرة الحفاظ للذهبي

٧٤-تهذيب الاسماء واللغات لأبي زكريا يحيى النووي

٧٥-تهذيب التهذيب ابن حجر العسقلاني

٧٦-تهذيب الكمال للمزي

٧٧-تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون

٧٨-جامع الاصول لابن الأثير

٧٩-الجرح والتعديل لابن ابي حاتم

٨٠-خطط مبارك لعلي باشا مبارك

٨١-خلاصة تذهيب الكمال لصفي الدين أحمدبن عبد الله بن علي بن حسن الخزرجي ، الانصاري

٨٢-الداعية زينب الغزالي مسيرة جهاد وحديث من الذكريات من خلال كتاباتها، دار الاعتصام، لابن الهاشمي القاهرة ١٩٨٩م.

٨٣-امرأتان مؤمنتان في رحلة التحرير النسوي الجاد (زينب الغزالي، وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ) شهرزاد العربي.

٨٤- زينب الغزالي، أيام من حياتي، دار الاعتصام، القاهرة.

٨٥- شهرزاد العربي: زينب الغزالي من البرنيطة إلى الحجاب، بيت الحكمة، منشية الصدر، القاهرة، مصر، عام ١٩٩٦م.شبوه نت

٨٦-رحلتي إلى الله من الكفر إلى الإيمان) لـ"مريم جميلة"

٨٧-سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي **للعصامي**

٨٨-سير أعلام النبلاء للذهبي

٨٩-سير الصحابة من كتاب حياة الصحابة

٩٠-السيرة النبوية لابن هشام

٩١-السيرة النبوية للصّلاّبي

٩٢-شذرات الذهب عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي

٩٣-صفوة الصفوة.لابن الجوزي

٩٤-طبقات الحفاظ للسيوطي

٩٥-الوفيات: لابن قنفذ

٩٦-طبقات الحنابلة ابن أبي يعلى

٩٧-طبقات الاولياء

٩٨-الطبقات الكبرى لابن سعد

٩٩-طبقات خليفة

١٠٠-العبر للذهبي

١٠١-عيون الأخبار: ابن قتيبة الدينوري

١٠٢-غاية النهاية: ابن الجزري

١٠٣-الفتوحات الإسلامية د. عبدا لعزيز العمري

١٠٤ -فقه السيرة تحقيق الألباني

١٠٥-كشف الأستار لحافظ الخطيب البغدادى

١٠٦-كنز العمال: **علي بن حسام الدين المتقي الهندي**

١٠٧-لب اللباب في تحرير الأنساب المؤلف: السيوطي

١٠٨-المحبر محمد بن حبيب البغدادي

١٠٩-مروج الذهب المسعودي

١١٠-المعارف بن قتيبة الدينوري

١١١-معجم النساء لعمر كحالة

١١٢-المنتظم لابن الجوزي

١١٣-النجوم الزاهرة ابن تغري بردي

١١٤-نسب قريش مصعب الزبيري

١١٥-نور الابصار للسيد مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجى ص فتح المنان.

١١٦-الهجرة النبوية المباركة، د.عبد الرحمن البر،

١١٧-الوافي بالوفيات **الصفدي**

١١٨-فتوح ابن الاعثم الكوفي

١١٩-وفيات الأعيان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان

١٢٠-التاريخ الاسلامي للحميدي

١٢١-السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، د. محمد أبو شهبة

١٢٢-حسن المحاضرة للسيوطي

١٢٣-جمهرة أنساب العرب. ابن حزم

كتب الأخلاق والأدب:

١٢٤-زاد المعاد للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى.

١٢٥-زوجات النبي سعيد أيوب

١٢٦-سلسلة القصص للشيخ محمد المنجد حفظه الله

١٢٧-بر الوالدين، أم حفص عبير بنت محمد

١٢٨-بلاغات النساء ابن طيفور

١٢٩-صبح الاعشى القلقشندي

١٣٠-الرد على الجهمية للدارمي

١٣١-العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي

١٣٢-العلو للذهبي

١٣٣-نزهة الجلساء في أشعار النساء السيوطي

١٣٤-الكشكول البهاء العاملي

١٣٥-محاضرة الغاية من إقامة البيت المسلم

١٣٦-محاضرة مكانة المرأة في الإسلام للشيخ علي القرني

١٣٧-التربية القيادية. لمنير الغضبان

١٣٧-ايماض البرق للشيخ / علي القرني

١٣٨-تراجم شعراء الموسوعة الشعرية

١٣٩-أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبى سفيان / العباس بن بكار الضبي

الفهرس

المقدمة.....٣

الباب الأول: الإسلام دين الأنبياء جميعا.....٦

الباب الثاني: مكانة المرأة في الشرائع

السماوية.....١٥

الفصل الأول المرأة في حياة الأنبياء (عليهم الصلاة

والسلام.....١٥

الفصل الثاني مكانة المرأة في

الإسلام.....٢١

الباب الثالث: صور حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة.....٣٣
سارة عليها السلام.....٣٣
مواقف حاسمة من حياة هاجر عليها السلام.....٤٣
مواقف حاسمة من حياة أم موسى عليه الصلاة و السلام.....٥٢
مواقف حاسمة من تاريخ آسية بنت مزاحم – رضي الله عنها.....٦٧
موقف ماشطة ابنة فرعون- رضي الله
عنها.....٦٩
موقف ابنتا شعيب من موسى عليه السلام.....٧٢
امرأة عمران رضي الله
عنها.....٨٦
مواقف حاسمة من تاريخ السيدة العذراء مريم عليها السلام ٩٤
الزوجةُ الوفيَّةُ (زوجة أيوب النبي عليه السلام) ١١٣
ملكة سبأ بلقيس –رضي الله عنها.....١١٦
مواقف حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة: أمة محمد ١٣٦
خديجة بنت خويلد رضي الله
عنها.....١٣٧
مواقف حاسمة من تاريخ عائشة رضي الله
عنها.....١٤٤
أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة.....١٦٩
زينب بنت جحش – رضي الله
عنها.....١٨٠
نسيبة بنت كعب الأنصارية. –رضي الله عنها –.....٢٠٢

سمية بنت خياط-رضي الله عنها- أول شهيدة في
الإسلام.....٢٠٧
خولة بنت ثعلبة المرأة التي سمع الله شكواها من فوق سبع
سماوات.....٢١٠
أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين رضي الله
عنها.....٢١٧
كبشة بنت رافع أم الأبطال-رضي الله عنها-
.....٢٢٢
أم حرام بنت ملحان شهيدة البحر-رضي الله عنها-.....٢٢٣
الربيع بنت معوّذ-رضي الله عنها-
.....٢٢٥
الخنساء – رضي الله عنها-.....٢٢٧
أسماء بنت يزيد بن السكن خطيبة النساء-رضي الله عنها-
.....٢٢٩
صفية عمة النبي- صلى الله عليه و سلم-رضي الله عنها-
.....٢٣١
أم سليم – رضي الله عنها-
.....٢٣٤
أروى بنت عبد المطلب بن هاشم الهاشمية.-رضي الله
عنها.....٢٣٨
أم أيمن- رضي الله عنها-
.....٢٤١

بريرة مولاة عائشة-رضي الله عنهما-
.....٢٤٤
فاطمة بنت الخطاب- رضي الله عنها-
.....٢٤٦
أم كلثوم بنت علي-رضي الله عنها-.....
٢٤٨.....
زينب بنت علي – رضي الله عنهما-
.....٢٥٠
فاطمة بنت علي – رضي الله عنهما-
.....٢٥٣
أم الدرداء رضي الله
عنها.....٢٥٧
هند بنت عتبة رضي الله
عنها.....٢٥٨
عاتكة بنت زيد- رضي الله
عنها.....٢٦٠
أم معبد الخزاعية- رضي الله
عنها.....٢٦٢
الحولاء بنت تويت- رضي الله
عنها.....٢٦٦
أم عوف زوجة أبي الأسود الدؤلي.....٢٦٧
زرقاء بنت عدي بن مرة الهمدانية.....٢٦٩
زينب بنت حدير.....٢٧١

أم نهار العدوية ٢٧٣
السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد.....٢٧٤
أم البنين.....٢٧٦
بكارة الهلالية.....٢٧٧
أم البراء بنت صفوان.....٢٨٠
أرذة بنت الحارث.....٢٨٢
أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية.....٢٨٣
مخة أخت بشر بن الحارث.....٢٨٥
تقية أم علي الشاعرة.....٢٨٨
زبيدة أم الأمين.....٢٨٩
الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر.....٢٩٣
شغب أم المقتدر.....٢٩٥
زينب محمد الغزالي الجبيلي.....٢٩٦
سعاد جود
الله.....٢٩٩
فاطمة الجزار الشهيرة باسم خنساء رفح.....٣٠٤
مارجريت ماركوس.....٣٠٧
الإنتاج العلمي للمؤلف / الشيخ السيد مراد سلامة.....٣١٠
المراجع ٣١٦
الفهرس.....٣٢٣